

مكتبة الدراسات الأدبية

١٣

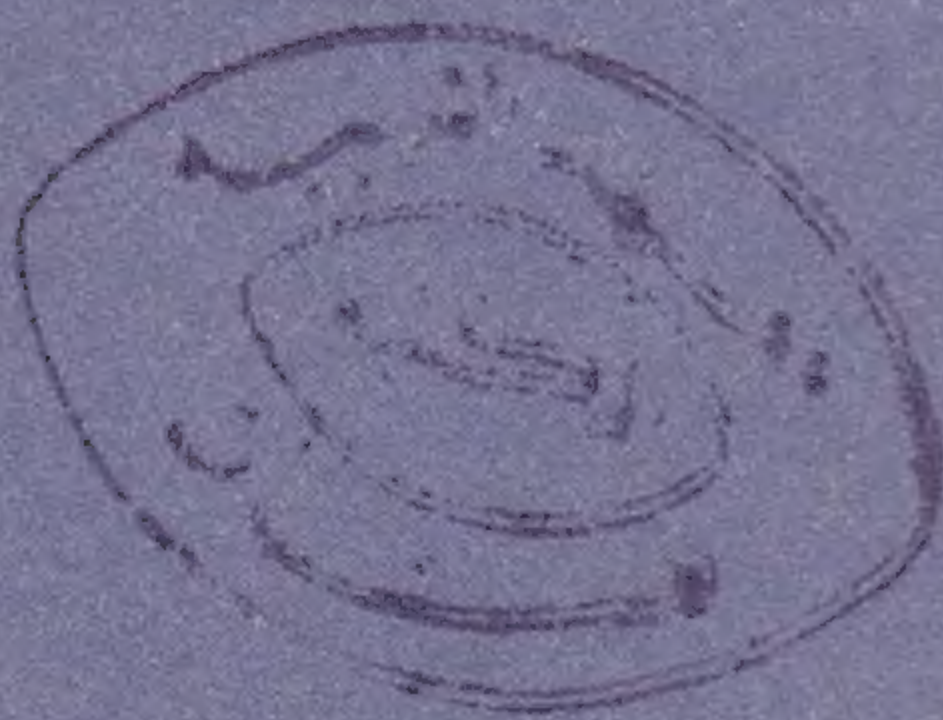
الدكتور عبد الحميد سند الجندى

١٦٢٥

١ (طالعي)

حافظ إبراهيم

شاعر النيل



دار المعارف بمطرو

حافظ إبراهيم

شاعر النيل



مكتبة الدراسات الأدبية

حافظ إبراهيم

شاعر النيل

تأليف

· الدكتور عبد الحميد سند الجندى

مدرس بكلية البنات بجامعة عين شمس



دار المعارف بمصر

الفهرس

صفحة	
٧	مقدمة
٧٠-١٥	حياة حافظ وسيرته
١٥	(١) مولده ونشأته
١٩	(٢) حافظ المحامى
٢١	(٣) حافظ فى المدرسة الحربية
٢٣	(٤) حافظ الضابط
٣٥	(٥) حافظ بلا عمل
٤٠	(٦) حافظ وحواء
٤٤	(٧) حافظ الموظف بدار الكتب
٤٦	(٨) وفاة حافظ
٤٩	(٩) أخلاقه وشخصيته
١٠٠-٧١	ثقافة حافظ ومصادرها
٧١	(١) القراءة
٧٦	(٢) المجالس
٧٩	(٣) الصحف
٨٤	(٤) الأساتذة، وفيه نبذة عن البارودى ٨٦ والإمام محمد عبده ٩٣

صفحة	شعر حافظ
٢٠٥-١٠١	.
١٠١	(١) معالنه ومقوماته .
١١٧	(٢) الوصف والخيال .
١٢٩	(٣) المدح .
١٣٥	(٤) الرثاء .
١٥٤	(٥) معارض التاريخ .
١٦١	(٦) الوطنيات .
١٨٥	(٧) الشكوى .
١٩٠	(٨) الفكاهة .
١٩٨	(٩) الأخطاء والسرقات
٢٠٦	خاتمة القول فى حافظ .
٢٠٦	(١) بين حافظ وشوقى
٢٣٢	(٢) كتب حافظ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

عهد إلى أن أقوم بدراسة شخصية أدبية معاصرة لطالبات الليسانس بقسم اللغة الإنجليزية بكلية البنات بجامعة عين شمس ، فنثرت الكنانة بين يدي واصطفيت شخصية كنت أحس لها في قرارة نفسي منذ أن تمزّزت طعم الأدب بشيء غير قليل من التعاطف المقرون بالتقدير والإشفاق .

وسر ذلك أن « شاعر النيل » قاسى في فجر حياته ضروباً مختلفة من الحرمان وألواناً شتى من البؤس والمآربة . هذا إلى ما وقر في أذهاننا من أنه كان لسان صدق للشعب ، يعبر عن آلامه وآماله ، ويرسم له سبيل الوصول إلى حياة حرة كريمة .

من أجل ذلك كنا نشعر – نحن شباب العلم – بأن حافظاً قريب إلى نفوسنا ، محبب إلى قلوبنا ، نجد في قراءة شعره ما يلذ عقولنا ويقرى نفوسنا أنساً وإمتاعاً . وزادنا إقبالا على شعره ما كنا نحسه فيه من ديباجة موقنة وغور قريب لا يكدره الدهن ولا يعنى الفكر .

وكنت إبان الطلب أجد في نفسي رغبة ملحة في دراسة هذا الشاعر دراسة عميقة ، ولكن كان يحول بيني وبين ذلك ما يشغل طالب الجامعة من درس وتحصيل .

ثم انغمرت في خضم الحياة بعد الانتهاء من دراستي الجامعية ، وران

على علاقتي بحافظ رُكّام كثيف من النسيان كاد يجبّ ما بيني وبينه من وثيق الصلة .

وتطرّحت السنون وعُيّنت مدرّساً بكلية البنات ، فلم تكد تسنح الفرصة حتى اهتبلتها في غبطة وجدل لأحقق أمنية كانت تراودني منذ أمد بعيد .

فأخذت أقرأ شعر الرجل مستأنياً ، وأقرأ كل ما كتب عنه قراءة متثدّة فتبين لي بعد ذلك أن حافظاً قد خدعني عن نفسه ، وأنه قد عزّب عني ، الكثير من حقيقة فنه وشخصيته . وتبين لي كذلك أنه لم يأخذ حظه من الدراسة المفصلة الصادقة كصنوه شوقي . . . فقد كُتبت عن حافظ بضع مقالات وصدر في دراسته قليل من الكتب ، ولكن ذلك لم يكن لينقع لنا غلة ، لأن الكثير منهم كانوا يسرفون في إطرائه إسرافاً لا حدّ له ، حتى لقد غلا البعض فجعله زعيم شعراء العربية . وهاجمه آخرون هجوماً فيه عنف وفيه شدة .

ولعل أعرف المؤلفات التي وُضعت عن حافظ المقالات الرائعة التي ديجتها يراعة أستاذنا عميد الأدب الدكتور طه حسين ، ولمّ شتاتها في كتاب سماه « حافظ وشوقي » ، ولكنني أستشف منه ميلا إلى حافظ وتحاملا على شوقي .

ثم شاءت وزارة المعارف أن تجمع شعر حافظ ، فتجرّد لهذا الأمر أستاذنا الجليل المرحوم الدكتور أحمد أمين وزميلاه المرحوم الأستاذ أحمد الزين والأستاذ إبراهيم الإبياري . وقد صدر الدكتور الديوان بمقدمة طويلة تناول فيها حياة الشاعر وشعره . وهذه المقدمة يجد الباحث العجّل بعض بغيته فيها ، ولكنها على كل حال ليست بذات غناء كبير . وليس من ريب في أن الظروف السياسية التي كانت تختلف على البلاد آنذاك هي التي دفعت المرحوم الدكتور إلى أن يعلى من شأن الرجل في غير احتياط وأن يردّ عنه كل شبهة . وكان ذلك في غضون عام ١٩٣٧ .

وقبل ذلك بسنوات خصّص الشاعر المرحوم الدكتور أحمد زكي أبو شادي عدداً من مجلة « أبولو » (يولييه سنة ١٩٣٣) ، وقد توخى كثير من الأدباء الذين اشتركوا في تحرير هذا العدد بعض الصدق والإنصاف ، ولكنهم لم يبلغوا من ذلك ما كنت أروم . بيد أن بعضهم ممن اتصل بحافظ قد أظهرنا على كثير من طباعه وصفاته ، وبخاصة المرحومان الشيخ عبد الوهاب النجار والأستاذ إبراهيم دسوقي أباطة .

وفي عام ١٩٤٧ أصدرت دار المعارف عدداً خاصاً من مجلة « الكتاب » بمناسبة مرور خمسة عشر حولا على وفاة الشاعرين الكبيرين . وهذا العدد من أقوم ما كتُبَ عنهما ، وقد وجدت فيه كثيراً مما كنت أبتغي ، وأعجبنى أن هؤلاء الأدباء الأفاضل كانوا يرعون الحق بقدر ما جهدوا ، إذ كان يحذوهم إلى ذلك سلامة النية وسواء القصد .

وفي العام نفسه صنع الأديب الفاضل الأستاذ حسن كامل الصيرفي كتيباً صغيراً قدّم لنا فيه دراسة رصينة هادئة عن الشاعرين ، بريئة من التحامل والهوى ، ولكنه ترك أموراً كانت خليقة بالدرس والاستقصاء .

ثم ظهر بعد ذلك كتاب في سلسلة « اقرأ » للأديب الدكتور سامي الدهان اسمه « شاعر الشعب » ، كله — من أوله إلى آخره — دفاع حارّ عن حافظ وتمجيد لشعره .

وعلى عكس ذلك ما فعله المرحوم الأديب الكبير إبراهيم عبد القادر المازني ؛ فقد نشر في أوائل هذا القرن بضع مقالات في صحيفة « عكاظ » كانت كلها هجوماً عنيفاً على حافظ ومحاولة للنيل منه والخط من قدره . ومنذ بضعة أشهر أصدر الشاعر الأديب الأستاذ أحمد محفوظ كتابه « حياة حافظ إبراهيم » . والأستاذ محفوظ اتصل بحافظ عن كثب ولازمه وتلمذ عليه واشتغل معه في القسم الأدبي بدار الكتب ، فوقف بذلك على الكثير من طباعه وسجاياه وعاداته . وهذا الكتاب يعنى بحياة حافظ عناية

طيبة كما يفهم من عنوانه . وقد كشف لنا المؤلف عن كثير من حياة الرجل الخاصة ، وأتحفنا بقدر لطيف من فكاهاته ونوادره التي تنم عن بديهة حاضرة وخاطر سريع وذكاء لمّاح . ولم ينس أن يفرد في نهاية الكتاب فصلاً عن « فن حافظ » ينبيء — على إيجازه — عن فهم دقيق لشعر الرجل . وهذا الكتاب خفيف الروح لطيف المحمل ، لا تكاد تقرأ السطر الأول منه حتى تتوق نفسك إلى أن تأتي عليه . وقد أفادني كثيراً في الوقوف على حياة حافظ وخلقه ومواهبه وعلاقاته بمرءوسيه ورؤسائه وصلاته بعلية القوم ورجالات الدولة .

ونخصّ أستاذنا الكبير عباس محمود العقاد حافظاً بمقال في كتابه « شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي » . وهذا المقال فيه عمق خصيب تعودناه دائماً من الأديب العظيم في أبحاثه الأدبية . وفي الكتاب دراسة طيبة عن الشاعر « محمود سامي البارودي » أستاذ حافظ الأكبر ومثله الأعلى . وكانت هذه الدراسة خير معاون لنا — إلى جانب المصادر الأخرى — في إزجاء صورة صادقة عن رائد الشعر العربي في العصر الحديث .

ووضع الأستاذ « روفائيل مسيحة » كتاباً عن « حافظ إبراهيم الشاعر السياسي » تناول فيه شعر حافظ الذي يتصل بالسياسة ليس غير . وأول ما يدهك في هذا الكتاب أن الباحث قد تجرّد للدفاع عن مواقف حافظ إزاء الأحداث السياسية في غير ما تحفظ ، محايياً للشاعر محاباة صارخة . وهناك المقالات التي كتبت عن حافظ وجمعها الأديب الدمشقي السيد أحمد عبيد مع ما كتُب عن شوقي في كتاب سماه « ذكرى الشاعرين » . وكذلك المقالات القيمة التي كتبها عنه الضابط الأديب السيد أحمد الطاهر ، ولكنه نحا فيها نحواً آخر لا تفيد منه الدراسات الأدبية الخالصة كثيراً . هذا — فيما أعلم — هو كل حظ حافظ من الدراسة . وأنت ترى أنه لم يوضع عنه كتاب جامع يتناوله بالدراسة المفصلة العميقة المستقيمة على غرار

الكتاب القيم الذى ألفه صديقنا الأديب الباحث الدكتور شوقى ضيف عن « شوقى شاعر العصر الحديث » مثلاً . فهذا الكتاب يعتبر - فى نظرى - من خير الدراسات الأدبية التى تمتاز بالعمق والحصب والتزاهة .

وقد أردت أن أضع عن حافظ كتاباً يقوم على الدراسة المستفيضة التى سداها الإنصاف ولحمتها الصدق . وقد بدأت بالحديث عن نشأته وحياته بقدر ما أسعفتنا المصادر التى وقعنا عليها ، وعنيت بنوع خاص بالنواحي البليغة الأثر فى اتجاهاته الفنية ، معزراً رأى بشواهد من شعره . وقد أفادنى كتابه المسمى « ليالى سطوح » فى تبيان الأحداث التى لا يسته وموقفه منها موقف المتوجس المدعور فى الغالب ، وما كان يتناوش نفسه الحطيمة من يأس غامر فى الحقبة التى قضها فى السودان . ووقفت منه كذلك على مدى ما كان للمستعمرين الإنجليز آنذاك من بطش قاهر يخمد الأنفاس .

ثم تحدثت عن مصادر ثقافته المتنوعة من كتب ، وصحف ، ومجالس كانت تنتظم خيرة أساتذة ذلك العهد . ووجهتُ عناية خاصة لأستاذين عظيمين كان لهما أثر بارز فى فن حافظ وثقافته ، وهما الشاعر سامى البارودى والإمام المصلح الأستاذ محمد عبده . وقد قدمت لكل منهما ترجمة موجزة مبيناً مبلغ تأثير تلميذهما بهما .

ثم تناولت بعد ذلك شعره ، فتحدثت عن خصائصه ومقوماته ، وأفضت فى الكلام عن فنونه المختلفة ، وما برز فيه منها وما وقف منها عند السفح . وقد حرصت على أن أردد ذلك إلى علله الأصيلة ؛ المكتسبة منها والمركوزة فى فطرته . وكنت جدّ حريص على أن أقتنص كل تهيئة لأقارن بينه وبين زميله شوقى فى الفنون المتماثلة ، وبخاصة القصائد التى قيلت فى مناسبة واحدة ، لأن الفرص فيها تكون متكافئة بين الشعارين ، وبذلك نستطيع الحكم بينهما مقسطين . ثم رأيت أن أعقد فصلاً خاصاً للمقارنة بينهما فى شىء من الإسهاب

إجزالا للفائدة ، ولهذا قرأت شوقيات أمير الشعراء قراءة فاحصة ، كما قرأت كل ما كتب عنه ، واستخلصت من ذلك كله أحكاماً أدنى إلى القصد وأقرب إلى الصواب .

وقد تبين لي من دراسة الرجلين أن كثيراً من الأمور قد خلقت من شوقي شاعراً فذاً لم يستطع حافظ أن يلحق به . فقد كان لنشأته بين أكتاف النعمة أبلغ الأثر في خياله واتجاهاته الفنية . هذا إلى أنه قد وجد في مؤتلف شبابه أستاذاً له يستهديه فيهديه ويسترشده فيرشده ، وهو الشاعر الرقيق الذوق المرفه الحس « إسماعيل صبرى » . فكان شوقي يعرض عليه شعره فيبصره بكل غمزة يجدها فيه من لفظة قلقة أو معنى متهافت أو صورة سوقية .

وما زال شوقي يعالج شعره تحت إشراف أستاذه حتى استوت عنده ملكة الفن ودان له سلطان القريض وأصبح لا يشعر بحاجة إلى مراجعة أستاذه فاستقل عنه وبزّه وشآه .

يضاف إلى ذلك أنه ملأ جعبته بالثقافة العربية المختلفة الطعوم ، وبأمشاج قوية من الثقافات الأجنبية المتعددة الألوان . وقد نضح ذلك على أفكاره ومعانيه واتجاهه الفن .

أما حافظ فلم يكن له من ذلك شيء كثير . . . كان رقيق الحال ضنك المعيشة ، فحرم الخيال الخصب والصورة الرائعة والحو الشعرى الرفيع .

ولم يكن حافظ يعتبر الشعر فناً يُدرس ويُتلقى على أساتذة . وكل ما صنعه أنه كان يقفو أثر البارودى في فحولة العبارة وإشراق الديباجة .

نعم كان يعرض شعره أحياناً على كبار شعراء ذلك العصر وأدبائه ، ولكنه لم يكن دائماً على ذلك دعوب شوقي ، بل إنه كان يجعل نصائحهم في بعض الأحيان دبراً أذنه ودون رأيه . وثقافته تكاد تكون عربية خالصة ، تعتمد أكثر

ما تعتمد على كتب الأدب واللغة والأخبار ، وقد اختزن في حافظته منها قدراً ضخماً . ووقف على بعض المعارف العربية الأخرى كالفلسفة والتاريخ والمذاهب الفكرية ، ولكنه لم يكن يتعمقها . ولهذا كان أخص ما يمتاز به شعره أنه كان ذا مسحة عربية صريحة .

بيد أن حافظاً سبق شوقي في فنين اثنين هما الرثاء ووصف الكوارث ، وسر ذلك أنه كان يحس بالفجعية في أعماق نفسه بسبب ما عاناه في حياته الأولى من عنت الدهر وقسوة الأيام . فضلاً عن أنه كان رجلاً يألف الناس ويتألفهم ويخلص الود لهم ولا يستبقي من صلاته بهم إلا الوفاء والخير . وأخيراً ختمت الكتاب بالحديث عن نثر حافظ وما تركه من آثار غير الديوان لتكون الصورة أدق والفائدة أعم .

وأحب أن أقول إننى قد تحررت الدقة في الاستشهاد ، محترزاً من المغالطات التاريخية التي وقع فيها غيرى عن قصد أو عن غير قصد .

* * *

وبعد ، فهذا جهد متواضع أقدمه للمكتبة العربية ، ولست أدعى فيه بحثاً مثالياً بريئاً من المغامر . وحسبى أننى توخيت الصدق والإنصاف ما وسعنى ذلك ، مبتغياً أن أرد الحق الذى حلحله غيرى إلى نصابه . فإن أصبت فهذا ما أرومه راحةً لنفسى ، وإن كان الأمر على غير ذلك فلي جزاء المخلصين ، ولكل امرئ ما نوى . والله تعالى يهدينا سواء السبيل .

مصر الجديدة في ٢٢ مارس سنة ١٩٥٩

عبد الحميد سند الجندى

حياة حافظ وسيرته

١

مولده ونشأته

هو « محمد حافظ إبراهيم » ، ولد في حراقة أنيقة كانت راسية في النيل بالقرب من قناطر ديروط كما سجل هو بخط يده في ملف خدمته . وكان يملك هذه الحراقة « محمود سليمان باشا » من كبار سادة الصعيد في ذلك الحين ، وقد قدمها إلى والد شاعرنا « إبراهيم أفندي فهمي » أحد المهندسين المشرفين على القناطر لينعم بسكنائها لقاء توفير المياه لإرواء أراضيها الواسعة . والظاهر أن فضل الباشا على المهندس لم يكن مقصوراً على الذهبية ، بل كان يغدق عليه الكثير من الخيرات التي أفاءها الله على أهل الأرياف وبخاصة الأغنياء منهم . وكان حافظ يعرف فضل هذا الرجل على أبيه ، ويصرح به في القصيدة التي رثاه بها ، وقد استلها بقوله :

مسدي الجميل بلا من^١ يكدره ومكرم الضيف أمسي ضيف رضوان^(١)

وختمها بهذا البيت :

كم نعمة لك يا « محمود » عند أبي بشكرها لك عند الموت أوصاني

وقد سار أبناء (الباشا) على منوال أبيهم ، فكانوا يكتفون حافظاً بفضلهم

(١) ديوان حافظ إبراهيم ٢٣٦/٢ طبعة وزارة المعارف ١٩٣٧ .

الغامر ، وكان المغفور له « محمد محمود » يقربه لأدبه وظرفه ، وكان حافظ يشعر بأنه ذو مكانة أثيرة في هذه الأسرة . ويحدثنا صديقه الأستاذ أحمد محفوظ بأن حافظاً كان — عندما تولى محمد محمود رئاسة الوزارة — « يخال نفسه أنه هو محمد محمود ، فإذا تحدث معنا قال : نحن فعلنا كذا وسوف نفعل كذا »^(١) . وكان والده مصرياً صمياً ، أما أمه « الست هانم كريمة أحمد البورصة لى » فيرجع نسبها إلى أسرة تركية .

ولا يعرف أحد ولا حافظ نفسه يوم ولادته على وجه التحديد . وعندما أريد تعيينه في دار الكتب يوم ٤ فبراير سنة ١٩١١ قدر القومسيون الطبي سنة بتسع وثلاثين سنة وعلى هذا التقدير يكون مولده يوم ٤ فبراير ١٨٧٢ . والذين يعرفونه منذ حدائته يقولون إنه كان أسنّ من ذلك .

وقد تفتحت عينا الشاعر على مياه النيل الرقاقة ، فكان ذلك إرهاصاً لطيفاً بأن الذى وُلد على صفحة النيل لُقّب فيما بعد « بشاعر النيل » .

وقد درج الطفل على ظهر الحراقة ينعم بحنان والديه ويرضع من لبان حبهما . ولما بلغ الثالثة من عمره آنس الله وحدته بأخت لا تعرف اسمها ولا نعرف من أمرها شيئاً . وفي سنته الرابعة لف الحراقة حزن غامروهم شديداً ، فقد اخترم الوالد ومضى من غير أن يترك للأم مالا تستعين به في تربية الطفلين ، فكان رزؤهما فادحاً لأنه تركها في حالة شديدة من الإملاق ، وبخاصة وأنه كان موظفاً خارج الهيئة ، فلم يكن له معاش يقيم أودها هي وطفليها^(٢) . وقد رأت الأم أنه لا بد لها من أن ترحل مع ولديها إلى القاهرة لتعيش في كنف أخيها « محمد أفندى نيازى » المهندس بالتنظيم . وبعد سنين قلائل ألحق الحال الطفل بالمدرسة الخيرية بالقلعة ليتعلم القراءة والكتابة شيئاً من علم الحساب . ثم التحق بعد ذلك بمدرسة

(١) حياة حافظ إبراهيم للأستاذ أحمد محفوظ ص ١١٧ .

(٢) حياة حافظ إبراهيم ص ٧ .

القريبة الابتدائية ، وانتقل منها إلى مدرسة المبتديان ، ثم تحول إلى المدرسة الحديوية ، ولكنه لم يمكث فيها طويلاً لأنه انتقل مع خاله إلى طنطا سنة ١٨٨٧ .

ويبدو أن نفحة الشعر قد باكرته في هذه السن الصغيرة ، فأخذ يخلّق في سماء القريض بجناحين ضعيفين ، فكان يمضي في نظمه حيناً ويكبو حيناً آخر . وكان حافظ مشغولاً بقراءة كتب الأدب وبخاصة كتاب « الوسيلة الأدبية » للشيخ حسين المرصني . والظاهر أن هذا الكتاب قد فُتّن به كثير من ناشئة المتأدين في ذلك الحين . فهم يذكرون أن الشاعر شوقي « كان عماده كتاب « الوسيلة الأدبية » فألم بما فيه من مسائل لغوية ومن نصوص شعرية وخاصة ما اتصل بالبارودي »^(١) . وهذا الكتاب أمشاج من النحو والصرف واللغة والبلاغة واللوان شتى من أمثال العرب وحكمهم وأشعار فحولهم منذ العصر الجاهلي حتى أوائل العصر الحديث . وكان حافظ ذا حافظة لا قطة قوية ، فاستظهر كثيراً من شعر السابقين يتمثل به في المناسبات الخاصة والعامة ويطارح به أصدقاءه وخلّانه . واستوعب الكثير من طرف العرب ونواذرهم يتحف به جلّاسه فيضني على مجالسه روحاً من البهجة والسرور ، فألفته القلوب وتشوّفت إلى مجالسه النفوس كتب صديقه المرحوم الأستاذ عبد الوهاب النجار يقول :

« في صيف سنة ١٣٠٥ هجرية كنت طالباً في الجامع الأحمدي بطنطا ، وقد سافرت في أيام العطلة إلى بلدنا القرشية ، ثم عدت في أواخر شعبان من تلك السنة إلى طنطا ، فإذا بإخواني يلوذون بفتى غصّ الإهاب جديد الشباب ، وقد أسرعوا بتقديمي إليه وتقديمه إلى « باسم الأديب الشاعر » محمد حافظ إبراهيم . ولم تمر إلا عشيّة أو ضحاها حتى أحسست من نفسي ميلاً إليه يجاذب من الأدب الذي كان نهمة نفسي ، حتى آل ذلك إلى غرام بأدبه وما يشتمل عليه من ظرف ولطف محاضرة وبديهة مطاوعة وسرعة خاطر وحضور نادرة .

(١) شوقي شاعر العصر الحديث للدكتور شوقي ضيف ص ١٠٣ .

وقد قضينا رمضان هذه السنة نصلى المغرب والعشاء والتراويح معاً ، ثم نلبث فى سَمَرٍ ممتع ومطارحة للشعر ومذاكرة فى نواذر الأدب ، وما كان يطرفنى به مما يقف عليه من جيد القريض إلى أن يأتى وقت السحور ^(١) .

ولم يكن للفتى مهنة يرتزق منها آنذاك ، وقد أخذ يغادر عهد الصبا ويزحف نحو الشباب وهو يحس بأنه كَلٌّ على خاله ، وأن خاله أخذ يضيق به بسبب تعطله ، فقرر أن يغادر المنزل وكتب لخاله هذين البيتين :

ثَقُلْتُ عَلَيْكَ مَوْثِقِي إِنْ أَرَاهَا وَاهِيَه
فَافْرَحْ فَإِنِّي ذَاهِبٌ مَتَوَجِّهٌ فِي دَاهِيَه

وهذا الشعر يدل على ما كان يعتمل فى نفس الصبى من ألمٍ مُمِضٍ ، ويدل فى الوقت نفسه على روح لا يزايلها المرح حتى فى وقت الشدة .

وكان الفتى ينظر إلى الدنيا بعين مفعمة بالتشاؤم ، ولهذا نراه يشكو الزمن ويندب سوء حظه ، ويودّ من قرارة نفسه أن يغادر دنيا الآلام وعالم الشجب ، وقد قال فى ذلك شعراً يروى لنا بعضه صديقه المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار مثل قوله :

عَجِبْتُ لِعَمْرِى كَيْفَ مُدَّ وَطَالَا وَمَا أَثَرْتُ فِيهِ الْهَمُومُ زَوَالَا
وَاللِّمُوتُ مَا لِي قَدْ أَرَاهُ مِبْسَاعِدَا وَجَلَّ مَرَادِي أَنْ أَوْسَدَ حَالَا
فَلِلْمُوتِ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ أَرَى بِهَا ذَلِيلَا وَكُنْتُ السَّيِّدُ الْمَفْضَالَا

(١) مجلة أبولو عدد يولية سنة ١٩٣٣ ص ١٣٢٧ .

حافظ المحامى

فكر حافظ فى عمل يحصل منه على ما يدرأ عنه شر المسغبة ، فماذا يصنع ؟
 لم يكن يحمل شهادة تسوق إليه وظيفة تُدرّ عليه مرتباً مضموناً . وكل بضاعته أنه
 نال قسطاً من العلم والثقافة فى غير نهج سوى أو نظام . وفكر فى أن يحترف التعليم
 فى كُتّاب كما فعل عبد الله نديم ، ولكنه رأى أن هذا العمل قد لا يحقق له
 ما ينشده فازور عنه . ثم نظر فرأى مهنة المحاماة متفاسحة الأكتاف لا تضع
 شرطاً ما أمام من يريد أن يلج بابها سوى أن يكون قوى الحاجة يستطيع الفلّج وقهر
 الخصم . وكان حافظ يأنس فى نفسه اللّسن وقوة البيان . فرأى أن يحترف هذه
 المهنة ، ولكن أنّى له أن يستقل بمكتب وهو الرجل المعدم المفلوك ، فقصد الشيخ
 محمد الشيمى المحامى بطنطا واشتغل فى مكتبه . وكان عمله هذا يضطره إلى السفر
 إلى المحاكم الجزئية القريبة من طنطا للمرافعة فى بعض القضايا . ثم اختلف مع
 صاحب المكتب فتركه وترك له هذين البيتين :

جرب حظى قد أفرغته طمعا بباب أستاذنا الشيمى ولا عجباً
 فعاد لى وهو مملوء فقلت له مما ؟ فقال : من الحسرات ، واحرباً
 وذهب إلى مكتب الأستاذ محمد أبى شادى المحامى بطنطا ، وهناك وجد جواً
 يوافق هواه ، إذ كان الأستاذ أبو شادى يعشق الأدب ويحب الأدباء ، فوجد
 فى حافظ ضالّة طالما نشدها ، فكانا يتساجلان بالشعر وطرائف الأدب .

بيد أن حافظاً كان ملولاً لا يستقر على حال ، فقد ملّ العمل مع
 أبى شادى وتركه وعمل فى مكتب الأستاذ عبد الكريم فهمى المحامى ومكث عنده مدة
 من الزمن ، ثم عاوده الملل فانتقل إلى مكتب الأستاذ إبراهيم الهلباوى ، ولم يمكث

فيه أكثر مما مكث في غيره ، فقد كان الهلباوى رجلاً حديد اللسان لا ذع السخرية ، وليس يبعد أن يكون قد وقعت بين الاثنين ملحمة كلامية خرج بعدها حافظ مغضباً فرسب في نفسه الحقد على الهلباوى كما يقول الأستاذ محفوظ^(١) ، حتى إذا كانت حادثة « دنشواى » تحركت في نفسه عوامل الحقد القديم فهاجم الهلباوى هجوماً عنيفاً — وكان يقوم بوظيفة المدعى العمومى ويطالب بأخذ المتهمين بالشدة — بأبيات تنم على ما كان يضمه للهلباوى من موجدة وبغض..

لم يستمرئ حافظ مهنة المحاماة ، ولم يستطع أن يشق لنفسه طريقاً فيها ، وذلك لأن مهنة المحاماة تتطلب من صاحبها الدأب والعكوف على دراسة القضايا وتحضير المذكرات وتنفيذ حجج الخصوم ، وحافظ لا يطيق شيئاً من ذلك ولا يحتمل الجلوس إلى المكتب الساعات الطوال غارقاً في البحوث الفقهية . وكل بضاعته أنه رجل يحسن الكلام ويجيد النقاش والدفاع معتمداً في ذلك على الحاطرات الطارئة . ثم إنه كان في ذلك الوقت فتى غراً لم يرتضع بعد من أفاويق التجارب ولم يتمرس بالحياة ، وجلّ همّه أن يتصفح كتاب أدب أو يجلس مع لفيف من خلّائه يتندر معهم ويمتعهم بأحاديثه الطلية . يضاف إلى ذلك أنه كان مبسوط اليد لا يستقر في جيبه مال ، فلم يكن في قدرته أن يدخر من المال ما يعينه على فتح مكتب مستقل به ويدفع أجور موظفيه .

وليس من شك في أنه نظم إبان اشتغاله بالمحاماة شعراً ، ولو قد وصلنا هذا الشعر لكشف لنا الغطاء عن حقبة حية من تاريخ حياة الرجل قضائها في طنطا في مؤتلف حياته . ولكنه — مع الأسف — قد طمره إهمال حافظ مع ما طمره من أشعار كثيرة له .

(١) حياة حافظ إبراهيم ص ٢٠ .

حافظ في المدرسة الحربية

لما لم يتيسر النُّجْحُ لحافظ في المحاماة فكر في عمل آخر ، وقد هداه تفكيره إلى السفر إلى القاهرة سنة ١٨٨٨ ليلتحق بالمدرسة الحربية . وقد دفعه إلى ذلك — فيما أرى — أمران :

أولهما : أنه أراد أن يضمن لنفسه رزقاً منظماً يأتيه كل شهر .
وثانيهما : أنه كان معجباً بالبارودي أشد إعجاب ، وكان يعتبره مثله الأعلى وقدوته الحسنة ، فأراد أن يكون رب السيف والقلم مثله ، يطير ذكره في الآفاق وتلقى إليه مهام الأمور . وكانت المدرسة الحربية في ذلك الحين لا تشترط للالتحاق بها شهادة خاصة ولا ثقافة معينة أكثر من اللياقة الطبية والقدرة على دفع خمسة عشر جنيهاً في العام . وكان حافظ فارع الطول متين البنيان ، فاستطاع أن يلتحق بها في سهولة ويسر .

دخل حافظ المدرسة الحربية وفؤاده يكاد يثب من شدة الفرح ، لأن دخولها كان منتهى ما يتمناه كما يقول الأستاذ عبد الوهاب النجار ^(١) . وتطرح سنون ثلاث خرج بعدها حافظ سنة ١٨٩١ يزهو بجلته العسكرية وعلى كتفه نجمة وفي جنبه سيف صقيل ، وقد ضمن رزقاً ثابتاً يجرى عليه كل شهر .

وكانت المدرسة الحربية في ذلك الحين واقعة في قبضة المستعمرين فغيروا برامجها بما يحقق أهدافهم وأقصوا عنها العناصر الصالحة ^(٢) . وكان غرض القائمين على أمرها ألا تكون مصنعاً لتخريج الأبطال ، وإنما تكون مصنعاً لتخريج

(١) مجلة أبولو (يولية سنة ١٩٣٣) .

(٢) اقرأ ما صنعه الإنجليز في المدرسة الحربية الجزء الثاني من كتاب « حقائق الأخبار » لإسماعيل سرهنك .

شباب محطم الآمال قد خَبَسَتْ في نفوسه جذوة الوطنية واستلَّت منها روح الطموح والتوثب ، فكان معظم الضباط في ذلك العهد مثلاً حياً للانهيـار والتراخي ؛ لا يعرفون للوطن حقاً ولا يفكرون في أن يستنقذوه من مهاوى المذلة والعبودية . وكانت عقولهم خلواً من الثقافة والمعرفة لا يشغلها شاغل إلا التفكير في إرضاء ساداتهم الإنجليز والبحري وراء الترقيات والعلاوات .

وكان صنيع المستعمرين في الجيش لا يقل نُكراً عن صنيعهم في المدرسة الحربية ، فقد قصّوا أجنحته وأبعدوا عنه الضباط الوطنيين الذين كانت تلتظي في صدورهم نار الحقد على الاحتلال ورجاله . وأصبح الجيش أشبه بالفلول المتهافئة التي لا يُعتمد عليها في استرجاع أمجاد أو قهر أعداء ، وغدا الواحد منهم حرباً على أخيه المصري ليتقرب إلى الرؤساء زلفى . وشاعرنا حافظ يبين في وضوح ما كان عليه الجيش والمدارس الحربية في ذلك العهد من سوء الحال فيقول : « لقد استفرغوا جهدهم لصيرورة الجيش إلى الحال التي تراها فتمكنوا فيه من النفوس وحكموا على الضمائر فلم تخطهم وساوس الصدور ولم تفهم خطرات الأفكار .

« دخلوا مصر وفي جيشها من همٍّ أولى سابقة في الفضل وخصيص في العلم ، ومن حنكته السن وغذته التجربة وخبطته الحروب ، فكنت ترى فيهم المهندس الماهر والكيماوى الباهر والمحيط بفن الحرب وعلم التكتيك ممن تذاوقوا معهم سجال الحرب يوم طرّقونا ، فأشفقوا أن يكون هؤلاء أمام سياستهم صفّاً صليداً فزحزحوهم عن أماكنهم حتى أصبح الجيش عُطلا من كل رجل ركين .

« ثم نظروا فإذا المدارس الحربية تغزو أشبال تلك الأسود لبان العلوم والمعارف فهالهم أمرها وأسرعوا في سلبها كثر علومها وتجريدها من حِكْمِ فضائلها حتى أصبحت كالأخيذة السلية ، ثم يتموها أساتذتها ، وأراد ربك فأمست وهى أشبه شيء بمصانع الدجاج . . . فأصبحت بفضل القوم كما ترى وقد

جمدت فيها روح العلوم ونضبت سيول المعارف وأقفرت غرفها من نجباء التلامذة وقام ينثق فيها ذلك القائم بالأمر والنهى هناك ، وبات يطلبها كل قدم وجاهل كما تُطلب اليوم الضيعة الحربية» (١) .

هكذا كان حال الجيش ، وهكذا كان حال المدرسة الحربية في هذا العهد المشثوم ، فلم يحزن حافظ من دراسته في هذه المدرسة أية ثمرة ثقافية وخرج منها ولم يضيف إلى معارفه شيئاً سوى تعليمات ضئيلة من نظام الجندية خالية من التكتيكات العسكرية والفنون الحربية الأصيلة .

٤

حافظ الضابط .

تخرج حافظ في المدرسة الحربية وأصبح ضابطاً برتبة الملازم الثاني يخلتال في بزمته العسكرية . ومن كان يرى هذا الرجل في قامته المديدة وعضلاته المفتولة وهيكله الضخم وشاربيه الطويلين يوقن بأنه بطل مغوار يقتحم الأهوال ويركب المخاطر أو على حد قول المتنبي : « شروبٌ للجيش أكل » . ولكنه كان على نقیض ذلك كما سيتبين فيما بعد .

ويقول المرحوم الدكتور أحمد أمين : « على أنه يخيّل لي أن حافظاً لم يخلق رجل قتال . نعم كان منظره رجل حرب ، فهو مستحکم الحلقة ، وثيق التركيب ، مفتول الساعدين ، عريض المنكبين ، ولكن لا أظن أن قلبه يشاكل جسمه » (٢) . وقد عُيّن حافظ بعد تخرجه في نظارة الحربية ومكث بها ثلاث سنوات ، ثم نُقل إلى وزارة الداخلية وعُيّن ملاحظ بوليس في مدينة بني سويف ، لأن رجال البوليس كانوا يؤخذون من الجيش إذ أن مدرسة البوليس لم تكن قد أنشئت

(١) ليالى سطيح طبعة محمد مطر ص ٧٩ .

(٢) مقدمة الديوان ص ٢٤ .

بعد . وقد لبث في بني سويف بضعة أشهر انتقل بعدها معاوناً لبوليس الإبراهيمية . وبعد أن قضى فيها سبعة أشهر ردتته الداخلية إلى الحرية بسبب إهماله وتراخيه لأنه لم يكن يحسن عملاً ما ، فأحيل إلى الاستبداد أول مرة . ولما أراد « لورد كتنر » إعادة فتح السودان والقضاء على ثورة المهدي رأى الجيش المصرى فى حاجة إلى ضباط فاستدعى حافظ من الاستبداد إلى الخدمة وأرسل إلى شرق السودان سنة ١٨٩٦ ، وألحق بسلاح المدفعية (الطبجية) ثم جعل بين القائمين على أقوات الجيش (التعيينات) .

وكان الجيش المصرى فى ذلك الحين أداة ذليلة طيعة فى أيدي المستعمرين كما قلنا ، ومن بقيت فى نفسه أثارة من الوطنية أقصى عن منصبه أو — على الأقل — نئى إلى أقاصى السودان . وكان المستعمرون الطغام يأخذون فى ذلك بالظنة والشبهة ، فاستسلم كثير من الموظفين وعلية القوم ، وران على نفوس المصريين شىء غير قليل من اليأس والتخاذل ، وغدا المصرى يشعر بأنه غريب فى وطنه ، ذليل فى مراح عزته . وما أبدع وصف حافظ للمصرى آنذاك حين يقول : « لذلك تكسرت فى المصرى الأظافر وبات مهضوم الجانب غير مرعى الجانب ، يعتوره الذل والخور وتأخذه سوء القالة ، وهو كأنه العمر كلما مر به يوم "لحق به النقص" ^(١) . وبلغ من ضعف النفوس عند بعضهم أن راح يتبرأ من الوطنية المصرية ابتغاء مرضاة المستعمر بعد أن فشلت الثورة المصرية بفعل الخونة من أنصار الحديد ، وكُتِّمت أفواه الصحف حتى غدت بوقاً للاستعمار ، ومن هجس فى نفسه هاجس الوطنية من الصحفيين كان نصيبُ الصحيفة المصادرة والتعطيل . وأصبح الجيش البريطانى صاحب الأمر والنهى فى البلاد . وكان من أهم أغراضه أن يطمئن من عزة رجال الجيش المصرى ، فكان الضباط الإنجليز يعاملون جيشنا أسوأ معاملة فى مصر والسودان . وقد داخلت نفوس

الضباط المصريين الرهبة^١ وأخذوا ينظرون إلى الضباط الإنجليز وكأنهم خلقوا من طينة غير طينة البشر . ويصف حافظ هذه الحال فيقول : « ينظر المصري إلى الإنجليزي وهو كأنه ينظر إليه بالنظارة المعظمة فيكبره رهبة وإجلالا ويتضعض لرؤيته . وينظر إليه الإنجليزي بتلك النظارة وقد عكسها فيصغره استخفافاً بشأنه ، ويطيل عتاب الخالق الذي فطره على شكله وصورته ومنحه نعمة التنفس في جو يتنفس فيه الإنجليزي . وهو إن خاطبه خاطبه بلسان لا تجرى عليه كلمة تستروح منها روائح الرفق ، أو بإشارة يخالطها الجبروت ويزدهيها البطر^(١) . ويمضي حافظ مبيناً حال كبار الضباط المصريين وضآلة شخصياتهم فيقول : « هذا شأن القوم مع الصغار من الضباط . أما الكبار منهم كبار الرتب والأجسام ، لا كبار النفوس والأحلام ، فحالمهم إلى الرحمة أدعى منها إلى اللوم . فلقد سقاهم ساقى السياسة الإنجليزية كؤوساً من منقوع الرعب . فإذا نظر أحدهم بعض كبار القوم أو صغارهم وقف أمامهم وقفة الجواد وقد رأى الليث ، حتى إذا أصدر له أمره بشيء كاد يخرج من ظله سرعة لإمضاء ذلك الأمر . فهو إلى إجابة داعيه أسرع من الصدى ، وهو على حفظ أمره أحرص من الفوتوغراف على حفظ الصوت . . . تراهم (أى كبار الضباط المصريين) وكأن أكتافهم سماء الدنيا وقد تزينت بالنجوم فيروك ما ترى ، ولو كشفتهم لرأيت تحت تلك السماء أفئدة هواء .

فليت سيوفهم كانت عصيا وليت نجومهم كانت رجوما^(٢) .

ثم يصف لنا حياة الضباط الإنجليز في الجيش المصري ، وما كان ينعم به من جاه رفيع ومال وفير فيقول : « يهبط أحدهم مصر فما هو إلا أن يشم نسيمها حتى يقابله الأمر بمنصب في جيشها . فإذا سماء من رتبة المأمور إلى رتبة الأمر

(١) ليالى سطیح ص ٨٢ .

(٢) ليالى سطیح ص ٨٣ .

وأصبح عطاؤه الذى كان لا يتجاوز أيام الأسبوع عدداً وقد تجاوز أيام الشهر ، ونقلته كيمياء القوة من معدن يرغب عنه إلى معدن يرغب فيه ، وقذفت به يد الطمع من مناجم الفحم إلى كنوز الذهب ، وهبت ريح سعوده ونسى جلود جدوده - نظر إلى المصرى تلك النظرة التى أسلفنا وصفها ^(١) . ثم يصف حافظ مبلغ استهانة هؤلاء الضباط الإنجليز بكرامة من يشتغل معهم من المصريين ومدى سوء معاملتهم لهم فيقول : « وقد جعلوا ثواباً لمن يتعلم العربية منهم فى وقت وجيز ، فترى قادمهم يصطفى بعض الترجمة أو المترلفين من الضباط فيأخذ عنهم مبادئ اللغة ، ولا يبدأ فيها إلا بحفظ كلمات الهُجر والفحش ، فإذا وعى منها كلمة وأراد استعمالها فيما وضعت له أسرع إلى المصرى فجبهه بها من غير ذنب ، فتخرج من فيه وهى كأنها بعض حجارة المنجنيق ، فإذا أنْ لصدمتها ذلك المسكين أوسع سباً باللغة الإنجليزية . . . ولقد مررت ببعضهم وهو يكاد يقطر غضباً وينشق غيظاً ، وأمامه مصرى قد انفجر فى وجهه بركان الغضب الإنجليزى ، فبحثت فى الأمر فإذا الإنجليزى حديث العهد باللغة ^(٢) » .

ويذكر حافظ أن الضباط الإنجليز القافلين من الهند كانوا أشد قسوة وأسوأ معاملة للمصريين من غيرهم فيقول : « والويل لمن يقع تحت سيطرة الإنجليزى قافلاً من الهند ، فإن رجله إلى لكز من يخاطبه أسرع من لسانه إلى سبه ^(٣) » .

كان هذا حال الضباط الإنجليز فى الجيش المصرى عامة ؛ نعيم مقيم ، وعيش رخى ، وجاه عريض ، وشعور بالاستعلاء والعنجهية . وما أصدق حافظ إبراهيم وهو يصور حالهم قائلاً : « ومن لم ير نعيم الدنيا أويذق عيش الترف فليقدم الجيش وينظر الإنجليزى فى لين عيشه ورخاء باله بين مبتسم زمانه وعز سلطانه ، إذا صاح ابتدرت صيحته الألف ، وإذا مشى قامت إجلالا له الصفوف ،

(١) ليالى سطيح ص ٨٤ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) ليالى سطيح ص ٨٥ .

وإذا لبس القلنسوة كانت لها في النفوس رهبة التاج ، وإذا غضب تقطعت
لخوف بطشه الأوداج . . . يهب من نومه فيترامى الخدم على خدمته ، كل في
شأنه الذي نُصِب له ، فإذا قضى لبانته من مأكله ومشربه وملبسه قدّم له الجواد
فاستوى عليه ومضى متباطئا . . . » (١) .

أما سياستهم في السودان فكانت سياسة ماكرة خبيثة ؛ لُحمتها التفريق بين
رجال الجيش المصريين والسودانيين ، وسدّها إيقاع العداوة والبغضاء بين القطرين
الشقيقين ليستطيعوا الصيد في الماء العكر كما هوديدتهم في كل بلد ابتلى
باحتلالهم . وكان وكدهم من ذلك أن يسأم المصريون الإقامة في بلد يجيد عليهم
ويتسخط عند سماع اسمهم ، وبذلك يخلو الجو للمستعمرين فيصنعون بالسودان
ما يريدون .

وكانوا يحاولون استمالة السودانيين بمختلف الوسائل ويقولون لهم : « وقد علمتم
ما لنا من الفضل على الجنس الأسود ، فنحن الألى نزعنا عنه أطواق الرق
والعبودية ، ونحن الألى ساوينا بينه وبين الجنس الأبيض كما ساوى الربيع بين
الليل والنهار » (٢) . وكانوا يضحكون على ذقون السودانيين ولا يجدون عسراً في
خدعهم والتسلل إلى نفوسهم بأساليبهم الدنيئة الاستعمارية ؛ فكانوا مثلاً
يفضلونهم على المصريين في المعاملة حتى لقد قيل يومئذ : « إن الإنجليزى في
الجيش مشغوفٌ بحب الأسود من الألوان ، عاملٌ بقول الشاعر الحكيم :

وما كل وجه أبيض بمبارك ولا كل جفن ضيق بنجيب » (٣)

ومما يدعو إلى الأسف حقاً أن بعض الضباط المصريين تطامنت عزتهم
وودوا لو صبغ الله إهابهم باللون الأسود ليحظوا من الإنجليز بمثل ما يحظى به
السودانيون من طيب المعاملة ، « فأى مصرى لا يفتأ يضرع إلى الله أن يصبغ

(١) ليالى سطيح ص ٨٥ .

(٢) ليالى سطيح ص ٧٥ .

(٣) ليالى سطيح ص ٨٧ .

لون جلده بسواد جده ليخطو إلى السعادة هذه الخطوة ويحظو عند القوم بتلك الخطوة » كما يقول حافظ .

وكانوا يخشون أن يتمرد السودانيون عليهم ، فألوا على أنفسهم أن يبدروا بين السودانين أنفسهم بذور الجسد والشتان ، وذلك بأن يقبلوا على هذا ويزوروا عن ذلك ، ويرضوا عن زيد ويسخطوا على عمرو . وأقرأ ما كتبه حافظ عن هذه الحال وهو شاهد عيان : « يمشى الكبير من الإنجليز في معسكر الجنود السودانية فيعثر بأولادهم وهم يلعبون فضلات الطعام وكأنهم وقعوا على ثمرة الغراب فيقف عليهم يتفرس فيهم ، ثم يختار من تدركه السعادة منهم فيقذفه بمنجنيق إرادته على أسوار المدرسة الحربية فلا يحول الحول حتى ترده إليه وعلى كتفه نجمان من نجوم النحوس فيغدو اليوم حاكماً على من كان يلتمس فضلات طعامهم بالأمس ، وربما كان فيهم عمه وأبوه » (١) .

وبعد ، فقد أطلت في الحديث عن سوء صنيع الإنجليز في مصر والسودان ، شعبهما وجيشهما ، ولكن ذلك شيء ليس منه بد ، فقد أرسل حافظ إلى السودان والحال كما وصفت ، فرأى من عنت الإنجليز واعتسافهم ما وصفه وصفاً طليئاً في « ليالى سطيح » فذابت نفسه حزناً . ولكن هل وقف وقفة الرجل الجريء القلب ، يواجههم مندداً بسياساتهم وسوء عملهم ، وهو الشاعر الذى يحس ويشعر ويحسن التعبير عن إحساسه وشعوره ؟

كلا ، لم يقف حافظ — مع بالغ الأسف — موقفاً وطنياً يحمده له في هذا الزمن الأسود ، ولم يجرؤ على التنديد بسياسة المستعمرين إلا بعد أن ترك خدمة الجيش ، أو بعبارة أصبح بعد أن أكره على تركها بسنوات حين ألّف كتاب « ليالى سطيح » فيما بين سنتي ١٩٠٧ ، ١٩٠٨ . ومع ذلك فأنت تجده يعرض

بالإنجليز في شيء من الرفق ، وتحس بأنه كان يحرق الأرم غيظاً لأنه لم يكن ذا حظوة عندهم .

وحين نقرأ الأشعار التي نظمها حافظ إبان خدمته في السودان نحس أنه لم يكن يتفجر غيظاً على جيشه الذي كان مستدلاً تحت جبروت الإنجليز . وكل ما كان يحنقه ويشقيه بعده عن القاهرة ومجالسها وسهراتها ، واكتواؤه بقيظ السودان ورماله المحرقة . وقد وجد البون شاسعاً بين حياة القاهرة ولياليها الممتعة وبين حياة السودان القاسية القائضة . لهذا كان يرسل أناته الحزينة إلى أصدقائه بالقاهرة مهيباً بهم أن يعملوا على نقله من هذا اللظى الذي يكاد يهرئ أديمه . وعلى رأس هؤلاء الذين استصرخهم حافظ الأستاذ الإمام محمد عبده ، فقد كتب إليه واصفاً ما يعانيه :

«وها أنا متماسك حتى تنحسر هذه الغمرة وينطوي أجل تلك الفترة ، وينظر لي سيدى نظرة ترفعني من ذات الصدع إلى ذات الرجوع ، وتردني إلى وكري الذي فيه درجت رد الشمس قطرة المزن إلى أصلها ورد الوفي الأمانات إلى أهلها . فإن شاء فالقرب الذي قد رجوته وإن شاء فالعز الذي أنا آمل وإلا فإنني قاف رؤبة^(١) لم أزل ب قيد النوى حتى تغول الغوائل فقد حلت السودان حلول الكليم في التابوت والمغاضب في جوف الحوت بين الضيق والشدة والوحشة والوحدة . لا ، بل حلول الوزير في تنور العذاب والكافر في موقف يوم الحساب بين نارين : نار القيظ ونار الغيظ^(٢) . ويمضي حافظ في شكواه للإمام مصوراً سوء حاله بالسودان ، وما يقاسيه من عنت سردار الجيش المصري فيقول : « فأصبحت كما سر العدو وساء الحميم

(١) هو الراجز رؤبة بن العجاج ، وكان يصنع أكثر أراجيزه على روى القاف الساكنة ف ضرب بقافه المثل في السكون وعدم الحركة . ويقول أبو العلاء في قاف رؤبة هذه :
مالي غدوت كقاف رؤبة قيدت في الدهر لم يقدر له إجراؤها

(٢) الديوان طبعة وزارة المعارف ١٢٥/٢ .

وَأَلَامِي كَأَنَّهَا جُلُودُ أَهْلِ الْجَحِيمِ ، كَلِمَا نَضَجَ مِنْهَا أَدِيمٌ تَجَدَّدَ أَدِيمٌ ، وَأَمْسَيْتَ
وَمُلَّتْكَ آمَالِي إِلَى الزَّوَالِ أَسْرَعَ مِنْ أَثَرِ الشَّهَابِ فِي السَّمَاءِ ، وَدَوْلَةُ صَبْرِي إِلَى
الْاضْمِحْلَالِ أَحَثَّ مِنْ حِجَابِ الْمَاءِ » . وَيَهْيَبُ بِهِ أَنْ يَخْلُصَهُ مِنْ شِقَائِهِ فَيَقُولُ :
نَثَرْتُ مَنْظُومَ تَيْجَانِ الْمُلُوكِ بِهَا فَرَاخٌ يَنْظُمُهُ فِي وَصْفِكَ الْبَسَالِ
يَا مَنْ تَيْمَنْتَ الْفُتْيَا بِطُلْعَتِهِ أَدْرَكَ فَتَاكَ فَقَدْ ضَاقَتْ بِهِ الْحَالُ (١)
وَيَكْتُبُ إِلَى صَدِيقِهِ مُحَمَّدَ بَيْرَمٍ يَصُورُ بِرَمِهِ بِالْحَيَاةِ فِي السُّودَانِ وَيَتَحَسَّرُ
عَلَى أَيَّامِهِ بِالْقَاهِرَةِ فَيَقُولُ مِنْ قَصِيدَةٍ :

وَلَكِنِّي مَقِيدَةٌ رَحَالِي بِقَيْدِ الْعَدَمِ فِي وَادِي الْهَمُومِ
نَزَجْتُ عَنِ الدِّيَارِ أَرْوَمَ رَزْقِي وَأَضْرِبُ فِي الْمَهَامَةِ وَالتَّخُومِ
وَمَا غَادَرْتُ فِي السُّودَانِ قَفْرًا وَلَمْ أَصْبِغْ بِتَرْبَتِهِ أَدِيمِي
وَهَا أَنَا بَيْنَ أَنْيَابِ الْمَنَايَا وَتَحْتَ بَرَاثِنِ الْخَطْبِ الْجَسِيمِ (٢)

وَيُرْسِلُ إِلَى صَدِيقٍ آخَرَ أَيْبَاتًا يَنْقُمُ فِيهَا عَلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ الْبَغِيضَةِ الْمَفْعَمَةِ
بِالْمَشَقَّةِ وَالْإِمْلَاقِ وَيَبِينُ لَوْعَتَهُ الْمَحْرَقَةَ إِلَى مِصْرَ :

وَمَا أَعْلَزْتُ حَتَّى كَانَ نَعْلِي دَمَا وَوَسَادَتِي وَجْهَ التَّرَابِ
وَحَتَّى صَيَّرْتَنِي الشَّمْسُ عِبْدًا صَبِيغًا بَعْدَمَا دَبَغْتَ إِهْسَابِي
وَحَتَّى قَلَّمُ الْإِمْلَاقِ ظَفَرِي وَحَتَّى حَطَمَ الْمَقْدَارُ نَابِي
مَتَى أَنَا بِالْعُزِّ يَا مِصْرَ أَرْضًا أَشْمَ بِتُرْبِهَا رِيحَ الْمَلَابِ (٣)
وَيُرَدِّدُ ضَيْقَهُ بِالسُّودَانِ فِي مَنْظُومَةٍ يُرْسِلُهَا إِلَى بَعْضِ أَصْدِقَائِهِ مِنْهَا :

مَنْ وَاجِدٌ مَنْفَرَّ الْمَنَامِ
طَرِيدٌ دَهْرٌ جَائِرُ الْأَحْكَامِ
مَشْتَتٌ الشَّمْلُ عَلَى الدَّوَامِ

(١) الديوان ٥/١ .

(٢) الديوان ١٦٢/١ .

(٣) الديوان ١٢١/٢ .

ملازم اللهم والسقام

.....
.....

تحية كالورد في الكمام

أزهى من الصحة في الأجسام

يا ليت شعري بعد هذا العام

إليكم ترمي بي المرامي

أم يتوينا رائد الحمام

فأنطوى في هذه الآكام

وتولم الضبع على عظامي

ويطلب إليهم أن يذكروه إذا انتظمتهم مجالس الأنس واللهو :

بالله أدعوكم وبالإسلام

أن تذكروا ناظم ذا الكلام

إذا جلستم مجلسا للجام^(١)

وزاد من نقمة الشاعر على حياته بالسودان أن علاقته بسرदार الجيش
المصري (لورد كتشنر) كانت سيئة جداً . وقد امتلأت نفس « اللورد » موجدة
عليه حتى ليقال إنه كتب أمام اسمه « لا يرقى ولا يرفق »^(٢) . وقد عبر حافظ
عن ذلك في كتابه إلى الأستاذ الإمام مشيراً إلى ما كان بينه وبين السردار فقال :
« واليوم أكتب إليك وقد قعدت هممة النجمين وقصرت يد الحديددين عن إزالة

(١) الديوان ١٩٧/١ .

(٢) الديوان ١٢٩/٢ حاشية .

ما فى نفس ذلك الجبار العنيد . فلقد نما ضب^(١) ضغنه على "وبدريت بوادر
السوء إلى" ^(٢) .

ويقولون إن سبب بغض كتشنر له أنه كان مجافياً لروح الجندية ، إذ كان
« غير معنى بنظام ولا مراعيًا حسن هندام » ^(٣) . وإلى جانب ذلك « كان
رئيس فرقته (رفعت بك) يكرهه ويرفع التقارير السيئة عنه ، إذ كان حافظ
يعمل الأراجيز فى ذمه يحدو بها هو وأصحابه ، منها قوله :

تراه إذ ينفخ فى المزمار تحسبه فى رتبة السردار
يجتنب العاقل والنبها ويعشق الجاهل والسفها^(٤)

وهكذا اصطلحت الظروف على أن تجعل حياة حافظ فى السودان جحيمًا
لا يطاق . وزاد من كربه أن الحالة الاقتصادية فى السودان بلغت من سوء
نهايته ، حتى إنه كان يتعذر على الناس فى بعض الأحيان أن يجدوا الضرورى
من مطالب العيش ، فعظم الخطب وتمت البلية . ويحدثنا الأستاذ أحمد محفوظ
بأن حافظاً قال له : « لما كنت فى السودان كنت أكتب الاستقالة من عملى فى
الجيش ظهراً حتى إذا أقبل الأصيل بنسائمه مزقت الاستقالة » ^(٥) .

وليته بقى فى وظيفته على هذه الحال المريرة ، فقد شاء القدر أن يسقيه كأس
الشقاء حتى الثمالة ، إذ خلصه من شقاء السودان ليزج به فى شقاء آخر أعنف
وأنكى ، فقد رماه فى تيه الحياة لا يجد فيه مرتقاً يكفيه شر الحاجة إلا ما قدّر
له من معاش ضئيل لا غناء فيه .

ذلك أن الإنجليز بعد حادث فاشودة سنة ١٨٩٩ أخذوا يشددون قبضتهم

(١) للضب : الغيظ والحقه الحق .

(٢) الديوان ١٢٩/٢ .

(٣) مقدمة الديوان ص ١٣ للمرحوم الدكتور أحمد أمين .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) حياة حافظ إبراهيم ص ٢٩ .

على الجيش في السودان ، ويكتبون كل حركة وطنية تنهض فيه ، وأخذوا يجمعون السلاح من الجنود خوفاً من اندلاع ثورة ضدهم ، فخشى الجنود المصريون أن يبقوا في هذه المهامه بدون سلاح ، فتمرد فريق منهم وجأهروا بالعصيان وانحاز إليهم جماعة من السودانيين . ولكن الإنجليز لم يعجزوا عن اشتراء الضمائر والذم ، فاستطاعوا أن يصلوا إلى نفوس الجند السودانيين ووضعوا أيديهم على زعماء الثورة والمحرضين عليها على حد ظنهم ، آخذين البريء بالمدنب . ولندعُ حافظاً نفسه يقص علينا مهزلة التحقيق في هذه الثورة ، قال : « ثم أخذ (أى المحقق) ينظر في وجوه الحيل ويستنبط أمثل الطرق ، وما زال يستمد قريحته حتى فتح له الدهن أن يبدأ باستمالة الجنود السودانية ، فجعل يدعوهم ليلاً على انفراد ، فإذا ظفر بأحدهم هشَّ له وأدنى متكأه وحادثه محادثة القرين ، وقد طرح عنه أبهة الرئاسة وجلس معه على بساط المساواة ، حتى إذا سكنت نفسه إلى حديثه وعلم أنه خلبه بسياسته وكياسته طارحه حديث الثورة وما كان منها ، ثم استرسل إلى ذكر أسبابها فقال إن الأمير حرسه الله واجد على الجيش لانتقاضه على أولياء الأمر فيه . وما غاب عنه أن أولئك المصريين الذين كفروا بنعمته كما كفروا بنعمة أبيه من قبل هم الذين استهووكم بالأباطيل . فما فعلوا ذلك إلا نكالا بكم حين علموا أننا سنبلغ بكم أسمى المراتب فنجعل منكم الأمراء والحكام في السودان ، ثم نمكن لكم في الأرض . . . وما كنا لنعفو عنكم حتى تنكشف لنا بواطن الأمر فنعرف أولئك المصريين الذين نفخوا في مناخركم فركبتم رءوسكم وطاوعم أهواءكم . . . فاذكروا لنا أسماءهم لتنظروا كيف نمثل بهم ، واعلموا أنكم لا ترون بعد اليوم إلا خيراً ولا يرون إلا شراً . . . يقول ذلك والقدح لا يكاد يفرغه الزنجي حتى يملأه الإنجليزى . فإذا نال منه الحديث وأخذت الحمر استملاه أولئك الذين يزعم أنهم جرؤهم إلى عدم الانقياد ، فيملى عليه ما يحضره من تلك الأسماء ، ولا ذنب لأصحابها إلا أنها مرت بخاطر هذا الزنجي

حين اضطره ذلك الإنجليزى . . .

« ولما اهتدى ذلك المحقق إلى ما لا تهتدى إليه الكهنة والمنجمون من معرفة الغيب ، وجمع فى خريطته ما يربو على الثمانين اسماً خف إلى كبيره وقد حمل ظلاماً . فوالذى علم آدم الأسماء كلها ما اشتملت خريطة المحقق على اسم وصاحبه غير مكذوب عليه »^(١) .

ويذكر حافظ أن هذا الكبير نظر فى قائمة المتهمين الذين يبلغون الثمانين فوجد أن هذا العدد يفوق من قاموا بالثورة العرابية وقدموا للمحاكمة . ثم مضى التحقيق فى مهزلة ؛ فقد رأى هذا الكبير أن يضرب على هذا العدد الضخم بالقداح . وشاء سوء الطالع أن يكون حافظ من بين الضباط الثمانية عشر الذين صادف النحاس أسهمهم ، فحوكموا وحُكم عليهم بعقوبات مختلفة كان أهونها الإحالة على الاستيداع . وكان حافظ من هؤلاء الذين عادوا إلى مصر وقد حيل بينهم وبين العمل فى الجيش .

ويشير حافظ فى شىء من المارة إلى ذلك فيقول : « ولقد كنت أحد أولئك الذين ضرب عليهم بالقداح وهأنذا وليس وراء ما بى من سوء الحال غاية »^(٢) .

وهكذا نرى حافظاً قد أقصى عن الجيش على كره منه ، مع أنه لم يشترك فى هذه الثورة ، وقد حزن لما أصابه حزناً شديداً رغم ما كان يعانيه من قسوة الحياة فى السودان . ومن العجيب أن المؤرخ الأستاذ عبد الرحمن الرافعى يريد أن يخلع على حافظ ثوباً من البطولة لا يحق له أن يرتديه فيقول : « ولما انتهت الحملة بانفراد الإنجليز بحكم السودان عافت نفسه البقاء فى ربوعه فالتمس إحالته إلى المعاش وأجيب طلبه وعاد إلى مصر »^(٣) .

(١) لىالى سطيح ص ٧٤ .

(٢) لىالى سطيح ص ٧٩ .

(٣) شعراء الوطنية ص ٩٦ .

نعم كان حافظ ناقماً على حياته في السودان ، لا لأن الإنجليز انفردوا بحكمه كما يقول الأستاذ الرافعي ، ولكن لأنه كان لا يحتمل جو السودان ولا يطيق صرامة الهندية . هذا إلى أنه كان محروماً من المجالس الممتعة والسهرات اللطيفة التي كان يقضيها مع أصدقائه في القاهرة كما عرفنا من قصائده ورسائله إلى إخوانه . ولما عوقب بالإحالة على الاستبداع انفطرت نفسه حزناً وغماً لفقده مرتبه . ونحن لا نتجنى على الرجل ولا نبخسه حقه ، ولكننا نريد أن نسجل الواقع معتمدين على حقائق التاريخ .

وكانت إحالته على الاستبداع في ٣ مايو سنة ١٩٠٠ ، وفي أول نوفمبر سنة ١٩٠٣ أحيل على المعاش بناء على طلبه . وكان مرتبه في الاستبداع أربعة جنيهات في الشهر .



حافظ بلا عمل

كان لهذا الحادث تأثير كبير في نفس حافظ ؛ فقد امتلأت باليأس والسخط على الدنيا وعلى من فيها ، وداخله شيء غير قليل من الخوف ، وتملكه ذعر شديد منعه من أن يبوح بشيء ما عن الثورة وعن التحقيق وعن المحاكمة ، وبخاصة وأنه رأى ما آل إليه أمر هذه الثورة وتقايس الحديو عن مناصرتهم وإقالة عثرتهم بعد أن حرّموا وظائفهم بسببها ، وقد كان يُظن أنه راض عنها وأنه كان يذكي نارها في الخفاء . وكان حافظ يعبر عن وجله وتوجسه فيقول :

إذا نطقتُ ففُتق السجّج متكأً وإن سكّتُ فإن النفس لم تطب^(١)

وأخذ يبحث عن عمل يرتزق منه لأن معاشه كان ضئيلاً لا يكفي حاجته ، فقدّمه الشاعر شوقي إلى جريدة الأهرام ليقوم بعمل فيها ، ولكنه لم يوفق ،

فطفق يضرب في الأرض باحثاً عن عمل فلم يصب شيئاً من النجاح ، فسألت
 حاله ، وخالط نفسه اليأس ، وأخذ يصف بؤسه وإخفاقه فيقول :
 سعت إلى أن كدت أنتعل الدما وعدت وما أعقت إلا التندما^(١)
 ويشير إلى هذا الفشل رغم سعيه المتواصل ، وإلى ضآلة حظه في الحياة ،
 وتنكر الزمن له ، مع أن همته لم تقعد به عن الطلب وبذل الجهد وراء الغاية ،
 فيقول :

وماذا أصبّت من الأسفار والنصب	وطيك العمر بين الوخد والحبيب
نراك تطلب لا هوناً ولا كثباً	ولا نرى لك من مال ولا نشب
كم همت في البید والآرام قائمة	والشمس ترمي أديم الأرض باللهب
وكم لبست الدجى والترب ناعسة	والليل أهدأ من جأشى لدى النوب
لكنني غير مجدود وما فتئت	يد المقادير تقصيني عن الأرب
وقد غدوت وآمالی مطرحة	وفي أموري ما للضب في الذنب ^(٢)

ويبلغ به اليأس حدّاً يجعله يطلب الموت ، لأن فيه راحة له من هذا العناء :

سلام على الدنيا سلام مودّع	رأى في ظلام القبر أنسا ومغنا
فهبي رياح الموت نُكْباً وأطفئي	سراج حياتي قبل أن يتحطما
فيا قلب لا تجزع إذا عضك الأسي	فإنك بعد اليوم لن تتألما
ويا عين قد آن الحمد للمدعى	فلا سيل دمع تسكين ولا دما
ويا قلمي ما سرت بي لمذلة	ولم ترتقي إلا إلى العز سلما
فلا تبطئي سيراً إلى الموت واعلمي	بأن كريم القوم من بات مكرماً ^(٣)

ويرى أن المصريين في هذا البلد وعلى الأخص المسلمين منهم لا يجدون
 خيراً فيه ولا يطيب لهم فوق ربوعه عيش :

(١) الديوان ١١٤/٢ .

(٢) الديوان ١١٦/٢ .

(٣) الديوان ١١٤/٢ .

إذا شئت أن تلقى السعادة بينهم فلا تك مصرياً ولا تك مسلماً

وهذا الشعر يدل على نفس قد حطمها اليأس ومزقها القنوط فراحت تنشد الموت الذى يخلصها من هذه الحياة البغيضة وذاك العذاب المتصل .

وينحو حافظ باللائمة على والديه اللذين جنيا عليه وكان الأخلق بهما أن يلقيا به فى قاع الدأماء بدل أن يطرحا به فى عالم التعب والشجب . ولعل مانى قد قاسى فى حياته ما يقاسيه حافظ فراح ينشر مذهبه الخبيث الذى ينادى بقطع النسل لكى تفنى البشرية وتخلص من آلام الحياة الدنيا :

وددتُ لو طرحوا بى يوم جثهم فى مسبح الحوت أو فى مسرح العطب
لعل « مانى » لاقى ما أكابده فودّ تعجيلنا من عالم الشجب

وقد امتلأت نفس حافظ بالعقد بسبب الحال التى صار إليها ، ووقر فى نفسه أن أمته لا تعرف له قدراً ولا تقيم لأدبه وزناً :

عفى الدهر ولولا أننى أوتر الحسنى عقلت الأدبا
أنا لولا أن لى من أمتى خاذلاً ما بت أشكو النوباً^(١)

وأصبح يشعر بأن الناس تخلوا عنه ولم يعد له نصير فى هذه الحياة ، يقول مخاطباً « تولستوى » الفيلسوف الروسى فى رثائه :

فقد كنتَ عوناً للضعيف وإننى ضعيف وما لى فى الحياة نصير^(٢)

وهكذا نرى حافظاً بعد خروجه من الجيش يلقى ألواناً من قسوة الحياة ، وينظر إلى زميله « شوقى » فيراه يرتع فى بُلَهْنِيَّة من العيش فى ظل السراى ، فيطوى نفسه على مرارة محرقة ويتشوف إلى أن يظفر بشيء من الخطوة لدى الحديدو فيهتبل كل فرصة ليزجى إليه عقوداً منظومة من المديح . . . يقبل

(١) الديوان ٧/٢ .

(٢) الديوان ١٦٤/٢ .

عيد الفطر فيزف إليه تهنئة ممزوجة بالرجاء أن ينال شيئاً من العطف والتقريب ، يقول فيها :

إلى سُدّة العباس وجهت مدحتي بهنئة شوقية النسيج معطار
ملكٌ أباح العيدُ لثم يمينه ويا ليت ذاك العيد يبسط أعذارى
ويحمل عني للعزير تحية ويدكر شيئاً من حديثي وأخباري^(١)

وحافظ - كما ترى - يجعل شوقي (شاعر السراى) قدوته فى نظم الشعر ، وبذلك يشعره بأنه لا مطمع له فى منافسته لو قدّر له أن يحظى بشيء من تقريب الخديو له . وهو كذلك يشير إلى أنه لم يستطع الوصول إليه ليحظى بلثم يمينه الذى أباحه العيد ، ولذا فهو يعتذر عن تقصيره .

ويقبل عيد جلوس الخديو فينظم له تهنئة فيها تطامن وتضائل أمام الخديو وشاعره شوقى ، وفيها التماس المَعذرة إذا عجز شعره عن إيفاء الخديو ما هو خليف به من مدح ، لأن شوقى لم يبق له معنى يقوله :

لم يبق « أحمد » من قول أحاوله فى مدح ذاتك فاعذرني ولا تعب
فلستُ ممن سمت بالشعر همّهم إلى الملوك ولا ذاك الفتى العربى
لكن عيدك يا « عباس » أنطقنى كالبدرا أنطق صوت البلبل الطرب^(٢)

وهو يشير كذلك فى هذا الشعر إلى أنه لا يتطالّ إلى فن شوقى ولا إلى مكانته لدى الأمير .

ويسرف حافظ فى تملقه فيضفى على الخديو ألواناً من المديح ربما لم يسمع الخديو بمثلها من شاعره الأثير شوقى ؛ فهو الذى تحرسه عين الإله وترعاه الشهب ، وهو الحليم العادل الذى يزيل عن المكروب كربته ، وهو الكريم النجار العريق الحسب :

(١) الديوان ١١/١ .

(٢) الديوان ١٣/١ .

والمسلك فوق سرير الملك تحرسه عين الإله وترعى أعين الشهب
الحلم حليته والعدل قبلته والسعد لمحتته كشافة الكرب
مشيئة الله في العباس قد سبقت إلى الحدود ومن يأتي على العقب
فهو ابن أكرم من سادوا ومن ملكوا وهو الأب المفتدى للساداة النجيب
ولا يقنع حافظ بذلك ، إذ يذكر أن هذا الذي يقوله لا يجافي الحقيقة ،
لأن ما يقال في مدح الخديو لا لغو فيه ولا بهتان ، وبذلك قضى على الفكرة
التي سادت بين أدباء العرب من أن « أعذب الشعر أكذبه » . وذلك لأن الخديو
يعصم المديح الذي يقال فيه عن الكذب لأنه جدير به :

يا من توهم أن الشعر أعذبه في الذوق أكذبه أزریت بالأدب
عذب القريض قريض بات يعصمه ذكر « ابن توفيق » عن لغو وعن كذب
ويُهلّ عيد الأضحى فيزف إليه مدحة لم يترك درة من درر المديح إلا نظمها
فيها على حد قوله :

صُغْتُ القريض فما غادرت لؤلؤة في تاج « كسرى » ولا في عقد « بوران »
أغریت بالغوص أقلامي فما تركتُ في بلجة البحر من درّ ومرجان (١)
وفي هذه القصيدة يصرّح في غير موارد بأمله في أن يقربه الخديو :
يا عيّد ليت الذي أولاك نعمته بقرب صاحب مصر كان أولاني
وفي تهنيته للخديو بالعام الهجري يضرع إليه أن يلحظه بنظرة تدفع عنه
بأساءه لعله يسعد في هذا العام الجديد :

وكم لمحمة في غفلة الدهر نفّستُ هموما لها بين الضلوع سعير
فقد يشتقى الصب السقيم بزورة وينجو بلفظ عاثر وأسير
عسى ذلك العام الجديد يسرنى ببشرى وهل للبائسين بشير
وينظر لي رب الأريكة نظرة بها ينجلي ليل الأسى وينير (٢)

(١) الديوان ٢٨/١ .

(٢) الديوان ٣/١١ .

ولكن ذلك كله لم يجده فتيلاً ولم يحظ من الخديو بالنظرة التي كان يستغيها ،
وعاش معدماً أكثر من عشر سنوات بعد عودته من السودان سنة ١٩٠٠ إلى أن
منّ الله عليه بوظيفة في دار الكتب . ومع ذلك لم يكف عن محاولة التقرب من
الخديو حتى إنه لم تغمره الغبطة حين أنعم عليه برتبة « البكوية » سنة ١٩١٢
إلا لأنها سبيل إلى ذهابه مختالاً إلى عابدين ليثّم يد الخديو محتشاً مطية الرجاء :
وأمشى اختيلاً إلى عابدين يطالعني بدرها عن كسب
وألثم كف كريم الجسدود غياث العفاة مزيل الكرب
وأحتث بين وفود السراة مطايا الرجاء لذاك الرحب^(١)

ومع كل ذلك لم يقدر له أن يحظى بمكان في السراى . غير أن تعطله عن
العمل هذه الفترة قد أجدى عليه من ناحية أخرى ، ذلك أن صلته اشتدت
بالإمام محمد عبده وأصبح تلميذه الوفي المخلص حتى إنه قلما كان يفارق مجالسه ،
وستتناول ذلك بشيء من الإفاضة في مكان آخر .

٦

حافظ وحواء

في سنة ١٩٠٦ رأى حافظ أن يؤنس حياته بزوجة تقاسمه لأواء العيش وسراءه .
ويقولون إن أمه هي التي زينت له الحياة الزوجية فخطبت له ابنة رجل من أثرياء
حى عابدين اسمه « إسماعيل صبرى^(٢) » . وبنى بها حافظ ، ولكنه لم يطق
هذه الحياة وأدركه داء الملل الذي عرف به فطلقها بعد شهور قليلة ، وافترق
الزوجان إلى غير رجعة . ولم ينجب حافظ منها ، ولم يفكر في الزواج بعد ذلك

(١) الديوان ١/١٧٦ .

(٢) حياة حافظ لإبراهيم ص ٩٢ .

قط . ولم نجد لهذه المرأة أثراً في حياته .

وفي سنة ١٩٠٨ قضت أمه ، وبعد قليل لحق بها خاله « محمد نيازي » ولم يبق له من ذوى رحمه إلا أرملة خاله « الست عائشة هانم » التي لم ترزق بأولاد ، فعاشت معه تعنى بشئونهِ وتدير له أموره ، وكان حافظ شديد البر بها ، وظلت معه حتى لبث نداء ربها قبل وفاته بثلاث سنين .
ويبدو لنا من حياة حافظ أن المرأة لم يكن لها مكان ما في نفسه ، ولم يكن لها كبير أثر في شعره . وذلك لأن ضيقه بالحياة وسعيه وراء الرزق كانا يملآن مجال تفكيره ووجدانه .

ولأنك لو تصفحت ديوانه الضخم لوجدت أن الغزل لم ينل منه أكثر من ثلاث صفحات^(١) ، وكلها مقطوعات قصيرة لا يزيد بعضها على البيتين ، وبعضها مترجم عن « چان چاك روسو » . وهذه المقطوعات لا تدل على نفس تعتنها الحب وتيممها الغرام . ومن الغريب أن هذه الأبيات الغزلية — على قلتها — تكاد تنصرف كلها إلى المذكور فيما عدا بيتين اثنين خص بهما المرأة وهما :
أذِ نَشْكُ تَرْتَابِينَ فِي الشَّمْسِ وَالضُّحَى فِي النُّورِ وَالظُّلْمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ
وَلَا تَسْمَحِي لِلشَّكِّ يَخْطُرُ خَطَرُهُ بِنَفْسِكَ يَوْمًا أَنِّي لَسْتُ مَغْرَمًا
وأنت غير واجد في هذين البيتين نفحة الشعر العاطفي ، ولكنك تحس فيهما أثر العقل والفكر .

والحق أن حافظاً لم تكن له هذه العاطفة التي تزخر بالحب ينساب غزلاً وهياماً . وقد أشار إلى ذلك أستاذنا المرحوم أحمد أمين فقال : « كما أن عاطفته ليست من هذا النوع الذي يذوب رقة في غزل أو هياماً في حب^(٢) » .
والواقع أن الحب عاطفة إنسانية نبيلة تملأ القلب بمشاعر الرحمة والحنان .

(١) الديوان ٢٤٦/١ وما بعدها .

(٢) مقدمة الديوان ص ٣٨ .

ولست أقصد الحب الذى يكون بين العاشق والمعشوقة فحسب ، وإنما أقصد الحب العاطفى بمعناه الأعم ، كالذى يكون بين الرجل وزوجته أو بينه وبين ابنته كما فعل شوقى . وقد حرم حافظ هذه العاطفة . وسر ذلك — فيما أرى — أن المرأة قد أفلت من أفق حياته بسبب الظروف التى اختلفت عليه .

ولئن كانت حياة حافظ الخاصة ومشاعره وقلبه قد خلت من المرأة أو كادت فإنه قد أسهم بشعره فى الدفاع عنها ورفع الصوت مطالباً بإنصافها والعناية بتثقيفها . وليس ذلك بالأمر العجيب ؛ فقد كان يغشى مجلس قاسم أمين نصير المرأة الأكبر ويستمع إلى آرائه فى المرأة وتحريرها من ذل الإِسار الذى رنق حياتها قرناً طويلاً . وفى ذلك يخاطب قاسم أمين :

أقاسم إن القوم ماتت قلوبهم	ولم يفقهوا فى السفر ما أنت كاتبه
إلى اليوم لم يرفع حجاب ضلالهم	فمن ذا تناديه ومن ذا تعاتبه
فلو أن شخصاً قام يدعو رجالهم	لوضع كتاب لاستقامت رغائبه
ولو خطرت فى مصر حواء أمنا	يلوح محياها لنا ونراقبه
وفى يدها العذراء يسفر وجهها	تصافح منا من ترى وتخطبه
وخلفهما موسى وعيسى وأحمد	وجيش من الأملاك ماجت كواكبه
وقالوا لنا : رفع النقاب مجلل	لقلنا : نعم حق ولكن نجانبه ^(١)

^١ فهذه الأبيات فيها صيحة مصلح مخلص فى بيئة متخلفة لا يستطيع فيها أن ينصف المرأة إلا فى حقوقها الأولية . والأبيات — كما ترى — كلها هجوم قاس وتهكم لاذع بأنصار الحجاب .

ولحافظ قصيدة غراء مشهورة بين فيها دور المرأة فى النهوض بالوطن ودعا

(١) الديوان القديم ٨١/١ طبعة ١٩٠٣ ، ويلاحظ أن هذه القصيدة غير موجودة فى ديوان وزارة المعارف .

إلى الأخذ بيدها وتحريرها في شيء من القصد والاعتدال فيها :

من لي بتربية النساء فإنها في الشرق علة ذلك الإخفاق
 الأم مدرسة إذا أعدتها أعددت شعبا طيب الأعراق
 أنا لا أقول دعوا النساء سوافراً بين الرجال يجلن في الأسواق
 يدرجن حيث أردن لا من وازع يحذرن رقبتهم ولا من وافي
 يفعلن أفعال الرجال لوأهيا عن واجبات نواعس الأحداق
 كلا ولا أدعوكم أن تسرفوا في الحجب والتضييق والإرهاق
 ليست نساؤكم أثائاً يُقتنى في الدور بين مخادع وطباق
 فتوسطوا في الحاليتين وأنصفوا فالشر في التقييد والإطلاق^(١)

وقد أشاد حافظ بجهد المرأة واشتراكها في الحركة السياسية إبان ثورة سنة ١٩١٩ ، وله في ذلك نونية مشهورة فيها سخرية لاذعة بجنود الاحتلال حين قاوموا مظاهرة النساء ، مطلعها :

خرج الغواني يحتجج نورحت أرقب جمعهنّ

وفيهما يعرض بالجيش الإنجليزى بعد أن شتت جموع السيدات :

فليهنأ الجيش الفخو ر بنصره وبكسرهنّ
 فكأنما الألمان قد لبسوا البراقع بينهنّ
 وأتوا (بهندنبرج) مخـ تفيا بمصر يقودهنّ
 فلذلك خافوا بأسم ن وأشفقوا من كيدهنّ^(٢)

ونستطيع أن نقرر أن المرأة قد عاشت في عالم حافظ ، وإن لم يخامر حبها

قلبه .

(١) الديوان ١ / ٢٧٩ .

(٢) الديوان ٢ / ٨٧ .

حافظ الموظف بدار الكتب

أحس حافظ بشيرة الحاجة فسعى لدى ناظر المعارف حينذاك المرحوم « أحمد حشمت » ، وكان رجلاً كريماً يقدر الأدب والأدباء ، فرق لحاله وعينه في فبراير سنة ١٩١١ في وظيفة بدار الكتب المصرية تحت الاختبار بمرتبة قدره ثلاثون جنيهاً ، وفي أول أبريل سنة ١٩١٢ صدر قرار بتثيسته في وظيفته . وفي ٧ فبراير سنة ١٩١٦ عُين رئيساً للمغيرين بالدار . وفي سنة ١٩٢٧ — وكان في الخامسة والخمسين من عمره — طلب إحالته على المعاش على أن يُعطى مرتباً شهرياً قدره خمسون جنيهاً لأنه أسدى إلى دولة اللغة والأدب خدمات جليلة كما يقول ، ولكنه لم يُجب إلى طلبه .

وقد ظل مرتبه يربو إلى أن بلغ ثمانين جنيهاً ، وأحيل إلى المعاش في ٤ فبراير سنة ١٩٣٢ .

وقد أراد المرحوم « أحمد حشمت » أن يقدم للشاعر صنيعاً آخر فسعى لدى أولى الأمر حتى حصل له على رتبة البكوية سنة ١٩١٢ ، ثم مُنح نيشان النيل من الدرجة الرابعة في السنة نفسها .

والذين اتصلوا بحافظ أثناء عمله بدار الكتب يذكرون أنه كان لا يستقر على كرسيه في الدار إلا إذا أُكْرِه على ذلك ، كأن يحتجزه مثلاً الأستاذ لطفى السيد — وكان مديراً للدار فترة ما — لمعاونته في مراجعة ترجمته لكتاب الأخلاق^(١) . ويقول زميله في العمل الأستاذ أحمد محفوظ : « وربما مضى

(١) من مقال للمرحوم الدكتور زكى مبارك في كتاب « ذكرى الشعراء » ص ٤٩ .

الأسبوع والأسبوعان والثلاثة وهو لا يأتي إلى عمله ، وإذا جاء جال في أبهاء الدار جولة قصيرة يضاحك هذا ويمازح ذاك ، ويتنادر ويحدث وهو واقف أو سائر»^(١) . وإذا نضا عن نفسه ثوب الممازحة كان حديثه مع الموظفين لا يعدو محيط العلاوات والترقيات وما شابه ذلك من أمور . ولم تكن له طاقة على العمل ، ولهذا قلما كان يُلبى جالسا إلى مكتبه ، وفي ذلك يقول الأستاذ محفوظ : « وكان قدوة للموظفين غير حسنة ، لأننا كنا نترك أعمالنا ونتحلق حوله ونحادثه ويضاحكنا ويتنادر علينا ويُشَدنا شعره ، وكان يأبى العمل ويأبى الاحتجاز ويأبى القيود ، فلذلك كان يخاف المجهول الخبيء في صدور رؤسائه الجدد ، فهو جزع دائما خائف دائما»^(٢) . ولذلك كان لا يأتي مدير جديد للدار إلا توهم حافظ أنه سيكشف إهماله وأنه سيضيق به ، وأنه معزول أو محال على المعاش . ومن أجل هذا كان كثير السؤال عن الفرق بين الراتب والمعاش ، ويقول : « الرزق على الله » .

وكان حافظ يخرج من بيته ويتجه إلى الدار أحيانا فيمكث فيها قليلا ، ثم يُهرع إلى خارجها فيلتقي بأصدقائه غالبا في مقهى « جراسمو » أو مقهى « متاتيا » أو « بار اللواء » وهناك يلتفون حوله حيث ينعمون بما ينفحهم به من طيبات الأحاديث . وسنشير إلى مجالسه هذه في موطن آخر .

ويذكر المرحوم الدكتور أحمد أمين أن هذه الفترة التي قضها موظفاً بدار الكتب « كانت فترة نضوب في شعره وجمود في قريحته إلا نادراً . فكان منصبه نعمة عليه ونقمة على فنه ، ومنفعة له ومضرة على الناس . ولعل أيام بؤسه الأولى روعته وأفزعته حتى قامت شبحاً دائماً أمام عينه تنذره بالويل والثبور وعظائم الأمور إن هو أصيب في منصبه أو مُسَّ في مرتبه»^(٣) . وهذا

(١) حياة حافظ إبراهيم ص ١٦٠ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) مقدمة الديوان ص ١٩ .

القول يدل — فى رأى — على وهن طاقة حافظ الفنية ، لأنه يقصر الشعر على أمور السياسة والوطنية . وكان فى مكنة حافظ أن ينأى بنفسه عن مثل هذه الأمور التى تمسه فى منصبه أو فى راتبه ويعوج على فنون الشعر الأخرى — وهى فسيحة — فينظم فيها شعره إذا اختلجت فى نفسه المشاعر ، مثل الوصف — وما أوسع أكنافه — والعروبة والأبجاء القديمة وغير ذلك من دواعى القول التى تشحذ القريحة وتدفع إلى نظم القريض .

ولكن حافظاً قد قصر جهده الفنى عن أن يتناول فناً أخرى كانت أخلق بالتناول ، لأنها تبين انطباعات الشاعر وانعكاسات أسرار الكون فى نفسه . وتقصيره فى هذه الناحية يدل على أن أفقه الفنى لم يكن من السعة بحيث يتناول كثيراً من الجوانب الشعرية .

٨

وفاة حافظ

كان حافظ فى السنين العشر الأخيرة من حياته كثير القلق على صحته . وكان يتوهم المرض فى نفسه ، ولا يسمع بعلّة من العلل إلا سأل عن أعراضها وأيقن أنه مصاب بها ، وشرع يعالج نفسه منها .

وكان حافظ قد أصيب بمرض السكر ، وحاول أصحابه أن يحملوه على التداوى من هذا الداء ، ولكنه كان ينتظم فى العلاج أياماً ثم ينقطع . وقد حاول المرحوم داود بركات رئيس تحرير « الأهرام » إقناعه بمواصلة العلاج^(١) ، فلم يفلح لأن حافظاً كان ملولاً بطبعه ، فأهمل العناية بصحته ، واستشرى دأؤه وانتابته علل أخرى كلما تقدمت به السن فزاد ذلك من أوهامه . وكان كلما

(١) مجلة أبولو عدد يولية ١٩٣٣ ص ١٣٣٨ .

قضى واحد من أصدقائه أصابه الذعر وأحس بشبح الموت يقترب منه . وقصائده
التي نظمها في أخريات أيامه في مناسبات مختلفة تشير في معظمها إلى هذه
الحالة النفسية التي كان حافظ يعاني منها الكثير . يقول من قصيدة في ذكرى
الإمام محمد عبده سنة ١٩٢٢ :

قد وقفنا ستة نبكى على عالم المشرق في يوم عصيب
وقف الحمسة قبل فمضوا هكذا قبل وإني عن قريب
وردوا الحوض تباعا فقصوا باتفاق في مناياهم عجيب
أنا مذ بانوا وولى عهدهم حاضر اللوعة موصول النحيب^(١)

ويتوقع أن يحترمه الموت بين آونة وأخرى ، وبخاصة بعد أن قضى صديقه
(حفي ناصف) فيقول من القصيدة نفسها :

أذنت شمس حياتي بمغيب ودنا المنهل يا نفس فطبي
قد مضى « حفي » وهذا يومنا يتداني فاستثبي وأنبي
اذكري الموت لدى النوم ولا تغفلي ذكرته عند الهبوب

وإذ ذاك نراه ينيب إلى الله ويهيب بنفسه أن تترود للآخرة ، فخير الزاد
التقوى :

واذكرى الوحشة في القبر فلا مؤنس فيه سوى تقوى القلوب
قدّمي الخير احتساباً فكفي بعض ما قدّمت من تلك الذنوب
ويحس بأنه قد آن له أن يستريح من هذه الدنيا المليئة بالأوصاب :
حنّ جنباي إلى برّد الثرى حيث أنسى من عدو وحبيب
مضجع لا يشتكى صاحبه شدة الدهر ولا شد الخطوب

وفي الجامعة الأمريكية ببيروت يقام له حفل تكريم فينشد قصيدة بهذه
المناسبة ، ولا ينسى أن يدس فيها توجسه وإحساسه بقرب منيته :

شاهدتُ مصرعَ أترابي فبشرني بضجعة عندها رَوْحى وريحاني
 كم من قريب نأى عني فأوجعني وكم عزيز مضى قبلي فأبكاني
 من كان يسأل عن قومي فإنهم ولّوا سراعاً وخلّوا ذلك الواني
 إني مللتُ وقرفي كل آونة أبكى وأنظم أحزانا بأحزان^(١)

والظاهر أن إحالته على المعاش كانت نذيراً له بدنو أجله وكان لا ينحى على أصدقائه شعوره بهذا . وفي الشهور الأخيرة ثقلت عليه علته ، ولكنه كان لا يلزم داره إلا إذا أقعده المرض ، فإذا أحس بنعمة العافية تسرى في بدنه غادر بيته وأسرع إلى أصدقائه ، ولكن سرعان ما يعاوده المرض فيلبث في فراشه قلقاً على حياته . وظل هذا شأنه بعد إحالته على المعاش .

وذاث يوم اشتدت عليه العلة ، وكان قد دعا صديقه « إبراهيم راتب » وآخر لتناول طعام العشاء معه ، ولكنه لم يستطع مشاركتهما الطعام فتمدد على مقعد بالقرب منهما يؤنسهما بحلو حديثه ، وهو يعتقد أن برداً خفيفاً قد أصابه سينصرف عنه بعد حين . وبعد أن غادره صديقه أحس بالمرض يُدنفه ، فاستدعى الخادم ليناوله الدواء ، ولكنه لم يشعر بشيء من الراحة وأحس بالآلم يشتد ويكاد يهصره .

ولما كان الخادم يعرف ما بين سيده والمرحوم « عبد الحميد البنان » من علاقة قوية فقد استدعاه بالتليفون ليسرع بإحضار طبيب ، فجاء على عجل ومعه الطبيب إلى منزل حافظ بكوبرى القبة ، فوجدا الشاعر في الترع الأخير لا يقوى على النطق بكلمة وداع ، ثم ما لبث أن ودع أنفاس الحياة الدنيا وقد ناهز الستين من العمر . وكان ذلك في الساعة الخامسة من صباح يوم الخميس ٢١ يولية سنة ١٩٣٢ ونعاه إلى مصر والعالم العربي صديقه إسماعيل شيرين مدير المطبوعات في ذلك الوقت ، فكان الجزع عليه شديداً . وشُيع إلى جدته في

الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم^(١) ، وقد سار في جنازته عليه القوم وأهل الفكر والأدب . وكان أشدهم حزناً عليه المغفور لهما الشيخ عبد العزيز البشري والشاعر خليل مطران . وصلى عليه في جامع الكرخيا ، ثم دُفن في مقابر السيدة نفيسة رحمه الله . وقد رثاه على القبر الأستاذ عباس محمود العقاد والمرحوم الشاعر محمد الهراوي . وكان صديقه المرحوم « محمد محمود باشا » يتقبل فيه عزاء المعزين . وبذلك خمد صوت طالما جلعجل في سماء الوادي وصدح على ربوعه بمختلف الألحان .

٩

أخلاقه وشخصيته

لم يذق حافظ للراحة طعماً طول حياته ، فقد مات والده وهو طفل ، وخلف له اليتيم والإملاق ، وحاربه الزمان حرباً لا هوادة فيها ؛ فقد برم به خاله وشعر بأنه كل عليه ، ولم يطب نفساً لمهنة المحاماة . ثم هبأت له الأقدار وظيفة ضابط بالجيش يأتيه منها رزقه رغداً كل شهر ، ولكنها طوّحت به إلى السودان ، فقاسى هناك الكثير من العنت والإرهاق ووقدة الجمر . وكان رجلاً لا يقوى على تحمل متاعب الجندية ومقتضياتها ، فضاق بالحياة في السودان ، وأخذ يستصرخ من يعرفهم من الكبراء في رسائل شعرية ونثرية طالباً إليهم أن يخلصوه من هذه الحياة البغيضة . وكأن الأقدار أرادت أن تخلصه من بأسائه في السودان ولكن بطريقة مؤلمة عنيفة ، إذ وجّهت إليه تهمة أحيل بسببها إلى الاستبداع ، فغادر السودان إلى مصر ، ثم أحيل إلى المعاش . وكان المرتب الذي يتناوله من معاشه ضئيلاً لا يكاد يفي بمطالبه . فأخذ يطرق الأبواب باحثاً

(١) صحيفة الأهرام بتاريخ ٢٢ يولية سنة ١٩٣٢ .

عن عمل مناسب ، ولكنه لم يوفق ، وقدّمه شوقي شاعر السراى إلى جريدة الأهرام ليتولى عملا فيها فلم يتم له ما أراد .

وقد عزّ على حافظ أن يُرمى بهذه الأرزاء وهو فى مستهل حياته وفى فجر شبابه ، وكان ذا نفس شاعرة وحس مرهف ، فضاق بالحياة وبالناس ، ونقم على قومه الذين لم يعرفوا قدره :

فما أنت يا مصر دار الأديب ولا أنت بالبلد الطيب^(١)
ويقول فى حسرة تعصر الفؤاد :

لكننى غير مجـدود وما فتئت يد المقادير تقصينى عن الأرب
وقد غدوت وآمالى مطرحة وفى أمورى ما للضب فى الذنب^(٢)
وفى شىء من المرارة المحرقة يقول :

فلم يغن شيئا ولم يجدهم ولم يبق إلا بقاء الحب
فلا سبق لى فى مجال النهى ولا لى يوم الفخار الغلب^(٣)
ولا ينفك يردد خذلان أمته له وتحالفها مع الزمن لمحاربتة ، وينعى عليها عبثا وانصرافها عن أمور الجـد :

عقنى الدهر ولولا أنى أوثر الحسنى عقت الأدبا
أنا لولا أن لى من أمتى خاذلا ما بت أشكو النوبا
أمة قد فت فى ساعدها بغضها الأهل وحب الغربا
تعشق الألقاب فى غير العلا وتفدى بالنفوس الرتبا^(٤)

وكان سيئ الظن فى أمته قليل الثقة بها ، حتى إنه ينعى على النيل وفاءه لهذه الأمة الكنود فيقول فى « لىالى سطيح » : « ويحك ، إلى متى يسع حلمك

(١) الديوان ٢٥٦/١ .

(٢) الديوان ١١٦/٢ .

(٣) الديوان ١٧٦/١ .

(٤) الديوان ٧/٢ .

جَهِلَ هذه الأمة المكسال ، وإلى كم تحسن إليها وتسيء إليك ؟ علمت أن سيكون منك الوفاء فلم تحرص على ودك واتكلت على حلمك وبالغت بعد ذلك في عقوقك وأمعنت في العقوق فجعلتك مصرفاً لفضلات البطون ، ثم أمعنت في العقوق فصيرتك مقبرة للجيف لتصبح بذلك مجرى البلاء ومستودعاً للوباء» (١) . ثم يذكر مبلغ تنكر الأمة للنابغين من أبنائها ومحاربتهم إياهم في غير هواة فيقول : « ينبغ فيها النابغة فينبعث أشقاها للطعن عليه ، فلا يزال يكيد له حتى يبلغ منه . ويكتب فيها الكاتب فينبهه له سفيها فلا يفتأ ينبح عليه حتى ينشب فيه نابه ويفسد عليه كتابه . ويشعر فيها الشاعر فيحمل عليه جاهلٌ فلا ينفك عنه حتى يغلبه على أمره ويقهره على شعره » (٢) .

وكان حافظ ينظر حوله فلا يرى من ذوى رحمه من يجذب عليه أو يبشبه شكواه وآلامه :

وما لي صديق إن عثرت أقالني وما لي قريب إن قضيت بكاني (٣)

ولكنه وجد أن شكواه لم تجند وأن صرخاته تذهب أدراج الرياح فانقلب إلى رجل مستخف بالدنيا ساخر من الناس والأحداث .

وكان حافظ رجلاً حلو الشمائل نقي السريرة موطأ الأكناف يألف ويؤلف . كان كما يصفه المرحوم الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني « كماء النبع الصافي الذي لم يمتزج بعد بتراب الأرض وأقدارها » (٤) . وكانت شخصيته واضحة لا التواء فيها ولا تعقيد ، يستطيع المرء أن يصل إلى أعماق أعماقها في غير عسر أو مشقة . لهذا ألفه الناس وأحبته الأفتدة . ويقول عنه أستاذه البارودي من قصيدة يقرظ بها ديوانه حينما طبع لأول مرة :

(١) ليالي سطحي ص ٣ .

(٢) ليالي سطحي ص ٤ .

(٣) الديوان ١٨٣/٢ .

(٤) مجلة أبولو (يولية سنة ١٩٣٣) .

ملكته مودته القلوب فأصبحت تلقاه بالتوقير والإعزاز^(١)
ويقول صديقه الأستاذ أحمد محفوظ : « كان ساذجاً سذاجة تكاد تلحقه
بالبلهاء ، فهو يصدق كل ما يقال له . . . وكان طيب القلب لا يعرف الحقد
ولا يتعاق بضغينة على أحد مهما لحقه من أذى »^(٢) . وكان لسذاجته يرعبه
الخوف من التوافه ، ويعتقد في أمور غريبة ؛ فقد ذكر بعض أصدقائه أنه
كان يعتقد أن نفحة التفاح منومة ، فكان لهذا يكثر من شمه وأكله ، وإلى ذلك
يشير بقوله :

كم خدّرت أعصاب مصر نوافح لعودهم كنوافح التفاح^(٣)
ويقول الأستاذ حسن كامل الصيرفي : « إن نفسية حافظ كانت ساذجة
كل السذاجة طيبة كل الطيبة ، يقبل على من يحبه كل الإقبال ويغضب سريعاً ،
ولكن ما تبدو له في الأفق ظاهرة من مظاهر فرح أو أسى لصاحب أغضبه
حتى ينسى كل شيء »^(٤) .

وكان مظهر حافظ يوحى بغير مخبره ؛ فمن يره لأول وهلة يعتقد أنه رجل
فدّم ثقيل ، وبعد هنيهة من مجالسته ينقلب رأيه فيه إلى النقيض . وفي ذلك
يقول الأستاذ سلامة موسى : « وكان حافظ يمتاز أو يتسم بوجه كالح متجهّم ،
يصدم بل يخيف لأول نظرة ، حتى إذا قضى معه نصف ساعة ود لو ينهض
ليقبله ويعانقه »^(٥) .

ومن أخص صفات حافظ الجود الذي يكاد يبلغ حد السفه . كانت حافظه
نقوده في تناول كل يد . . . كان أجود من الريح المرسلة كما يقول صديقه
الشيخ البشري . ولو أنه قبض يده بعض الشيء لأصبح من أهل الثراء والغنى .

(١) الديوان القديم ١/١٨٢ .

(٢) حياة حافظ إبراهيم ص ١٥٨ .

(٣) الديوان ٢/٩٧ .

(٤) حافظ وشوقي للأستاذ الصيرفي ص ١٥٨ .

(٥) ذكرى الشعراء ص ٥٦ .

ويتحدث الناس عن سخائه بما يشبه الأساطير التي تقرأها عن أجواد العرب القدامى .

ويقول صديقه الأستاذ حسن الحطيم : « وإنى لأذكره في جلسته في (بار اللواء) وقد التف من حوله الصحفيون والأدباء والمتأديون وداروا حوله في شبه حلقة ، وحافظ لا ينقطع (الجرسون) عن التردد في مجلسه ذهاباً وحيثاً ، فإذا ما انتهى مجلسه كان حسابه غير يسير »^(١) . وكان العفاة وذوو التربة يقصدونه فيفرغ في أيديهم كل ما في جيبه ويبقى خالي الوفاض ، ثم يبيت ليلته على الطوى . وكل من اتصل به يذكر عن كرمه الفياض الحكايات الغراب ؛ من ذلك أنه سمع عرضاً أن امرأة فقيرة تجاور داره بالحيزة قد جاءها المخاض فبعث إليها بعشرة جنيهات ، وكان مرتبه حينذاك لا يزيد على الأربعين جنيهاً^(٢) . وكان واسع الرزق يأتيه المال من حيث لا يحتسب ، ولكن هذا المال كان لا يستقر في جيبه ، إذ سرعان ما يبسط به يده إلى الأيدي الممتدة إليه ، وكأنه يتمثل بقول الشاعر :

يجود علينا الخيرون بما لهم ونحن بمال الخيرين نجود
كان متلافاً للمال ، لا يعرف له قيمة ولا يحسب للدنيا حساباً ، كان يعطى من يسأله ومن لا يسأله . كان يقبض مرتبه في أول الشهر فيبدده في بضعة أيام على نفسه وعلى إخوانه .

ويذكرون أن وزارة المعارف حينما قررت كتاب (البؤساء) في مدارسها منحت مبلغ ألفي جنيه ، وقد أنفق هذا المبلغ الضخم في شهر واحد . وكان في استطاعته أن يقتنى الدور والضياع ، ولكنه مات ولم يترك كفافاً من المال ينفع من بعده من ذوى رحمه . كان يرى المال وسيلة من وسائل العيش لا غاية من غايات الحياة . كان المال عنده أهون أعراض الدنيا ؛ ويروى أحد أصدقائه

(١) مجلة أبولو (يولية سنة ١٩٢٣) ص ١٣١٦ .

(٢) حياة حافظ إبراهيم ص ١٦٣ .

فى دهش شديد أن صحفياً راهن حافظاً على أمر من الأمور ، فلما خسر حافظ الرهان أخرج من جيبه فدية رهانه ورقة مالية من فئة الخمسين جنيهاً . وكان موقفاً أثار عجب الحاضرين الذين خيل إليهم أنهم لا يعيشون فى هذا العالم المادى الصاخب . ومن طريف ما يذكره عنه الدكتور أحمد أمين « أنه كان يقترح على الحكومة أن تعطى موظفيها أكبر مرتب أول استخدامهم ثم تنقصه شيئاً فشيئاً كلما تقدمت به السن ، لا أن تعطيه مرتباً يزيد مع القدم ، وكان يعلل ذلك بأنه يبدأ وظيفته وهو يبدأ شبابه ، وهذا هو زمن الإنفاق ، فإذا هرم ثم شاخ فإنه يكفيه القليل ، وحسبه من غنى شيع ورى » (١) .

ولعل كرمه هذا راجع إلى أنه تجرع كؤوس البؤس مترعة فأحس وقعه فى النفوس فسخت كفه ونديت راحته .

وكان حافظ فى بيته مضيافاً يحتفى بضيوفه ويقدم لهم أقصى ما فى طوقه من ألوان الطعام الفاخرة . وكان منهوماً بالطعام الدسم ، يحب الضيافات الواسعة التى تقدم فيها الذبائح من ضأن وديكة رومية وغيرها ، ويجب أن يرى الأوانى قد حُشدت فيها لذائد الطعام من فطائر وحلوى وطيور .

ولم يكن شديد البطش بالطعام الفاخر بقدر ما كان يجب أن يتمتع نفسه بالنظر إليه وبخاصة بعد أن تقدمت به السن . ويحكى صديقه المرحوم خليل مطران « أنه ذهب مع حافظ ذات صيف إلى سوريا ، فدعاهما رئيس الدولة لتناول الغداء بقصر الرئاسة ، وقد دعى إلى هذه الوليمة الوزراء وعلية القوم . وطاف الخدم على المدعوين يقدمون لهم ألوان الأطعمة المختلفة على طريقة الفنادق الكبرى . ولم يجد حافظ على المائدة ما كان يود أن تكتحل به عيناه من الذبائح والصوانى المتدفقة بمفاخر دمشق من الأطعمة التى يجيدون صنعها ، فقال إلى جانب الرئيس وسأله مداعباً : ما لكم تأكلون على طريقة المقترين الإفرنج ؟ فبالغ الرجل فى الاعتذار وقال : إني آسف لأنه سبق إلى علمى أنك تستشفى

(١) مقدمة الديوان ص ١٨ .

هنا ، وخشيت ألا يكون الطعام صحيحاً يلائم مزاجك . فقال : شكراً ، ولكن هؤلاء المدعوين ما ذنبهم ؟ ولما أوشكت الوليمة على الانتهاء ، وكان على حافظ أن يلتقي كلمة شكر ، استعاض عنها بنكتة لطيفة ، إذ سأل رئيس الدولة : من وزير ماليتكم ؟ فأشار الرئيس إليه ، فقال حافظ : أهنيء الدولة بكما لأن خزائنها ستبقى عامرة ^(١) .

وكان حافظ يتصف بالصراحة البالغة أقصى حد ، كانت صراحته في بعض الأحيان كالحة . . . إذا استفزه أمرٌ ثارت نفسه واستحال عليه أن يكبح جماحها ، وانطلق فوه يقذف بما في دخیلتها .

كان يقول للأعور في عينه يا أعور ، ما عدا الرؤساء ومن بيدهم الضر والنفع . ويصف صراحته الشيخ عبد العزيز البشري فيقول : « يحب الجمال ويجمع له ويكره القبح وينعى على أهله ، يجابه بذلك مجابهة لا يتقن في القول ولا يتحرف » ^(٢) . وكان - لفرط سداجته - سريع الغضب سريع الرضا ، يتحول في لحظات من الحال إلى نقيضها . وكان لهذه الحلة مظهر واضح في علاقته بالرجال وفي رأيه فيهم . وهذه غميلة نغتمزها في شخصية حافظ ، وهي دليل واضح على تهافتها وضعفها . ويتبين لنا ذلك من موقفه المتناقض من السلطان عبد الحميد وستناول هذه المسألة في موضع مناسب . وقد ضاق كثير من الأدباء ذرعاً بموقفه هذا وهاجمه بعضهم في شيء من القسوة والعنف واعتبروه رجلاً عاجزاً واهن الشخصية يتابع الجماهير في ميولها وتقلباتها . وقرأ ما يقوله عنه المرحوم الأستاذ إبراهيم المازني : « ألا ترى كيف أنه مدح السلطان عبد الحميد قبل الدستور ، ثم صرف بعده الثناء إلى رجال تركيا الفتاة وجعله وقفاً عليهم . وهل أدل من ذلك على أنه ليس بصاحب رأى وأنه إنما يتابع الجمهور ويجاريهم في آرائهم وأميالهم ، لا لرياء في طبعه ، ولكن لعجز وضعف في ذهنه » ^(٣) .

(١) مجلة الكتاب (أكتوبر سنة ١٩٤٧) ص ١٤٩٧ .

(٢) ذكرى الشاعرين ص ١٠ .

(٣) شعر حافظ للأستاذ المازني ص ١٤ .

وكان حافظ شديد الحرص على منصبه ، وكأنما كان شبح البؤس والفقر يمثل أمام ناظره إذا هو أصيب في منصبه . وقد دفعه حرصه هذا إلى ألا يقول ما يغضب الحاكمين ومن يدهم الأمر ، وغلا في ذلك غلواً بلغ حد التملق البغيض ، فكان يمدح المستعمرين مدحاً تخجل منه الوطنية الصادقة . وكان لا يستطيع أن يخفى إشفاقه من الفصل من الوظيفة . ويخبرنا أستاذنا الدكتور طه أنه لقيه مرة عند المرحوم « محمد محمود » رئيس الأحرار الدستوريين فأنشده شعراً نظمته في مدح (الباشا) يثنى فيه على جهوده وبلائته في مفاوضة الإنجليز أيام أن كان رئيساً للوزارة ، وكان الدكتور طه يعرف منه هذا الضعف ، فأحب أن يداعبه ، فقال له أمام الممدوح وبعض صحبه : « ما أجمل هذا الشعر وأقواه ! » فقال حافظ : « أسمعون؟ سجلوا عليه ، فإنه خليف بعد ذلك أن ينقذني » فقال الدكتور طه : « اشهدوا على أنى مستعد للثناء على حافظ في غير تحفظ إذا نشر هذا الشعر » ، فقال حافظ مقهقهها : « اذمنى ما شئت في غير تحفظ ، فلن أنشر هذا الشعر لأنى لا أريد أن أحال إلى المعاش الآن » ، فقال الدكتور طه : « فإنى سأنشر فصلاً عنك كله ثناء وسأستشهد ببعض هذا الشعر » ، قال : « ولا هذا أيضاً » ، وقضى المجلس وقتاً طويلاً في الضحك من إشفاق حافظ وخوفه (١) .

وقد كان حرصه البالغ على وظيفته يدفعه أحياناً إلى أن يأتى أموراً تترى بمروءة الرجل وتحط من قدره ، يشهد بذلك من اتصلوا به عن كثب ، فقد حدثنا صديقه الأستاذ أحمد محفوظ ، قال : « سمعت "مصطفى الحولى" (٢) وهو صديقه الحميم وجاره أيام كان يسكن في ضاحية الجيزة يقول : إن حافظاً أنكرنى وتغافل عني ولم يحينى وهو يدخل مطعم "جوانيدس" في الإسكندرية لأننى فصلت من مجلس النواب والشيوخ ، فهو يخاف سعداً ورجال الوفد ، وكان مصطفى الحولى رجلاً سمحاً متواضعاً » (٣) .

(١) حافظ وشوقي للدكتور طه حسين ص ١٩٤ .

(٢) ذكره حافظ في شعر له يدل على ما كان بينهما من مودة . الديوان ٢٠٤/١ .

(٣) حياة حافظ لإبراهيم ص ١٦٢ .

وكان حافظ يمدح سعد زغلول ما كان له سلطان ، فإذا سقط منه صوبلحان الحكم انصرف عنه حافظ خشية أن يلحقه سوء .

ولما قضى سعد سنة ١٩٢٧ وأقيم له حفل تأبين رثاه حافظ بقصيدة تعتبر من غرر قصائد الرثاء في الشعر العربي^(١) . ومن الغريب أن الدكتور سامي الدهان يعتقد ذلك من حافظ شجاعة وطنية ، لأنه اجتراً على رثاء سعد « ولم يخف موقعه من الحكومة ومحله من الوظيفة ومكانه من الراتب »^(٢) . وقد نسي الدكتور الدهان أن الحكومة كانت آنذاك حكومة ائتلافية تمخض عنها ائتلاف الأحزاب الذي تم في سنة ١٩٢٦ . وكان سعد رئيس مجلس النواب ، وقد اشتركت الحكومة في تأبين الزعيم الراحل . والمحضرون في السياسة يذكرون أن رئيس الوزارة المرحوم « عبد الخالق ثروت » وقف يومئذ يؤبن سعداً فخنقته العبرات ولم يستطع أن يفوه بكلمة فغادر منبر الخطابة وقد انعقد لسانه عن الكلام . فأين هي الجراءة التي بدت من حافظ حين رثى سعداً حليف الوزارة القائمة ؟ إنه حين رثاه كان يأمن مغبة ذلك ولا يتوجس منه أى أذى يصيبه في وظيفته .

ومن أبرز صفات حافظ التردد وعدم الإدلاء برأى قاطع في أمر من الأمور ، وهذه الصفة وثيقة الصلة بصفة الخوف التي أشرنا إليها ، لأنه كان يشفق على نفسه من أن يغضب أصحاب اليمين إذ أيد أصحاب الشمال مثلاً .

تحدث أحداثٌ تهز الشعب المصري ، وينقسم الناس في شأنها إلى فريقين ، ويتقدم حافظ شاعر الشعب ليدلى بدلوه في الدلاء ، وينتظر الناس من شاعرهم الرأي الحاسم يهديهم سواء السبيل ، فإذا به يخرج لهم برأى فطير ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ؛ إذ يقف موقفاً وسطاً هو موقف الرجل الحذر الذي يؤثر العافية ، وكأنه اتخذ لنفسه موقف المتفرج الذي يسجل ما يرى وما يسمع ليس إلا . يُنقل طاغية الاستعمار وجلاد دنشواي (لورد كرومر) فتتنفس الأمة الصعداء وتشيعه بعبارات الشماتة والمقت ، وينتظر الناس من حافظ أن يصب

(١) اقرأ القصيدة في الديوان ٢/ ٢١٨ .

(٢) شاعر الشعب ص ٤٣ .

على رأس الطاغية اللعنات ، كما فعل زميله أمير الشعراء « شوقي » ، ولكنه — مع بالغ الأسف — صنع ما لم يكن في حسابهم ، إذ أخذ يسرد آراء الناس في الطاغية ؛ طيها ونخبها . ولم يكتف بذلك ، فأخذ يعدّ أياديه (البيضاء) على المصريين وهم ليسوا (أمة تجحد اليدا) على حد تعبيره ، والله يعلم أن أيادي هذا الطاغية الجبار كانت أحلك من دياجير الليل البهيم ، وحافظ نفسه أول من يعرف ذلك ، وسنتحدث عن ذلك في فصل خاص . ثم يختم حافظ القصيدة بهذه الأبيات التي لا تعبر عن رأى صريح اللهم إلا تحية كريمة في وداع (الشيخ الجليل) :

فهذا حديث الناس والناس ألسن	إذا قال هذا ، صاح ذاك مفندا
ولو كنت من أهل السياسة بينهم	لسجلت رأيا وبلغت مقصدا
ولكنني في معرض القول شاعر	أضاف إلى التاريخ قولا مخلا
فيأبها الشيخ الجليل تحية	ويأبها القصر المنيف تجلدا
لئن غاب هذا الليث عنك لعله	لقد لبث آثاره فيك شهدا ^(١)

وتحدث، حادثة زواج الشيخ على يوسف صاحب المؤيد بالسيدة « صفية السادات » فتصبح حديث الناس في كل مكان ، وتفيض فيها الصحف ، ويتناولها الشعراء ، ويدلى كل واحد برأيه ، وتشرّب الأعناق إلى حافظ آملة أن يدلى لها برأى صريح في هذه المسألة ، ولكنه يقف موقف الراصد المسجل فحسب :

وقالوا : « المؤيد » في غمرة	رماه بها الطمع الأشعبي
دعاه الغرام بسنّ الكهول	فجن جنونا بنت النبي
فضج لها العرش والحاملوه	وضج لها القبر في يثرب
ونادى رجال بإسقاطه	وقالوا : تلون في المشرب
وعمدوا عليه من السيئات	ألوا تدور مع الأحقب
وقالوا لصيق بيت الرسول	أغار على النسب الأنجب

وزكى « أبو خطوة (١) » قولهم
 فما للهاني على داره
 وما للوفود على بابه
 وما للخليفة أسدى إليه
 بحكم أحد من المضرب
 تساقط كالطر الصيب
 تزف البشائر في موكب
 وساما يليق بصدر الأبي (٢)

ويموت قاسم أمين صاحب الدعوة إلى السفور وتحرير المرأة فيريه حافظ ،
 ويعرض لدعوته ، ولكنه لا يقطع بإصابة قاسم أو بخطئه ، ولم يصنع أكثر من
 تسجيل آراء المعارضين والمؤيدين .

إن رأيت رأيا في الحجاب ولم
 الحكم للأيام مرجعه
 وكذا طهارة الرأي تركه
 فإذا أصبت فأنت خير فتى
 أولا ، فحسبك ما شرفت به
 تعصم ، فتلك مراتب الرسل
 فيما رأيت فتم ولا تسأل
 للدهر ينضجه على مهل
 وضع الدواء مواضع العلل
 وتركت في دنياك من عمل (٣)

ويصدر تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ فينظم حافظ قصيدة بهذه المناسبة
 مطلعها :

ما لي أرى الأكمام لا تفتح والروض لا يذكو ولا ينفّح (٤)

وفيها لا يبدى حافظ رأيه واضحا صريحا ، وإنما يقف موقفا لا يحاسب
 عليه ، وهو تسجيل الآراء المختلفة :

قد حارت الأفهام في أمرهم
 فقائل لا تعجلوا إنكم
 إن لمحو بالقصد أو صرحوا
 مكانكم بالأمس لم تبرحوا

(١) أبو خطوة هو الشيخ أحمد أبو خطوة قاضي المحكمة الذي حكم ابتدائياً بفسخ عقد الزواج .

(٢) الديوان ٢٥٦/١ .

(٣) الديوان ١٥٦/٢ .

(٤) الديوان ٩٤/٢ .

وقائل أوسع بها خطوة وراءها الغاية والمطمح
وقائل أسرف في قوله هذا هو استقلالكم فافرحوا

فأنت تراه في هذه المسائل وفي أمثالها مضطرباً غير مستقر ، لا يستطيع
الجزم برأى . وسر ذلك — فيما أرى — أمران :

الأول : ضعف شخصيته وعدم استبطانه للأمور ، فهو يخشى أن ينكشف
أمره إذا ما بت برأى قاطع في المسائل التي تشغل الناس لأنه قلما يعكف على
مسألة أو يستوعبها في إمعان وروية ، « فقد حكى عنه بعض أصدقائه رواية
عنه أنه لم يقرأ كتاب " تحرير المرأة " وإن كان قال فيه شعراً »^(١) .

الثاني : خشيته من أن يناله أذى إذا انحاز إلى رأى دون رأى . والواقع أنه
ما كان يمسه ضرر إذا أبدى رأيه صريحاً شامخاً في هذه المسائل التي شغلت الرأى
العام رديحاً من الزمان .

واكن حافظاً كان يتوجس الأذى من كل شيء . وما أصدق الأستاذ
أحمد محفوظ حين وصفه أدق وصف قائلًا : « كان رعديداً يربعه الخوف من
التوافه ، كأنه طفل صغير ملأت رأسه صور الغيلان والنفاريت من قصص
العجائز في ليالي الشتاء المقرورة »^(٢) .

وقد جمع أشتات شجاعته مرة بعد أن أحيل على المعاش ، وندد بحكومة
إسماعيل صدقي في مارس سنة ١٩٣٢ حين اضطرت الأستاذ أحمد لطفي السيد
مدير الجامعة إلى الاستقالة احتجاجاً على نقل الدكتور طه حسين عميد كلية
الآداب إذ ذاك إلى وزارة المعارف بدون رضاه وبدون موافقة الجامعة ، وحين
اضطر الأستاذ محمود غالب — وكان رئيساً لإحدى دوائر محكمة الجنايات —
إلى التنحي عن نظر قضية القنابل المعروفة قائلًا : « إنه لم يخضع إلا لسلطان
ضميره ، فنظم حافظ أبياتاً يمجّد فيها عمل الرجلين ويندّد بطغيان الحكومة منها :

قد راع دار العدل طغى يانُ وراء الجامعة

(١) الدكتور أحمد أمين في مقدمة الديوان ص ٣٣ .

(٢) حياة حافظ إبراهيم ص ١٦١ .

فحميتما حرميهما رغم الخطوب الفاجعه
وقهرتما الباغي على رد الحقوق الناصعه
لله درّ المستشا ر ودرّ ذاك الباقعه
فهما اللذان تكفلا عنا بصدّ القارعه^(١)

وكان حافظ ذا نفس خائرة لا تستطيع مواجهة الأخطار ، ولم يكن بالرجل الجلد الذى يصمد لنوازل الزمان . كان إذا خاشنته الدنيا مخاشنة رقيقة وهنت نفسه وتملكه الجزع . ونحن لا ننسى خور نفسه وضيقه بالحياة فى السودان وهو فى هذه السن الفتية التى تمتلئ فيها النفس بالآمال العراض . ولم تنقطع رسائله إلى أصدقائه بالقاهرة ، وكلها مليئة بالشكوى من سوء حاله فى السودان . وبلغ به الضيق أنه كان يتمنى الموت من هذه الحياة الثقيلة ، وقرأ قوله إلى صديقه محمد البابلي من قصيدة يعاتبه فيها ويبثه آلامه وأحزانه :

كيف تنسى يا « بابلي » غريبا بات بين الظنون والأوهام
وحزينا إذا تنفس عادت فحمة الليل جمرة من ضرام
وإذا أنّ كاد ينصدع الأفق ق وتعتلّ دورة الأجرام
بات تحت البلاء حتى تمنى لو يكون المبيت تحت الرغام^(٢)

وله فى ذلك كلام كثير من المنشور والمنظوم — أشرنا إلى بعضه — يدل على أنه لم يكن « رجل حرب » ، بل كان رجلا محطم النفس ، قلبه فى جناحى طائر كما يقول العرب . وكان يرى أن أشق أيامه وأثقلها على نفسه هى تلك التى قضائها فى الجيش ، وفى ذلك يقول : « فلقد لبثت فى الجيش مع من فيه بضع سنين فصبرنا على ما لا يصبر على بعضه كل أولئك الذين سُخروا لبناء الأهرام »^(٣) .

(١) الديوان ١/١٤٢ .

(٢) الديوان ١/٢٠٢ .

(٣) ليالى سطيح ص ٧٩ .

ومن أظهر طبائع حافظ أن صدره كان ضيقاً حرجاً لا يحتجز فيه سرّاً
من أسرارهِ أو من أسرار أصدقائه ، فإذا لامه صديق على إفشاء سر أجابه قائلاً :
« ومن الذى حملك على قوله لى ؟ » وكأنه يردد قول الشاعر :

إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه فصدر الذى يُستودع السر أضيق
ويقول كل من خالطه وكان من أصفياه إنه كان هجاءً حديد اللسان ،
يتناول خصومه وكل من يغضبه بقوارص الكلم . ويدكرون أنه كان ينظم شعراً فيه
هجاء فاحش ، ولكنه كان يستخزى أن ينشره . وقد وعت صدور بعض أصدقائه
أبياتاً له فى هجاء سعد زغلول منها قوله :

فما دام فى قصر الدربارة ربه فسعد ودنلوب لعمرك واحد^(١)

والحق أن سعداً لم يكن يستحق ذلك ، فقد كان شخصية فذة قوية ،
وهو الذى قاوم طغيان « دنلوب » المستشار الإنجليزى وأوقفه عند حده بينما
سجد له غيره ممن تولوا « نظارة المعارف » . وقال أيضاً يتهمة بالأنانية ويُغرى
به الخديو عباس :

أنا ، أنا ، منه كل يوم لها صدئى بيننا يرن
أدرك أنا وهى فى صباها إن لم تقل : نحن . . . قال : نحن

وقد ذكر بعض شيوخ الأدب ممن كانوا على صلة بحافظ أنه كان صديقاً
لسعد ، ثم ولى سعد نظارة المعارف ، فأراد حافظ أن يقابله فى مكتبه فى شأن
خاص ، فوقف فى طريقه الساعة والحجاب وسأله أن يذكر حاجته وينتظر
بالباب حتى يأذن له الوزير ، فخرج حافظ مغضباً ، وذهب يشكوه إلى
الشاعر إسماعيل صبرى ، وكان فى نفسه من سعد أشياء فأغرى حافظاً بهجائه ،

(١) انظر مجلة أبولو ص ١٣٣٦ . وهذا البيت والبيتان بعد بعده لم تذكر فى الديوان .

وكان أول ما هجاه به قصيدة كافية فيها كثير من الفحش نذكر أخفها على الأذان وقعا . . . قال حافظ بعد أبيات يشير إلى موقف سعد وحميه مصطفى فهمى باشا الذى كان معروفاً بموالاة الإنجليز :

بانيك ذا بانى حميك فلا تخف إن الذى أضحي يقبه يقيكا
إن قيل إنك قد هدمت رجاءنا فيك فعذرنا أنهم أمروكا

يقصد أن الإنجليز هم الذين يحمونه ويأمرونه .
وكانت بعض الصحف الفكاهية فى ذلك الحين تهاجم سعدا وتعيده بالصلع .
وفى ذلك يقول حافظ ذاكرًا « شعوره » فى تورية غامزة ومذكرا إياه بعمامته وبرقة حاله إبان الطلب بالأزهر :

قد جردوك من « الشعور » وبالغوا فاحسّر وجلّ عن العيون شكوكا
وضّع العمامة يعرفوك بشارة كانت شعارك خاملا مفلوكا^(١)

وتهاجر هو والمرحوم السيد توفيق البكرى — ونحن نعرف مكانة هذا الرجل — فقال فيه :

وليلة بتّ بها ساهرا أجرّ ذيل الفحش والفجر
حتى ظننت وليلى عجب أننى بيت السيد البكرى^(٢)

وله غير ذلك هجاء كله فحش ونكر أنزه هذا الكتاب عن أن أثبت فيه ، وهو شعر لم ينشر وقد تلقفته من أناس اتصلوا به .

وكان حافظ رجلا اجتماعيًا بطبعه يكره العزلة ، ويحب الاختلاط بالناس على تباين طبقاتهم ، وقد اتصل بأناس كثيرين مختلفى النزعات والمشارب والثقافة . فقد عرف الأستاذ الإمام محمد عبده وأصبح من أصفياه والمقربين إليه ، واتصل بأصدقاء الإمام ، وفيهم العالم الأزهرى كالشيخ عبد الكريم

(١) هذه القصيدة غير موجودة فى ديوان حافظ وقد نشرت هذه الأبيات فى مجلة المصور

عدد ١٧١٢ بتاريخ ٢ أغسطس سنة ١٩٥٧ .

(٢) انظر مجلة أبولو (يولية ١٩٣٣) .

سلمان ، وفيهم المجدد صاحب النزعات الثورية كقاسم أمين ، وفيهم القاضى
الثبت الذى أدرك حظاً من المجد كسعد زغلول ، وفيهم رؤساء العشائر الكبرى
كحسن عبد الرازق ومحمود سليمان وعلى شعراوى ، وغيرهم من ذوى النزعات
المختلفة والمنازل الاجتماعية المتباينة .

واتصل حافظ كذلك بالمتطرفين من الساسة أمثال مصطفى كامل وعلى
يوسف وعبد العزيز جاويش . وهؤلاء وأولئك جميعاً كانوا يخلصونه بالحب والبر .
وحافظ كان مطبوعاً على الوفاء ، فإنه — مع اتصاله بهؤلاء العظماء —
لم يقطع صلاته بأترابه من أوساط الناس وغيرهم من الشعراء والأدباء الذين أدبرت
عنه الدنيا ، فكان يعطف عليهم ويتفقدهم فى كل مكان . فحافظ — رحمه
الله — كان صديق الناس جميعاً ، خالطهم وأدرك عن قرب أهواءهم
وميوهم .

وكان يتعشق كل ما هو عربى ، ولا يدانيه — فى نظره — شىء فى البلدان
الأخرى ، سياتى فى ذلك الفن والتقاليد والعادات . وإذا أراد أن يشيد بنبوغ
أحد الغربيين قرنه بأحد عباقرة العرب . فقد نظم قصيدة فى « فكتور هيغو »
افتتحها بقوله :

أعجمى كاد يعلو نجمه فى سماء الشعر نجم العربى
صافح العلياء فيها والتقى « بالمعرى » فوق هام الشهب^(١)

وفىها يقول :

سائلوا الطير إذا ما هاجكم شدوها بين الهوى والطرب
هل تغننت أو أرنت بسوى شعر « هوجو » بعد عهد العرب

ولقد طاف حافظ ببعض مدن أوروبا ، فلما عاد أبدى سخطه الشديد

على تلك المدن وتقاليدها أهلها » التي تجعل الناس سجناء وتحرمهم الحرية باسم الحرية في ما يسمونه أوطانها « (١) .

وكان حافظ معروفا بإعزازه لدينه ، وربما كان هذا هو السبب الأكبر في حبه للعرب ولكل ما هو عربي ، وكان لوطنه من حبه نصيب لا يقل عن حبه لدينه ، وفي ذلك يقول المرحوم داود بركات : « أما وطنيته الصادقة فلا يعادلها إلا دينه الحمدي . فلك من حافظ ماشئت إلا أن تنال من هاتين الخلتين : دينه ووطنيته ، ولك أن تحيله عما شئت لما طبع عليه من سماحة الخلق وحسن الطوية إلا عن هاتين العقيدتين اللتين تقيد بهما » (٢) . ويقول عنه صديقه الأستاذ أحمد محفوظ : « كان ثابت العقيدة مؤمناً إيماناً ثابت الدعامة ، كان يقوم على الاعتماد على الله في حياته كراكب البحر أو كراكب الصحراء الذي يتوجه إلى الله دائماً ليجنبه الغرق أو الضلال في التيه » (٣) .

وكان في حافظ خلة طيبة ، تلك أنه كان — على حبه لدينه — لا يندفع وراء التعصب المقيت ، ولا يعرف عنه أحد أنه حمل على المسيحية أو اليهودية في مجالس الخاصة أو العامة . والمتصفح لديوانه يجد فيه مدحاً لبعض اليهود مثل المولدة (لونا) (٤) والمغني (چاك رومانو) (٥) من أهالي الإسكندرية .

وكان قلبه ينفطر أسى حين يرى أفاعيل المستعمرين تفاح في التفرقة بين عنصرى الأمة : المسلمين والأقباط ، وقد نظم قصيدة يهيب فيها بالخدو « عباس » أن يرأب الصدع الذي أحدثه أعداء الوطن المستعمرون بين العنصرين ، يقول فيها (٦) :

(١) مجلة أبولو ص ١٣٣٥ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) حياة حافظ إبراهيم ص ١٧٧ .

(٤) الديوان ٧١/١ .

(٥) الديوان ٢٢١/١ .

(٦) الديوان ٢٨٨/١ .

مولاي أمتك الوديعة أصبحت وعُرا المودة بينها تنقسم
نادى بها القبطى ملء لهاته أن لا سلام وضاق فيها المسلم
وهم أغار على النهى وأضلها فجرى الغي وأقصر المتعلم
فهموا من الأديان ما لا يرتضى دين ولا يرضى به من يفهم
ماذا دها قبطى مصر فصدّه عن ود مسلمها وماذا ينتقم؟
وعلام يخشى المسلمين وكيدهم والمسلمون عن المكاييد ذووم

ويخاطب الأقباط مبيناً لهم أننا أبناء وطن واحد قد وجدت بينهم
الآلام :

قد ضمنا ألم الحياة وكلنا يشكو ، فنحن على السواء وأنتم

ثم يهرع إلى الجالس على العرش راجياً أن يتدارك الأمر بحكمته :

ربّ الأريكة إننا فى حاجة لحميل رأيك والحوادث حووم
فأفرض علينا من سمائك حكمة تأسو القلوب فإن رأيك أحكم
واجمع شتات العنصرين بعزمة تأتى على هذا الخلاف وتحسم

وكان يشفق على دول الشرق عامة وعلى العرب خاصة من أن تمزقهم الخلافات
الدينية ، وينذرهم بأنهم إذا لم يقطعوا دابر هذه الخلافات حق عليهم قول
المعري :

والأرض للطوفان مشتاقة لعلها من درن تُغسل

وقد أنشد حافظ قصيدة فى الحفل الذى أقيم لسماعها بالجامعة الأمريكية
ببيروت قال فيها :

إن دام ما نحن فيه من مدابرة وفتنة بين أجناس وأديان
رأيتُ رأى « المعري » حين أرهقه ما حلّ بالناس من بغى وعدوان

لا تطهر الأرض من رجس ومن دنس

حتى يعاودها « نوح » بطوفان^(١)

وكان يحتفل بالنابعين والعباقرة من المسيحيين في العالم الغربي والعالم الشرقي ؛
فدح « فكتور هيجو » ، ولبّى دعوة المجمع العلمى بإنجلترا حينما احتفل بمرور
ثلاثمائة عام على وفاة شاعرهم الأكبر « شكسبير » فنظم قصيدة أشاد فيها بعبقريّة
هذا الشاعر الخالد^(٢) . ورثى ملكة الإنجليز « فكتوريا »^(٣) ، وتولستوى^(٤)
الفيلسوف الروسى المعروف وعدّد مآثره على الإنسانية . وأشاد بعظمة خليل
مطران وفضله على دولة الشعر^(٥) ، وامتدح الأستاذ واصف غالى وقدم إليه باقة من
الشعر الجميل^(٦) عندما نشر كتابه المسمى « حديقة الأزهار » Jardin de fleurs
الذى ترجم فيه بعض مقطوعات من الشعر العربى إلى اللغة الفرنسية .
وهنا الدكتورين فارس نمر ويعقوب صروف صاحبي مجلة « المقتطف » بمناسبة
عيدها الخمسين ونوّه بفضلهما العظيم على الصحافة والعلم ، يقول فيهما :
خمسون عاما في الجهاد كلاهما شاكي اليراعة طاهر الجلباب
قلمان مشروعان ، في شقيهما وحى يفيض على أولى الألباب
خطّا بمقتطف العلوم بدائعا وروائعا بقيت على الأحقاب
جاءا لنا من كل علم نافع أو كل فن ممتع بلباب^(٧)

وحافظ لا ينفك يشير إلى ما لأهل سوريا ولبنان من أثر لا يسجد في ميدان
الصحافة والأدب ، وكلهم — فيما أعلم — مسيحيون :

(١) الديوان ١/١٣٣ .

(٢) الديوان ١/٧٢ .

(٣) الديوان ٢/١٣٦ .

(٤) الديوان ٢/١٦٤ .

(٥) الديوان ١/٥٨ .

(٦) الديوان ١/٦٣ .

(٧) الديوان ١/١٥٤ .

كم في نواحي ربوع النيل من طُرف « ليازجي » و « صروف » و « زيدان »
 وكم لأحيائهم في الصحف من أثر له « المقطم » و « الأهرام » ركنان^(١)
 ورثي علماءهم وأفذاذهم مثل الدكتور شبلي شميل^(٢) وجورجي زيدان
 واليازجي^(٣) ويعقوب صروف^(٤) وحبيب المطران^(٥) .

وكثيرا ما أشاد بنشاط أهل المهجر ؛ هؤلاء الذين يمشون في مناكب الأرض
 ويأكلون من رزقها الحلال ، حتى أثرى الكثير منهم ، وظفر بعضهم بمراكز
 مرموقة . والمعروف أن كثرتهم الكاثرة من المسيحيين :

تيمموا أرض « كولب » فما شعرت منهم بوطء غريب الدار حيران
 سادوا وشادوا وأبدوا في مناكبها بلاء مضطلع بالأمر معوان^(٦)

ويقول من قصيدة أخرى :

بأرض « كولب » أبطال غطارفة أسد جياع إذا ما وُثبوا وثبوا
 لم يحمم علم فيها ولا عسدد سوى مضاء تحامى وردّه الثوب^(٧)

وكان يعتز بصداقته للشاميين المسيحيين المقيمين بمصر ويرى أنهم ليسوا
 غرباء عن أرض الكنانة ، فالكنانة والشام شقيقتان تظللهما راية العروبة ،
 أو على حد قوله « أختان أمهما اللغة العربية تشرف عليهما الدولة العلية ، مصر
 دار الأمان وسوريا روضة الجنان »^(٨) :

-
- (١) الديوان ١٣٣/١ .
 (٢) الديوان ١٨١/٢ .
 (٣) الديوان ١٨٣/٢ .
 (٤) الديوان ٢٢٨/٢ .
 (٥) الديوان ٢٤٥/٢ .
 (٦) الديوان ١٣٣/١ .
 (٧) الديوان ٢٦٨/١ .
 (٨) ليالى سطيح ص ١٤ .

فما الكنانة إلا الشام عاج على ربوعها من بينها سادة نجب^(١)
 وكان معجباً بهمهم التي تفتحهم الأهوال وتتخطى الصعاب :
 يضيق على السوريّ رجب بلادهم فيركب للأهوال ما هو راكبه^(٢)
 وكان يعترف بنبوغهم ونشاطهم فيقول : « كلما نظرت في جالية السوريين
 المسيحيين رأيت بينهم رجالاً إذا هزوا أقلامهم أمطرت ذهباً ، وإذا خطبوا بها
 سطرت عجباً . ولو شئت أن أعد منهم عددت كثيراً . هؤلاء أصحاب المقتطف
 ودائرة المعارف والضياء والهلل والجامعة . هؤلاء أصحاب الصحف اليومية
 وغيرها »^(٣) .

غير أنه كان يحزّ في نفسه أن يرى السوريين المسلمين قد تخلفوا عن
 مواطنهم المسيحيين ، فكلما نظر إليهم لا يرى بينهم « غير البائع والسمسار
 ورائض الخيل والجزار »^(٤) .

ولا أدل على طبيعته السمحة البريئة من التعصب من أنه كان يودّ من
 قرارة نفسه أن يرى الشرق قد قضى على عقارب الخلاف التي كانت تتحلب
 سماً زعافاً بسبب اختلاف القعائد وتباين المذاهب والأجناس :

متى أرى الشرق أدناه وأبعده من مطمع الغرب فيه غير وسان
 تجرى المودة في أعراقه طلقاً كجارية الماء في أثناء أفنان
 لا فرق ما بين بوذي يعيش به ومسلم ويهودي ونصراني^(٥)
 ويتحسر على مجد الشرق وعظمته في العصور الماضية :
 عهد « الرشيد » « ببغداد » عفا ومضى
 وفي « دمشق » انطوى عهد « ابن مروان »

(١) الديوان ٢٦٨/١ .

(٢) الديوان القديم ٨١/١ وهذه القصيدة ليست موجودة في ديوان وزارة المعارف .

(٣) ليالي سطيح ص ١٨ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) الديوان ١٣٣/١ .

ولا تسل بعلمه عن عهد « قرطبة »

كيف انمحي بين أسياف ونيران

وكان قلب حافظ الرقيق ينبض لكل كارثة تدهم العالم ، كان يشارك
الناس طرّاً في بلاياهم ، لا فرق عنده بين مسلمين وغير مسلمين ؛ فقد قال
شعراً في حريق ميت غمر سنة ١٩٠٢^(١) ، وفي بركان جزر المارتنيك سنة
١٩٠٢^(٢) ، وفي زلزال مسينا سنة ١٩٠٨^(٣) . ولما اندلع أوار الحرب اليابانية
الروسية جزع الشاعر وأشفق على الدولتين أن تتفانيا ، وسجل ذلك في شعر
رقيق^(٤) .

وفي سنة ١٩٠٥ جاءت الإمبراطورة « أوجيني » إلى مصر متنكرة وقد دالت
دولتها وأدبرت عنها الدنيا وحطمتها السنون ، ونزلت في أحد فنادق بور سعيد ،
فأنشأ حافظ قصيدة يقارن فيها بين مجيئها إلى مصر سنة ١٨٦٩ في حفل افتتاح
قناة السويس وهي في عنفوان مجدها ، وبين مجيئها هذه المرة . وفي هذه
القصيدة يواسي حافظ الإمبراطورة السابقة ويحاول أن يسرّي عنها ويبين لها أن
الدهر قُلْبٌ والأيام دول فلا تبتئس بما أصابها^(٥) .

وذلك كله يدل على أن حافظاً كان رجلاً سمح النفس ، بريئاً من التعصب
الديني والوطني .

(١) الديوان ١/٢٥٠ .

(٢) الديوان ١/٢٥٢ .

(٣) الديوان ١/٢١٥ .

(٤) الديوان ٢/١٠ .

(٥) الديوان ٢/١٤ .

ثقافة حافظ ومصادرهما

١

القراءة

كانت الثقافة التي تلقاها حافظ بالمدارس محدودة جداً قليلة الغناء، ولكنه عكف على قراءة كتب الأدب العربي وأشبع رغبته منها ، وبخاصة كتاب « الأغاني » الذي قيل إنه قرأه مرات ، وكتاب « الوسيلة الأدبية » وكتاب « المكافأة » وكتب الجاحظ وغيرها من أمهات الكتب . وكان يطيل النظر في دواوين الشعراء ويحفظ متخيرها . وكان يحسن الوقوع على الشعر الجيد الرائع يختزنه بين محفوظه ، وساعده على ذلك حافظه قوية تسعف ذوقه ، وذاكرة حادة تلبى حاجته . وكانت هاتان الحاستان موضع إعجاب أصحابه ومضرب المثل بينهم . يقول صديقه الشيخ عبد العزيز البشري : « كان حافظ قوى الحافظة ، ولقد بلغ من هذا موضعاً عجباً . ولو قد كان حافظ فيمن لم ندرك أيامهم فلم نشهدهم ونلابسهم لأحلنا ما يروى عنه في هذا على ما يتزايد به القصاص ويسرفون في المبالغة طاماً للإفلاق والإغراب . ولقد كان — رحمه الله — يتناول الصحيفة فيها القصيدة لشاعر كبير أو المقالة لكاتب مبرز ، فإذا عيناه تجمزان فيها جَمَراً حتى يأتي على غابتها ، ثم يطرح الصحيفة حتى ما تشك في أنه كان يطاب نماذج من بعض أقطارها ليعجل عليها الحكم السريع النظر ، فما يروعك بعد أيام بل بعد شهور بل بعد سنين طوال إلا أن تبعث المناسبات ذكر هذه القصيدة أو هذا المقال فإذا حافظ يروي بظهر الغيب أفخر ما فيه أو أحقه بالزراية لبلوغه الغاية من الفسولة والإسفاف » (١) .

(١) مجلة أبولو (يولية ١٩٣٣) ص ١٣١١ .

ويذكر صديقه الأستاذ أحمد محفوظ أن حافظا اختاف هو وبعض الأدباء في لفظ « تيامن » - أي سار على يمينه - فطلب حافظ إليه أن يحضر الجزء الخامس من كتاب الأغاني لأن في ترجمة « الكميت » هذه الجملة « تيامنوا يا فتيان » ، فأسرع الأستاذ محفوظ إلى الكتاب فوجد الجملة كما قال حافظ (١) .

وكان حافظ يروي القصة من الكتاب القديم برمتها كما جرى بها قلم كاتبها ، ما تكاد تنشر عليه منها كلمة ، وخاصة ما أشرق لفظه وتبهجت ديباجته . وكان الجالس إليه يهره ما تعجب به حافظته من متنخل الشعر والنثر حتى ليخيل إليه أن صدر حافظ قد وعى من هذا المأثور أكثر مما وعاه ديوان الحماسة أو مختارات البحترى والبارودي . وقد وصفه أحد أصدقائه أروع وصف فقال : « لم أر قط رجلا اجتمع له من متخير القول ومصطفى الكلام مرسلًا ومقنًى مثل ما اجتمع لحافظ ، فكان حقًا له من اسمه أوفر نصيب . وإذا كنت ممن يجرى في صناعة الكلام على عرق وهيئ لك أن يحاضرك حافظ في الأدب لصب على سمعك عصارة الشعر العربي وأبداع ما انتضحت به القرائح من عهد امرئ القيس إلى الآن . ويمكنك أن تعد بحق حافظا أجمع وأكفى كتاب لمتخير الشعر العربي عُرف إلى اليوم » (٢) .

وبلغ من حدة ذاكرة حافظ وقوة حافظته ما حدثنا به صديقه المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار من أنه « كان يسمع الفقيه في بيت خاله يقرأ سورة الكهف أو سورة مريم أو سورة طه فيحفظ ما يقول ويؤديه كما سمعه بالرواية التي قرأ بها الفقيه » (٣) .

وكان لقوة ذاكرته ينشد قصائده في المحافل من الذاكرة ولا يقرأها من ورقة مبسوطة أمامه (٤) .

(١) حياة حافظ إبراهيم ص ٢٢٩ .

(٢) ذكرى الشاعرين ص ١١ .

(٣) مجلة أبولو ص ١٣٢٤ .

(٤) حياة حافظ إبراهيم ص ١٩٤ .

وقد نصحت هذه الثقافة العربية الرصينة على شعره، فما تقرأ له قصيدة إلا وتلقى فيها إشارة إلى حادث تاريخي أو شخصية مشهورة أو مثل عربي أو حكمة مأثورة أو غير ذلك مما تفيض به كتب الأدب العربي . ثم إن تأثيره بما يقرأ جعله ينهج في شعره نهج الأقدمين ويحرص على أن يوفر له ديباجة الشعر العربي الخالص وطلاوته . وفي ذلك يقول الشاعر خليل مطران : « حاضر المحفوظ من أفصح أساليب العرب ينسج على منوالها ويتخير نفائس مفرداتها وأحلاق حلاها » .

بيد أن حافظا لم يكن يعكف على قراءة منظمة ذات منهاج مرسوم ، ولم يكن كذلك يتناول المسائل التي يقرؤها تناول الدارس المتعمق ، بل كان — كما يقول الأستاذ أحمد أمين — : « كالنحلة تنتقل من زهرة إلى زهرة وترتشف من هذه رشفة ومن تلك رشفة ، فهو يرضى ذوقه في أوقات فراغه بالمطالعة المتنقلة ، فإذا عثر على أسلوب رشيق أو معنى دقيق اختزنه في نفسه »^(١) .

ولهذا نقرأ له قصائد في مسائل لم يدرسها دراسة طيبة ، وقد لا يعلم عنها كثيراً ولا قليلاً . فقد رثى « قاسم أمين » وأشار إلى جهاده في قضية المرأة مع أنه لم يقرأ كتبه كما أشرنا . ورثى الأديب الروسي « تولستوى » ، ويقول الأستاذ أحمد محفوظ إنه « لم يقرأ له شيئاً ولم يسمع به إلا عرضاً ، ولكن شوق رثاه فلا بد له أن يرثيه والسلام »^(٢) . وقال قصيدة في ذكرى شكسبير تدل على أنه لم يقرأه قراءة عميقة شاملة . وحينما أتم الأستاذ لطفي السيد ترجمة كتاب « الأخلاق » لأرسطو حياه بقصيدة تنبئ عن جهله التام بأرسطو وكتابه ، وسيكون لهذه المسألة حديث خاص في موطن آخر .

ولهذا نرى حافظا يضيق بألوان المعرفة التي تتطلب من ناشدها التعمق وطول التفكير ، ويقول الشيخ البشري : « كان حافظ قليل الصبر على النظر في كتب

(١) مقدمة الديوان ص ٢٠ للدكتور أحمد أمين .

(٢) حياة حافظ إبراهيم ص ١٩٥ .

علم الاجتماع ؛ وفي حفظ قواعده والمطالبة في تفهم قضاياها واستخراج مسائله»^(١) .
وسر هذه الفوضى القرائية - إن جاز هذا التعبير - في حياة حافظ
أنه كان ملولاً ، قليل الصبر ، لا يستقر على حال ما ، كما يدل عليه تاريخ
حياته . فقد ملّ العمل في مهنة المحاماة ، ولم يطق حياة الجندية . ولولا أن
الوظيفة في دار الكتب لم تكن تفرض عليه قيودها ملها كذلك . وقد لازمته هذه
الفوضى طول حياته ، فلم يكن يعنى بحسن هندام أو نظام ، ولم تكن له مكتبة
منظمة كغيره من الأدباء ، بل كانت كتبه مبعثرة هنا وهناك ، فكنت ترى
جزءاً من الأغاني على منضدة في حجرة النوم وجزءاً آخر على مائدة الطعام
وهكذا .

وكان يضيق بالنظام أشد ضيق ، وهو يفصح عن ضيقه هذا في قصيدته
التي نظمها بمناسبة زيارته لإيطاليا ، وفيها يأخذ على الإيطاليين إفراطهم في حب
النظام فيقول :

أفرط القوم في النظام وعندي أن فرط النظام أسر ونير
ولدين الحياة ما كان فوضى ليس فيها مسيطر أو أمير^(٢)

وقد تبع هذه الفوضى إهمال شديد في حياته الفنية ، فقلما كان يعنى
بكتابة شعره في دفاتر منظمة كما يصنع غيره ، بل كان يدونه في قصاصات
من الورق عرضة للضياع . ولولا أن الصحف قامت بنشر الكثير منه لفقدنا
معظمه ولوقفت معرفتنا عن حافظ عند حد الشخصية المتميزة بخفة الروح التي
تملأ المجالس بالمرح والإيناس ، حتى إذا انفرط عقد الحاضرين ضاع الكلام
مع الرياح .

وهناك مسألة هامة يجب أن نعرض لها ، تلك هي مدى إلمام حافظ باللغة
الفرنسية . هم يقولون إنه كان ضليعاً فيها ، ولكنني لا أطمئن إلى ذلك ، فلو كانت

(١) مجلة أبولو ص ١٣١٣ .

(٢) الديوان ٢٢٧/١ .

درايته بها طيبة لنضحت على شعره ولظهر فيه أثر الثقافة الغربية كما نرى في شعر شوقي . ولكنك تجد شعره ذا مسحة عربية خالصة في ديباجته وفي جوه وفي معانيه . وأغلب الظن أنه لم يكن يحسن هذه اللغة . وقد عرض الأستاذ العقاد لمبلغ دراية حافظ بها وعبر عن ذلك تعبيراً دقيقاً فقال : « فلا تجد بين العارفين باللغات الأجنبية أحداً أشبه منه بمن يجهلون ، ولا تجد بين جاهليها أحداً أشبه منه بمن يعرفونها » (١) .

وهم يستدلون على تمكنه من اللغة الفرنسية بترجمته لكتابي « البؤساء » و « الموجز في الاقتصاد » . والواقع أنك لا تجد بين النص الفرنسي للبؤساء والترجمة العربية إلا شبيهاً باهتاً . وبعضهم يذكر أن حافظاً كان يُهرع إلى الإمام محمد عبده إذا اعتاص عليه فهم العبارة الفرنسية . ومع ذلك جاء الشبه خفيّ الملامح بين الترجمة والأصل . وسنعرض لهذه المسألة في مكان آخر . وأما كتاب « الموجز في الاقتصاد » فلم يكن جهد حافظ فيه إلا كتابة المقدمة فقط ، ويقول الأستاذ أحمد محفوظ — وكان من أشد الناس صلة به — : « والمعروف عندي أن أحمد حشمت (باشا) ناظر المعارف لما أراد أن ينفع حافظاً أمره هو و خليل مطران بتعريب كتاب ” الموجز في الاقتصاد ” فقام مطران بتعريب الكتاب وحده ، وشاركه حافظ في الجائزة المرصدة للتعريب ، ولم يزد على أنه قدمه للقراء » (٢) .

ونستطيع بعد ذلك أن نقول مطمئنين إن درايته باللغة الفرنسية لم تكن ذات غناء .

(١) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص ١٧ .

(٢) حياة حافظ إبراهيم ص ١٤٣ .

المجالس

ولعل من أهم مصادر ثقافة حافظ التي أثرت في اتجاهاته الفنية المجالس التي كان يرتادها . فلقد عاش حافظ من أول فتاء السن إلى غاية العمر أعلام الأدب واللغة والعلم في عصره وداخلهم وجالسهم ونادرهم وأخذ عنهم . وناهيك بمن طوى عمره في مصاحبة الإمام محمد عبده وحمزة فتح الله وإبراهيم اليازجي ومحمد المهدي وسامي البارودي ومصطفى كامل وسعد زغلول وأخيه فتحي وقاسم أمين وإسماعيل صبري وحفني ناصف وأحمد حشمت وعلى يوسف وإبراهيم المويلحي وابنه محمد . . . وسواهم من كل من يجرى في العلم والأدب على عرق كريم . وكان حافظ متسعر الذهن قوى الحافظة مستقيم الطبع ، فأصاب من صحبة أولئك العلماء وطول مذاكرتهم أنفوس ما أصاب من ألوان العلم والمعرفة ، لأن هذه المجالس كانت — كما يقول أستاذنا الدكتور أحمد أمين — : « مدارس من أرق المدارس ، تُطرح فيها المسائل العلمية والمعضلات السياسية والمشكلات الاجتماعية ، وتُعرض فيها الحلول المختلفة ، وتبسط فيها أدواء الأمم وكيف عوبلت ، وما إلى ذلك . وحسبك بمدارس كان المعلم فيها أمثال محمد عبده وسعد ومصطفى كامل »^(١) . وليس من شك في أن هذه المجالس كانت ينبوعاً ثراً نهل منه حافظ أمشاجاً من الثقافات التي أمدته بكثير من الأفكار صاغها في شعره .

وكان حافظ يشد الرحال إلى الأرياف الحين بعد الحين عند أصدقائه الأغنياء ، مثل قرية الربعماية بإقليم الشرقية معقل الأسرة الأباطية ، ولبار

(١) مقدمة الديوان ص ٢١ .

بالغربية بلد الشرفاء ، وساجل سليم بالصعيد بلد السرى الكبير محمود سليمان باشا ، وكوم النور بالدقهلية حيث تقيم أسرة هلال المعروفة .

وكان حافظ يصيب من هذه المجالس وتلك الصلوات علماً ويرتاش منها مالا ، وكان الشعراء في ذلك العصر لا يأنفون من الجوائز المالية أثماناً لمدايحهم التي ينظمونها في الأغنياء ومحبي المظاهر ، فكان الشعراء يحيون حياة فيها رخاء وفيها متعة بسبب هذه المنح التي كانت تنال عليهم من سراة القوم^(١) .

وكان لحافظ - إلى جانب هذه المجالس الراقية المتوقرة - مجالس خاصة تنعقد في المقاهى والمشارب وأماكن اللهو وتضم صفوة من أساطين الفكاهة والتسلية والأدب ، وقلما كان يفوت حافظاً مجلس من هذه المجالس ؛ فقد كان يذهب إلى مقهى « نيوبار » بصحبة الشاعر خليل مطران حيث كان يجلس شيخ مطربى ذلك العهد « عبده الحامولى » وحوله جمع من علية القوم وعشاق فنه فيتمتعون بطيب الشراب والطعام . وكان يرتاد مقهى « مشيدى » المواجه لوزارة المالية فيأتى هناك إمام العبد ومحمد البابلى وغيرهما من الظرفاء . وكان هناك مقهى « متاتيا » المشهور وكان يؤمه ألع أدباء ذلك العهد مثل خليل مطران وولى الدين يكن وإبراهيم الدباغ وفؤاد الصاعقة وغيرهم . وفى هذا المقهى كان حافظ يعرض شعره عاينهم ولا يذيعه إلا بعد أن يرضوا عنه .

وكان حافظ يقصد مقهى « سبلند بار » حيث يلتقى هناك بمحبيه من السوريين الذين كانوا يؤثرونه ويتعصبون لشعره من أمثال الدكتور شبلى شميل وجورج طنوس وطنوس عبده وسليم سركيس والدكتور إبراهيم شلوى وغيرهم فيطارحهم ألوان الفكاهة والظرف وينشدهم أشعاره ، وكانوا كلهم يثقفون الشعر ويحسنون الحكم عليه . وكان يعرج على « بار اللواء » العتيد فيجالس فيه داود بركات رئيس تحرير الأهرام وتوفيق فرغلى وغيرهما من رجال الصحافة الشاميين .

(١) انظر كتاب « حياة حافظ إبراهيم » للأستاذ أحمد محفوظ .

وكان للشاعر النبيل خليل مطران فضل تقديم حافظ إلى السوريين الذين أحبه وأشادوا به وبفنه .

وكان حافظ يتردد على « بار دركاتوس » و « بار الكستبان الأحمر » فيجد الأديب الكبير « محمد المويلى » قد جلس إلى مائدة عليها قوارير الشراب وأقداحه ، ومعه نفر من الندمان ، فيشاركهم حافظ مجلسهم ويحتسى معهم بعض كؤوس الخمر حتى ينتشى وينتعش . وكان يخوض مع المويلى فى أحاديث الأدب والسياسة والاجتماع ، وإليه بعث حافظ بخمريته السينية التي مطلعها (١) :

أوشك الديك أن يصيح ونفسى بين همّ وبين ظن وحسد
وهى أجمل ما قاله فى الخمر ، ومنها :

يا غلام ، المدام والكاس والطا س وهى لنا مكانا بكأس
واسقنا يا غلام حتى تـرانا لا نطق الكلام إلا بهمس
خمرة قيل إنهم عصروها من خلود الملاح فى يوم عرس
مذ رآها فى العزيز مناما وهو فى السجن بين همّ ويأس
أعقبته الخلاص من بعد ضيق وحبسه السعود من بعد نحس
يا نديمى بالله قل لى لماذا هذه الحندريس تدعى برجس ؟

ولما أصدر المويلى كتابه « حديث عيسى بن هشام » بعث إليه حافظ بقصيدة يقرظه بها مطلعها (٢) :

قلم إذا ركب الأنامل أو جرى سجدت له الأقلام وهو جوارى
ويقول فيها مخاطبا المؤلف :

فاشرع يراعك يا محمد إنه نار اللثام وجنة الأحرار
وابعث لنا عيسى فهذا وقته فالناس بين مخادع وموارى

وكان حافظ إبان شبابه العارم يتردد على ملاهى ذلك العهد المتصونة منها وغير المتصونة مثل مسرح الشيخ سلامة حجازى حيث يشنف أذنيه بصوت الشيخ

(١) الديوان ٢٤١/١ .

(٢) الديوان ١٥٠/١ .

الرخيم ويشهد مسرحياته الراقية ك مسرحية روميو وجولييت ، وصلاح الدين .
ومثل مسرح سليمان القرداحي الذي كان يقدم بعض مسرحيات شكسبير
وفكتور هيجو . وكان ينقل من هذه الملاحى المتوقرة إلى أماكن اللهو العاثر
كملهى « سلطنة » ، والألدردادو القديم ، وملهى كامل الأصلى الممثل الهزلى
فى شارع كلوت بك ، وملهى سيد قشطة وبمبة كشر الشهيرة بحفلات الزار ،
وغيرها من الملاحى .

وكان حافظ يسمى سرح اللهو فى هذه الأماكن ما طاب له ذلك .
ولا شك أن حافظا قد جنى من هذه المجالس كلها فوائد جلتى زادت من
ثقافته ونمت معارفه ، وكانت مادة دسمة صاغ منها كثيراً من أفكاره .

٣

الصحف

وقد اتصل حافظ بالصحف التى كانت موجودة فى زمنه ، وتوطدت أواصر
الصداقة بينه وبين رجالها ، وكان يتردد على دورها ويقضى مع أصحابها ومحرريها
الساعات الطوال ، فيتزود بمعارف مختلفة فى السياسة والأدب والاجتماع ، هذا
إلى جانب ما كانت تملئه به هذه الصحف من ثقافات مختلفة الطعوم والألوان .
وكانت جميعها تفسح له صفحاتها وتشجعه وتدفعه نحو عالم الشهرة والالتماع ،
ولهذا نجده وثيق الصلة بها كلها . فقد عرف الأهرام أم الصحف ، وكانت
منذ نشأتها تؤيد الحركة الوطنية وتذود عن مصر وتساند الدولة العثمانية لأنها ترى
أن فى ذلك مناهضة لتدخل الأجانب فى شئون البلاد .

واتصل حافظ بصحيفة المقطم ، وكانت تظاهر الاحتلال الإنجليزى
وتناهض الحركات الوطنية ، ولهذا نرى حافظا ينشر فيها كل ما يتفق ومبادئها ؛

فقد نشر فيها رثاءه للملكة فكتوريا سنة ١٩٠١^(١) ، واستقبل فيها « السير مكماهون » عندما جاء إلى مصر معتمداً بريطانياً ومدحه ومدح دولته وأمل الخير على يديه بقصيدة مطلعها :

أى « مكماهون » قدمت بال قصيد الحميد وبالرعاية
ماذا حملت لنا عن الملك الكبير وعن « غرايه »^(٢)

وفي هذه القصيدة مدحٌ للمغتصبين يندى له جبين الوطنية خجلاً وسنشير إلى ذلك في مكان آخر . ونشر حافظ في المقطم أيضاً قصيدته التي مدح بها ملك الإنجليز إدوارد السابع في تخاذل واستكانة . وفيها نشر تهنتته لأصحابها بعيد « المقتطف » الخمسيني^(٣) سنة ١٩٢٦ ، ومرثيته للدكتور يعقوب صروف أحد أصحاب المقطم والمقتطف وقد توفي سنة ١٩٢٨^(٤) .

واتصل حافظ كذلك بالشيخ على يوسف صاحب « المؤيد » ، واشتدت صلته به ، وقد نشر حافظ في صحيفته أبياتاً يحميه بها ويهنته بالمؤيد في ثوبها الجديد سنة ١٩٠٦ يقول فيها :

أحييت ميت رجائنا بصحيفة أثنى عليها الشرق والإسلام
أضحت مصلى للهداية عندما سجدت برحب فنائها الأقلام
فعلى مؤيدك الجديد تحية وعلى مؤيدك القديم سلام^(٥)

وقد أراد صاحب المؤيد أن ينافس به شوقي فلقبه « بشاعر النيل » . ولما مات الشيخ رثاه حافظ بقصيدة طويلة مؤثرة سنة ١٩١٣ نشرها في المؤيد عدد فيها مناقبه وأشار إلى ألمعيته^(٦) . ويقول الأستاذ أحمد محفوظ : « وقد اختص حافظ

(١) الديوان ١٣٦/٢ .

(٢) الديوان ٨٢/٢ .

(٣) الديوان ١٥٤/١ .

(٤) الديوان ٢٢٨/٢ .

(٥) الديوان ١٥٠/١ .

(٦) الديوان ١٧٢/٢ .

المؤيد بقصائده في العام الهجري ومدح خلفاء آل عثمان والإشادة بمجد الأتراك ،
ثم بالتنويه بفضل صاحبها في خصوصياته ورفع شأن صحيفته « (١) » .

وكان حافظ على صلة وثيقة بمجلة المنار وصاحبها الشيخ محمد رشيد رضا
الذي كان أنخلص تلاميذ الإمام محمد عبده. وقد أنشئت هذه المجلة سنة ١٨٩٨ ،
وكانت سجلا لآراء الإمام في الدين والسياسة والمجتمع ، وإلى ذلك يشير حافظ
مخاطباً الإمام :

ثم أشرقت في « المنار » علينا بين نور الهدى ونور الصواب (٢)

وكان صاحبها صنو حافظ في التلمذة على الإمام ، ولهذا اختصها حافظ
بمدائح لأستاذهم الأكبر والتنويه بأفضاله وأياديه الغر .

وقد اتصل حافظ بالمرحومين إبراهيم المويحيى وابنه محمد صاحب « عيسى
ابن هشام » ، وكانا قد أنشأ صحيفه أدبية سياسية اسمها « مصباح الشرق » ، وكان
حافظ ينشر فيها بعض أشعاره .

وكان المرحوم جورجى زيدان صاحب « الهلال » صديقاً مخلصاً لحافظ
وقد غمره بفضلته ؛ فكان يشجعه ويقدمه ، ويسر له ارتياد مجالس العلم والأدب .
وقد رثاه حافظ لما قضى رثاء يتحلب وفاء وعرفاناً بالجميل :

وفي ذمتي لليازجى وديعة وأخرى لزيدان وقد سبقاني
فيا ليت شعري ما يقولان في الثرى إذا التقيا يوماً وقد ذكراني
أبجمل بي هذا العقوق وإنما على غير هذا العهد قد عرفاني
دعاني وفائي يوم ذاك فلم أكن ضنيناً ولكن القريض عصاني (٣)

وكان حافظ ذا علاقة وطيدة بالمرحوم سليم سرطيس صاحب مجلة « سرطيس » ،
وكانت مجلة طلية الأسلوب جميلة الإخراج أنشأها صاحبها سنة ١٩٠٥ وأصبحت

(١) حياة حافظ إبراهيم ص ٦٠ .

(٢) الديوان ٢٣/١ .

(٣) الديوان ١٨٣/٢ .

مثلاً يُحتذى لما جاء بعدها من المجلات . وكان سر كيس صحفياً أريباً كريماً يعطف على الأدباء البائسين ، وكان ذا يد مشكورة على حافظ ، ويقول عنه الأستاذ أحمد محفوظ : « وكان نصيراً لحافظ وصديقاً له ، فهو أحد الصحفيين الذين روجوا له ووضعوه مع شوقي في مكان واحد ، وكان طويل الباع في هذا ، يعرف أساليب صحفية تفضي إلى الغرض ، وكان ينشر لحافظ بعض قصائده ونوادره في " ربورتاجات " شيقة طريفة »^(١) وقد قرأت في صحيفة الأهرام الصادرة بتاريخ ٢٣ مارس سنة ١٩٠٨ أن جماعة من السوريين أقاموا حفلاً لتكريم (نابغة النثر والشعر) حافظ إبراهيم في فندق شبرد ، وكان الذي قدمه للمحتفلين (الكاتب المتفنن سليم أفندي سر كيس) وقد أطراه أعظم إطراء وخلع عليه ألقاب العبقرية والنبوغ ، وكانت قصيدة حافظ (مسك الختام) ، وقد سماها « الأمتان تتصافحان » ومطلعها :

لمصر أم لربوع الشام تنتسب هنا العلا وهناك المجد والحسب^(٢)
 وكان حافظ يعرف قدر هذا الصحفي في عالم الصحافة والأدب ويثنى عليه ويحامله في المناسبات . ومن ذلك أن سر كيس أقام حفلاً يخصص ما يُجمع منه لمعونة ممثل قعدت به الشيخوخة ، وأسرة ممثل آخر اغتالته المنية ، وقد أنشد حافظ فيه قصيدة ملأها بإطراء سر كيس ومداعبته منها :

لولا سليم لم يقل قائل	ولم يجد من جاد بالأمس
لله ما أشجعه إنه	ذو ميرة فينا وذو بأس
يقوم في مشروعه نافذا	كأنه « عنتره العبسي »
تلقاه في الجدد كما تبتغي	وتساره تلقاه في « الهلس »
سر كيس إن راقك ما قلتُه	في معرض الهزل فقل « مرسى »
أقسم بالله وآلائه	بعرشه باللوح بالكرسی

(١) حياة حافظ إبراهيم ص ٦٣ .

(٢) اقرأ القصيدة في الديوان ٢٦٨/١ بعنوان (سورية ومصر) .

بالحنس الكنّس في سبحها بالبدر في مرآه بالشمس
 بأن هذا عمل صالح قام به هذا الفتى القدسي^(١)
 وتأثر حافظ أشدّ تأثر بصحيفتي « التبكيك والتنكيك » و « الأستاذ »
 اللتين أنشأهما متعاقبتين خطيب الثورة العراقية المرحوم السيد عبدالله نديم ، وكانتا
 تنشران نكتاً ساخرة تحمل في طياتها النقد اللاذع للحكم وأساليبه الجائرة .

وقد ظهرت إبان ذلك صحيفة كانت شديدة الخطر على أعراض الناس هي
 صحيفة « حمارة منيتي » . وكان صاحبها « توفيق الحمارة » رجلاً سليط اللسان
 ينهش أعراض الناس ولا يتورع عن القول عليهم ، فكانوا يتحامونه ويسدون فاه
 بالمال . وكانت هذه الصحيفة تشتهر بالإمام محمد عبده بإيعاز من السراى وتضيف
 إليه — بالباطل — كل مثلبة . وبلغ من افتراءها أن دست عليه صورة كاذبة
 يبدو فيها الإمام ويده كأس مترعة بالخمير وهو في أوربا^(٢) ، وقد انبرى حافظ
 للدفاع عنه بقصيدة قال فيها :

إن صوروك فإنما قد صوروا	تاج الفخار ومطلع الأنوار
أو نقصوك فإنما قد نقصوا	دين النبي محمد المختار
سخرؤا من الفضل الذي أوتيته	والله يسخر منهم في النار
لا تجزعن فلست أول ماجد	كذبت عليه صحائف الفجار
وسموا بذاتك للنواظر جنة	محفوفة بمكاره الأشعار
وتقولوا عنك القبيح وهكذا	يُمنى الكريم بغارة الأشرار ^(٣)

أما صحيفة « اللواء » فقد عرف حافظ طريقه إليها سنة ١٩٠٦ حين نظم
 قصيدة في حادثة دنشواى المشثومة وأرسلها إلى الصحيفة فرحب بها الزعيم مصطفى
 كامل ونشرها في مكان بارز من صحيفته ، ففرح حافظ بهذا الظفر ، وأخذ

(١) الديوان ٢٩٦/١ .

(٢) حياة حافظ إبراهيم ص ٦٦ .

(٣) الديوان ٢٦/١ .

يقلد الزعيم عقود المديح ، فأدناه الزعيم وفتح له صدر « اللواء » ينشر فيها قصائده ، وأطلق عليه لقب « شاعر الوطنية » . ثم اشتدت الصلة بين الزعيم والشاعر ، وأخذ حافظ يشيد بوطنية الزعيم وينشط في مناصرة حزبه رغم اتصاله بخصومه السياسيين فخلع عليه مصطفى لقب « شاعر الحزب الوطنى » . وقد زادت هذه الصلة ذبوعاً صيت ونباهة ذكر حتى إنه طغى على كثير من شعراء ذلك العصر . ولما مات الزعيم فى ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ اهتز حافظ لهول الفاجعة وبكاه بشعر يتتبع النفوس ويزلزل الأفتدة . وسنشير إلى ذلك فى موضع آخر . ولا ريب فى أن الصحافة كانت منبعاً فياضاً استقى حافظ منه ألواناً مختلفة من الثقافات كانت تمدّه بكثير من الأفكار التى صاغها فى شعره .

٤

الأساتذة

اتصل حافظ بأعلام الأدب والعلم الذين اشتهروا فى عصره ، ونهل من بحار علمهم ، وكانوا له كالأساتذة يأخذ عنهم ضرورياً من العلم والمعرفة ، وكان يلتقى فى مجالسهم بالعلماء والأدباء والشعراء . ولعل من أشهر هؤلاء الأعلام السيد توفيق البكرى ، وكان حافظ يتردد على داره بحى الخرنفش ويلقى هناك نقرأ من أفاضل العلماء أمثال الشيخ الشنقيطى والشيخ محمد الحضرى والشاعر اللغوى حفى ناصف . وكان صاحب الدار وضيوفه يخوضون فى أحاديث الأدب واللغة ، وليس من شك فى أن حافظاً قد تزود من هؤلاء المشيخة بقدر طيب من ألفاظ اللغة وتراكيبها ، وساعده على ذلك حافظة لاقطة وذاكرة واعية . وكان حافظ يتردد على منزل الشاعر إسماعيل صبرى ويلقى هناك بكثير من الشعراء أمثال شوقى ومطران وأحمد نسيم ومحمد عبد المطلب وعبد الحليم المصرى

وغيرهم من شباب الشعراء وكانوا جميعهم يعتبرون إسماعيل صبرى أستاذهم ويلقبونه « بشيخ الشعراء »^(١) ويعرضون عليه أشعارهم ويستهدون بآرائه القيمة فيها ، وإلى ذلك يشير حافظ فى رثائه :

لقد كنتُ أغشاه فى داره	وناديه فيها زها وازدهر
وأعرض شعرى على مسمع	لطيف يحسّ نبوّ الوتر
على سمع باقعة حاضر	يميز القديم من المبتكر
فيفصل لفظى صقل الجمان	ويكسوه رقة أهل الحضر
يرقرق فيه عبير الجنان	فتستاف منه النّهى والفكر ^(٢)

فأنت ترى حافظا يعترف بما كان لإسماعيل صبرى من فضل فى تهذيب شعره وصقله : ويحكى مؤرخو الأدب أن شوقى كان أكثر ملازمة له من حافظ^(٣) ، ويقولون إنه قلما كان يظهر قصيدة فى مبدأ أمره إلا بعد أن يعاود أستاذه صبرى النظر فيها ويُجيز إعلانها . ويشير شوقى إلى أنه كان يجرى فى غبار أستاذه فيقول من قصيدة يرثيه بها :

أيام أُمّرح فى غبارك ناشئا	نهج المهار على غبار خصاص
أتعلم الغايات كيف ترام فى	مضمار فضل أو مجال قواف

والحق أن إسماعيل صبرى كان شاعراً رقيقاً عميق الوجدان يجيد نظم المقطوعات يعبر بها عن معان دقيقة عاطفية .

بيد أن هناك أستاذين عظيمين كان لهما أثر بليغ فى فن حافظ وفى ثقافته وفى عقله جميعاً ، وقد رأينا أن نخصصهما ببعض العناية فنسوق كلمة عن كل منهما ونبين مدى صلة حافظ به . وهما الشاعر محمود سامى البارودى والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده :

(١) شعراء الوطنية للأستاذ عبد الرحمن الرافعى ص ٣٠ .

(٢) الديوان ٢/ ٢١١ .

(٣) شاعرا العروبة ص ٤٨ .

البارودى : هو رب السيف والقلم كما يلقبونه ، تخرج في المدرسة الحربية سنة ١٨٥٥ والتحق بخدمة الجيش المصرى واشترك في بعض الوقائع الحربية فأظهر بطولة فذة وشجاعة نادرة ، مثل حرب كريد سنة ١٨٦٦ ، والحروب التى كانت بين تركيا وروسيا سنة ١٨٧٧ . وقد أبلى في هذه الوقائع بلاء حسنا ، وصقلت المعارك مواهبه الشعرية فانطلق لسانه بشعر جزل رصين يصفها ويصور أهوالها .

وقد أخذ البارودى يتوغل في مدارج الرقى حتى وصل إلى رتبة اللواء ، وعين مديراً للشرقية ، وكان محافظاً للعاصمة حين اختاره شريف باشا وزيراً للمعارف والأوقاف في وزارته الثانية سنة ١٨٧٩ في أوائل عهد الخديو توفيق .

ولما شبت الثورة العرابية كان البارودى من زعمائها النابهين ، وقد تولى رئاسة وزارة الثورة سنة ١٨٨٢ . ثم منيت الثورة بالفشل فبنى مع زملائه إلى جزيرة سيلان (سرنديب) ، وظل في منفاه نيفاً وسبعة عشر عاماً كان فيها مثالا للإباء والشهم وعلو النفس ، واحتمل آلام النفي بشجاعة وصبر وإيمان ، وله شعر يفيض بهذه المعانى السامية . ولعل خير ما يصور به نفسه ومذهبه قوله :

أنا إن عشت لست أعدم قوتا وإذا مت لست أعدم قبراً
همى هممة الملوك ونفسى نفس حر ترى المذلة كفراً^(١)

ثم عفا عنه الخديو عباس فعاد إلى أرض الوطن سنة ١٩٠٠ بعد أن فقد نور عينيه في منفاه ، وظل نفي عزلة عن الناس بعد عودته من المنفى ، لا يجتمع إلا بالصفوة المختارة من الأدباء والشعراء إلى أن لبي نداء ربه سنة ١٩٠٤ .

ولقد كان الشعراء قبل البارودى يعتبرون الشعر وقفاً على من كان ملماً بالعروض محيطاً بأطرافه واقفاً على ضروب البديع المختلفة ، وكان هؤلاء الشعراء ينظمون الشعر نظماً لأنهم قد تعلموا العروض وحذقوه ، ورأوا أن النظم أصبح حقاً واجباً على كل من تعلم العروض وألم بفنون البيان والبديع وما إليهما ،

فصاروا يطبقون ما تعلموه فيما نظموه ، ولذا كانت دواوينهم أشبه شئء بكراسات التطبيق في معاهد التعليم على حد تعبير الأستاذ عباس العقاد^(١) .

والواقع أن الثورة العرابية تعتبر حداً فاصلاً بين عهدين مختلفين للشعر . فقد نشطت بهذه الثورة الحياة القومية بعد فتورها زماناً طويلاً ، وأخذ الناس يغالبون سلطان الأجنبي ، وأدركوا قيمة العلم فأقبلوا على موارده ينهلون ويعلمون . وساعدهم على ذلك حركة المطابع التي نشطت في إخراج كتب الأدب القديم ، فكثرت المتعلمون واشتدت الصلة النفسية بينهم وبين الشعب ، وزاد اتصال الأمة بالثقافة الأوروبية ، وتغلغل في أعماق المصريين الشعور الوطني والإحساس العميق بما هم فيه من بؤس وإهمال .

ومن هنا ظهر الشعر المطبوع على عهد الثورة العرابية ونشأ جيل من الشعراء على نمط حديث ؛ فأخذ ينظم الشعر عن بواعث عاطفية ودوافع وجدانية . ونذر أن تجد واحداً منهم يُلمّ بشئء من العروض ، بل إن البارودي ، درتهم اللامعة ، كان يجهل مصطلحات النحو . ولكن كان شعرهم أصدق طبعاً وأشدّ أسراً من شعر هؤلاء العروضيين .

ويعتبر الشاعر محمود صفوت الساعاتي حلقة الاتصال بين هاتين الطائفتين من الشعر ؛ فقد كان يعمد إلى اصطناع ألوان البديع ولكن في شئء من الاعتدال والتجديد ، أو بعبارة أصح – كما يقول الأستاذ العقاد – كان يلبس أزياء هؤلاء العروضيين ثم يخرج على صفوفهم ويقف في عدوة الطريق بينهم وبين طبقة المطبوعين التي جاءت بعدهم .

وليس من شك في أن رائد هؤلاء المطبوعين وإمامهم وطليعتهم الأول وأستاذهم الأكبر هو الشاعر الفحل محمود سامي البارودي ، فقد جاء كالقدر

(١) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص ٩ .

الغالب لينقذ الشعر العربي من أن يصير رمة بالية كانت خليطاً من الصنعة والضعف والابتذال .

جاء البارودي فكان باعث النهضة الشعرية الأول في العصر الحديث لأنه ارتفع بالشعر إلى منزلة الفحول من شعراء العصر العباسي وأعاد له ديباجته القوية وفحولة عبارته ومثانة قوافيه ، وخلصه من تلك الأصفاد التي كان يرسف فيها من الزخارف اللفظية والمعنوية التي يختنق وراءها المعنى الغث والفكرة السوقية المسفة . وقد بين صديقي الأديب الدكتور شوقي ضيف فضل البارودي على الشعر في صورة بديعة فقال : « وكان البارودي قد خلع عن شعره كل العقد التي كان يحجل فيها الشعراء من قبله أمثال الدرويش والحشاش ومن حوله أمثال الساعاتي وعلى الليثي ، ونفخ فيه روحاً جديدة من الأصالة ، وأزال عنه كل ما يعوقه من أعشاب البديع ، فانفجر النبع وتدفق الشعر والفن . وكلنا نعرف أن البارودي رجع بالشعر إلى أساليبه القديمة الجزلة الرصينة ، أخرجته من حيز المعاني المحفوظة التي تُرصّ رصاً إلى فسحة واسعة من التعبير عن العواطف والعصر وحوادثه النفسية . فكان بذلك زعيم نهضة محققة في شعرنا أثناء القرن التاسع عشر » (١) .

ويتضح مما قلناه أن البارودي قد ثار على مذهب السابقين من ناحيتين : ناحية الآلة وناحية الصورة . أما من ناحية الآلة فلم يجر وراء شوارد العروض التي كانت تعتبر شرطاً في خلق الشاعر . بل إنه كان لا يعرف شيئاً من قواعد النحو ، يقول أستاذه الشيخ حسين المرصني : « محمود سامي البارودي لم يقرأ كتاباً في فن من فنون العربية ، غير أنه لما بلغ سنّ التعقل وجد في طبعه ميلاً إلى قراءة الشعر وعمله ، فكان يستمع إلى بعض من له دراية وهو يقرأ الدواوين أو يقرأ وهو بحضرته ، حتى تصور في برهة يسيرة هيئات التراكيب العربية

(١) شوقي شاعر العصر الحديث ص ٤٦ .

فصار يقرأ ولا يكاد يلحن ، ثم استقلّ بقراءة دواوين مشاهير الشعراء حتى حفظ الكثير منها دون كلفة ، واستثبت جميع معانيها ناقداً شريفها من خسيسها ، واقفاً على صوابها وخطئها ، مدركاً ما كان ينبغي وفق مقام الكلام وما لا ينبغي ، ثم جاء من صنعة الشعر اللائق بالأمراء « (١) » .

وأما من ناحية الصورة فإنه خلاص الشعر من هذه الألوان البديعية المبتذلة التي كانت تشبه أشرطة الزخرفة المتنوعة تزين بها أثواب العرائس في القرى التي لم تنل حظاً من المدنية ، فإذا بلوت خامات هذه الأثواب ألفتها من نوع ردى رخيص .

ولم يقف جهد البارودي عند حد استرجاع الديباجة الجزلة القديمة والسحو بالمعاني التي تصور النفس البشرية القوية ، فقد جدّد في كثير من أغراض شعره على غير مثال سبقه من معاصريه ، واستحدث نماذج لمن أتى بعده من الشعراء في أبواب الوصف والشعر السياسي والهجاء الاجتماعي والثناء والفخر ، وأظهر أن للشاعر رسالة سامية هي التعبير بإخلاص عن خلجات نفسه وتجاربها في وضوح وقوة . كما أنه خلاص الشعر من الوصمة التي لحقت به آماداً طويلة وهي أنه وسيلة للتكسب ، فترفع عن المديح الباطل الذي يراد به الزلّي ، وعن الهجاء الشخصي الذي يشغل النفس بالتوافه ، وقال بيته المشهور :

والشعر زين المرء ما لم يكن وسيلة للمدح أو الذم

وكان البارودي مجدّداً حتى في محاكاته للفحول القدامى ومعارضته لهم ، وإن كان يسلك أحياناً سبيلهم في فنون من الشعر لم يكن يحس بها أو يعرفها مما ليس له معنى في هذا العصر كمساءلة الدمن والبكاء على الأطلال وما إليهما من خصائص الشعر القديم . ولو لم يكن للبارودي من فضل إلا أنه ردّ إلى المعاصرين يقين القدرة على مجازاة فحول العرب الأقدمين في ميدان اللغة والأساليب وسطوة العبارة بما أتقن من معارضتهم في المذاهب ومجاراتهم في النظم — أقول

(١) الوسيلة الأدبية ٢/ ٤٧٤ .

لو لم يكن له إلا هذا الفضل لكفى .

ومن غريب الأمر أن هذا الإمام السابق لم يعطنا صورة واضحة المعالم لعصره ، ولم نر في شعره صدى للأحداث الوطنية الكبرى التي عاصرها . فمع أنه كان من زعماء الثورة العراقية وقوادها العظام لم تظفر هذه الثورة منه بقصيدة يشيد فيها بمبادئها أو يستثير حماسة الأمة ويدعوها للالتفاف حول زعمائها ، ولكنه كان يقصر مشاركته فيها على دور القائد الحربي والوزير السياسي ليس غير . أما وصف شعور الشعب أو إذكائه بحماسة القصيد فلم يكن له حظ من شعره .

ويرى الأستاذ العقاد أن البارودي وأمثاله من شعراء الطليعة كإسماعيل صبري وشوقي وحفني ناصف : « لم يعرضوا لنا في شعرهم إلا قليلا من معارض الشعور في الحياة الشعبية » ، ويعزو ذلك إلى « أنهم عاشوا في حيز الوظائف ولم يعيشوا في غمرة الأمة بين دوافع المد والجزر وعوامل الشدة والرخاء »^(١) .

ولكني أرى أن البارودي بالذات كان إبان الثورة العراقية أشبه بالمتحلل من قيود الوظيفة التي كان يفرضها ولاية الأمر آنذاك في شيء من الصرامة والاعتساف ، وبخاصة بعد أن جاهر زعماء الثورة بخروجهم عن طاعة الخديو ووصمه بالمروق من الدين والوطن وأيدهم في ذلك كثير من شيوخ الأزهر ، وانطلقت إليهم وفود الأمة من جميع الطبقات تشد أزهرهم وتبايعهم على الطاعة والتضحية بالأنفس والأموال .

وخير تفسير لهذه الظاهرة أن الثورات تعتمد دائماً في خدمة مبادئها واجتذاب الجماهير إليها على الكتاب والخطباء أكثر من اعتمادها على الشعراء . وأوضح شاهد على ذلك الثورة الفرنسية كبرى ثورات العصر الحديث ، فلم يذك نارها إلا الكتاب والخطباء من أمثال فولتير وروسو وميرابو ومنتسكيو رغم وجود الكثير من الشعراء . بل إن من كان منهم يجمع بين صناعتي الشعر والكتابة لم يستثر

(١) شعراء مصر وبيئاتهم ص ١٤ .

نفوس الجماهير في هذه الثورة الكبرى إلا بنثره .

ولما قام « أوليغر كرومول » بثورته المعروفة ضد الملك « شارل الأول » الإنجليزي لم ينظم صديقه الحميم « جون ملتون » صاحب « الفردوس المفقود The Lost paradise » فيها قصيدة واحدة . وقل مثل ذلك عن شعراء إيطاليا مثل دانتي ومانزوني وبتراش وغيرهم من الشعراء الذين شهدوا القلاقل والثورات القديمة والحديثة في البلاد الإيطالية .

وقد فطن إلى هذه الظاهرة قبلنا الأديب الكبير الأستاذ العقاد فقال : « إن الثورات لم يكن لها قط شاعر يحرضها كما يحرضها الخطباء والكتاب . وإنما توحى الثورة إلى الشاعر معاني ثورية ولا تتخذ أداة لها في تسعير نيرانها والكلام بلسانها . وهكذا كان شأن كبار الشعراء أو الشعراء النابهين الذين ظهوروا في إبان القلاقل السياسية وما يشبهها من فورات المجتمع في الأمم كافة » (١) .

فالثورات دائماً لها خطباؤها وكتابها العظام وليس لها شعراء من هذا الطراز إلا في النادر القليل . وسر ذلك — كما يقول الأستاذ العقاد — : « أن الثورة عمل اجتماعي تناسبه الخطابة لأنها وظيفة اجتماعية ، وليس الشعر كالخطابة في هذه الحصلة لأنه عمل فردي في لبابه ، ولا سيما بعد ما ارتقى إليه الشاعر من الأطوار في العصور الحديثة ، إذ ليس الشاعر اليوم بوقاً من أبواق القبيلة كما كان عند الهمج الأوائل ، يغنى لها ويرتل معها و يقوم مقام النائحة في أحزانها أو الشادية في أفراحها » (٢) .

ولقد أصاب الأديب الكبير كبد الحقيقة ؛ فللشاعر في العصر الحديث شخصية فردية لا تصعد إلى آفاق الفن القوى الصادق إلا إذا خلت إلى نفسها وعبرت عن أحاسيسها . وليس ذلك مما تهيه الثورات .

ولرب قائل يقول : فما بالناس الذين ينادون بصداهها في جوانب الثورات؟

(١) شعراء مصر ص ٩١ .

(٢) شعراء مصر ص ٩٢ .

والرد على ذلك يسير ؛ فالأناشيد أشبه ألوان الشعر بالخطابة ، إذ تحتاج إلى الجماهير لترديدها كما تحتاج إلى الموسيقى في الوقت نفسه .

وبعد ، فهذه لمحة موجزة عن البارودى إمام شعراء العصر الحديث . وقد احتذى الشعراء على طريقته وجروا في غباره من أمثال شوقى وحافظ وعبد المطلب والحارم وأحمد محرم وغيرهم . وتتميز مدرسة البارودى — كما أشرنا — بالرصانة والقوة ونصاعة الديباجة وفحولة العبارة وشدة الأسر ووضوح المعنى .

وحافظ — فى نظرى — أشد بتأثراً بالبارودى من زميله شوقى ، فقد وقف عند منهج أستاذه ولم يحاول التجديد إلا فى حدود ضيقة . أما شوقى فقد مضى فى تجديده قدماً وخرج بفنه إلى أفق أوسع وميدان أفسح .

وكان حافظ شديد الإعجاب بأستاذه . ولا ريب فى أنه لم يتجه إلى الجندية إلا رغبة فى أن يسلك مسلك أستاذه ، فأراد أن يكون له من السيف والقلم ما كان لأستاذه منهما . ولكن الزمن سخر منه ولم يحقق له إلا أحد شطرى أمنيته ، فلم يظفر بما كان يحلم به فى ميدان الفروسية والحرب ولكنه أصبح من أنبه شعراء العصر الحديث ذكراً .

وكان حافظ يذهب إلى أستاذه فى داره الفسيحة بغيطة العدة بالقرب من باب الخلق^(١) بعد أن آب من منفاه ، وهناك كان يلتقى بلفيف من شباب شعراء ذلك العهد فيتحدثون حول أستاذهم العظيم ويعرضون عليه ما أنتجته قرائحهم ، وكان الأستاذ لا يضمن عليهم بتوجيهاته الغالية ويتحفهم الحين بعد الحين بآخر ما نظمه من رائع القصيد . وقد أنشده حافظ داليته^(٢) التى يمدحه فيها ويقر له بالأستاذية والفضل ، ومطلعها :

تعمدت قتل فى الهوى وتعمداً فما أثمت عيني ولا لحظه اعتدى

(١) شعراء الوطنية ص ١٨ .

(٢) الديوان ٧/١ .

وفيه يخاطب البارودي قائلاً :

أمير القوافي إن لي مستهامة بمدح ومن لي فيك أن أبلغ المدى
أعزني لمديحك اليراع الذي به تخط وأقرضني القريض المسددا
ومر كل معنى فارسي بطاعتي وكل نفور منه أن يتوددا
وهبني من أنوار علمك لمعة على ضوئها أسرى وأقفو من اهتدى
وأربو على ذاك الفخور بقوله : (إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا)

ولما توفي البارودي رثاه حافظ بقصيدة رائعة مطلعها :

رُدُّوا علىَّ بياني بعد « محمود » إني عييتُ وأعيأ الشعر مجهودي^(١)
وستحدث عن هذه المراثية في موضعها المناسب .

وقد تأثر حافظ بأستاذه أشد تأثر من ناحية إثارة الجزالة وقوة العبارة ، ولكن هذه الظاهرة أكثر بروزاً عند البارودي منها عند حافظ ، لأن الفخر الذي كانت تتشح به نفسيته أشد فنون الشعر حاجةً إلى الإلفاظ المجلجلة الفخمة التي تملأ النفس وتهز المشاعر .

ولست أشك في أن حافظاً قد تزود أيضاً بقدر طيب من محصول أستاذه اللغوي إلى جانب تهديته بفنه ، وكان البارودي معروفاً بسعة محصوله كما يشهد بذلك شعره .

محمد عبده : هو الإمام الحكيم والمصلح الكبير وفيلسوف الإسلام العظيم . وقد حفظ القرآن الكريم في قريته « محلة نصر » من أعمال مديرية البحيرة ، ثم أشخِص إلى طنطا حيث أخذ قسطاً من العلم في الجامع الأحمدى ، وتحول بعد ذلك إلى الجامع الأزهر . وفي هذه الأثناء هبط الزعيم الإسلامى الكبير السيد جمال الدين الأفغانى أرض مصر ، فكان الشيخ محمد عبده من أوائل من استووا إلى دروسه ولازموا مجلسه وأصاحوا لدعوته ومبادئه ، وكان أشدهم حرصاً على

ملازمته والاستفادة منه . ونال درجة العالمية سنة ١٢٩٤ ، واختير مدرساً للأدب والتاريخ العربى بدار العلوم ومدرسة الألسن ، ثم وقع اختيار رياض باشا عليه لإصلاح لغة « الوقائع المصرية » ثم صار رئيس تحريرها ، وأضيف إليه أمر مراقبة الكتابة فى الصحف .

ولما شبت الثورة العرابية كان من النافخين فى ضرامها والخائضين غمارها ، فلما خبت نيرانها نُفى من مصر فرحل إلى سوريا وأقام بها حيناً من الدهر وتولى التدريس بمدارسها . وفى أثناء ذلك وضع شرحاً لنهج البلاغة ومقامات بديع الزمان . ثم انتقل إلى باريس ليلحق بأستاذه جمال الدين ، وهناك أصدر صحيفة « العروة الوثقى » داعية إلى توحيد كلمة المسلمين ورفع النير الأجنبى عنهم . ثم عُفى عنه فعاد إلى مصر وعين قاضياً فى المحاكم الأهلية ، وبعد فترة رُقّى مستشاراً فى محكمة الاستئناف العليا . وكان — رحمه الله — مدة اشتغاله بالقضاء قاضياً عظيماً تُضرب الأمثال بكفايته وقوة استنتاجه ومتانة أحكامه . ثم أُسند إليه منصب الإفتاء بالديار المصرية ، وكان أثناء عمله هذا يقرأ فى الأزهر كتباً فى البلاغة والمنطق وصدراً من تفسير كتاب الله الكريم . وكان يفسر القرآن تفسيراً طريفاً لا عهد للناس به من قبل ، يوفق فيه بين آيه الحكمة وبين موجب العقل والحكمة ، ويبين فى منطق واضح مسaire أحكامه لمقتضيات الحضارة والعمران . وقد أقبل الناس على حلقاته ينهلون من هذا النبع الصافى الذى لم يذوقوا له من قبل مثيلاً .

وكان له فضل تنظيم الأزهر وإدخال طَرف من العلوم الحديثة إليه إبان أن كان عضواً فى مجلس إدارته . وما برح فى منصب الإفتاء حتى قبض إلى رحمة الله سنة ١٩٠٥ ، فكان حزن العالم الإسلامى عليه شديداً .

وكان الإمام — رحمه الله — يمتاز بحدة الذكاء وثاقة العقل وقوة الشخصية ، كما أوفى على الغاية من اللسن وصولة الحجة .

وكان حافظ الضابط الشاب يلم بحلقة الإمام عصر كل يوم فى الأزهر

فتمتلىء نفسه إعجاباً ، لأنه يرى منه منطقاً في التفكير لا عهد له به من قبل ، فيلزم الحلقة ، ويزداد إعجابه بالشيخ ، فيدبج له قصائد المديح والإطراء ويمهرها بكلمة « فتاك » . ولما سافر حافظ إلى السودان لم تنقطع رسائله عن أستاذه يستصرخه لينقذه مما يعانيه من شظف الحياة ، ولما عاد من السودان صفر اليدين من الوظيفة لزم أستاذه ووقف نفسه على مجاهدة خصومه وعدّ نفسه شاعره وفتاه ، وظل عائشاً في كنفه وبرّه خمس سنوات قلما كان يفارق مجلسه فيها ، فأفاد منه علماً وخلقاً وإدراكاً صحيحاً لشئون الحياة . كما أفاد من مجلسه التعرف إلى عظماء مصر وكبار رجالاتها وقادة الرأي فيها أمثال مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وقاسم أمين وغيرهم من زعماء السياسة والفكر والأدب . وكانت مجالس الإمام « مطارحة » لألوان العلم والعرفان ، وعرضاً لأحوال مصر خاصة والبلاد العربية عامة وتبين عيوبها ومحاولة إصلاحها . وقد أفاد حافظ من ذلك كله ثقافة مختلفة الطعوم شهية المذاق ما كان يجدها في الكتب والدفاتر . كما عرف عن أستاذه مناهج التفكير المسدّد ومسالك الجدل القويم ، وإلى ذلك يشير حافظ بقوله :

يا أمينا على الحقيقة والإف	تاء والشرع والهدى والكتاب
أنت نعم الإمام في موطن الرأ	ي ونعم الإمام في المحراب
أنت علمتنا الرجوع إلى الح	ق ورد الأمور للأسباب
ثم أشرقت في « المنار » علينا	بين نور الهدى ونور الصواب
فقرأنا على أضيائك فيه	كلمات المهيمن الوهاب
وسكنا إلى الذي أنزل الا	ه وكنا قبله في ارتياب ^(١)

ويصف حافظ مجالس الأستاذ الإمام - رحمه الله - وما كان يدور فيها من علم وهداية ، ويشير إلى شدة قربه منه فيقول : « فلقد كنتُ ألصق الناس بالإمام ، أغشى داره وأرد أنهاره وألتقط ثماره ، فما سمعته يخوض في ذكر السياسة ،

قبحها الله ، ولكنه كان يملأ علينا المجلس سحراً من آياته ويتنقل بنا بين مناطق الأفهام ومنازل الأحلام ويسمو بأنفسنا إلى مراتب العارفين بأسرار الخلائق وحكمة الخالق . وكان ربما ساقه الحديث إلى ذكر أحوال هذا المجتمع البشرى فأفاض في شئون الاجتماع وحاج العمران ووقف بنا على أسرار الحياة . ولم يزل ذلك همه رحمه الله ؛ يُلقى في الأزهر دروس التفسير وفي داره دروس الحكمة حتى مضى لسبيله « (١) » .

وكان الأستاذ الإمام حينما عاد من منفاه سنة ١٨٨٩ قد طلق السياسة ، لأنه رآها سبب الكوارث والنكبات ، وأثر أن يكرّس وقته وجهده لخدمة الدين والمجتمع والأخلاق ، فذلك أجدى على الإسلام والمسلمين في ظروفهم آنذاك من الاشتغال بالسياسة . فإذا عرف المسلمون أمر دينهم الحق وأصلحوا مجتمعهم وأخلاقهم ووضّحت أمامهم السبيل لإزاحة نير الاحتلال عن كواهلهم واسترداد أمجادهم .

وقد رأى الإمام أن خير ما يعينه على تأدية هذه الرسالة مهادنة الإنجليز ، فإن ذلك أدعى إلى جلب الطمأنينة له ، ومن ثم يستطيع أن يسير قدماً في طريق الإصلاح الذي ينشده . ولهذا عقد بينه وبين « اللورد كرومر » معتمد بريطانيا في ذلك الوقت علاقة كانت تبلغ حد الصداقة ليكون في حصن مكين ضد نقمة الخديو عباس .

وقد أخذ الناس على الإمام تقاعسه عن الجهاد السياسى وملاينته الإنجليز ، وبخاصة وأنه كان رجلاً مسموع الكلمة خطير المكانة في دار المعتمد البريطانى . وأنا أرى أنه كان على حق في انتهاجه هذه السياسة ، لأن ذلك قد وقاه شر النفي والتشريد والتصدى ، ومكنه من أن ينصرف إلى تأدية رسالته الإصلاحية التي أشرنا إليها ، ولا سيما أنه لم يبعد العهد بينه وبين ما أصاب أستاذه جمال الدين

من العنت والاضطهاد ، وإلى ذلك يشير حافظ فيقول : « ولولا أن الإمام مادّهم حبل الود وجاذبهم فضل النصيح والإرشاد لأصابه ما أصاب حكيم الأفغان وقضى على هذه الأمة بالحرمان . فقد كان يغدو على الوكالة ويروح عنها ليدفع عنا شرّة القوم ويصلح ما تفسده أيدي الدسائس . فكم زحزح عنا حادثاً ودفع كارثاً . ولو كان حيناً يوم دار الفلك لنا بالنحوس في "دنشواي" لرأيت غير الذي رأيت من ذلك القصاص ، ولما ارتفع صوته العميد بذلك التهديد والوعيد ، ولما نزع إلى كتابة ذلك التقرير الذي جاء أبلغ ما تملى الضغينة على الموتور »^(١) . ويقول شيوخ السياسة إن محمد عبده جنب البلاد كثيراً من شرور المحتلين باتخاذ هذا المذهب (مذهب ملاينة الإنجليز) . وليس بخاف علينا ما كان عليه هؤلاء القوم في ذلك الزمان من قوة وجبروت ، وما كنا عليه نحن من ضعف وتخاذل واضمحلال .

والواقع أن صلة الإمام بالمعتمد البريطاني كانت تقوم على المهادنة لا المداهنة ولم يؤثر عنه أنه تجاوز حد المهادنة إلى وضع لا يُحمد عليه من مدح للإنجليز ، أو تحبيد لسياستهم . بل إنه كان يهاجمهم في عنف وشدة في كثير من الأحيان . وقد سافر إلى لندن حينما كان مبعداً عن الديار المصرية وهاجمهم في عقر دارهم ، وبين لهم بالمنطق السليم سوء عملهم وعدم شرعية احتلالهم^(٢) .

على أن رسالة الإمام الإصلاحية كانت تدفعه أحياناً إلى أن يحتك بالسياسة هوناً ما في حدود ما تحتاجه هذه الرسالة . وفي ذلك يقول تلميذه حافظ : « لكنه كان يحتك بها (أي السياسة) ما دعت إلى ذلك الحالة ، ويرصد حركاتها رصداً ، ويصد غاراتها صدّاً خشيّة أن تقطع على العلم سبيله ، أو أن تقف عثرة في طريق الفضيلة ، ولولا ذلك لقطعت عليه سلك أمانيه وحالت بينه وبين

(١) ليالى سطيج ص ١٢٢ .

(٢) اقرأ الفصول القيمة التي كتبها عنه في هذه الناحية الدكتور عثمان أمين في كتابه « رائد الفكر المصرى » .

ما كان يبتغيه . . . ولعله أَوْهم العميد بيقظة حزب جديد ليردّ عاديته ويفسد عليه سياسته»^(١) .

هكذا كان الإمام يمسّ السياسة مسّاً ويخوض غمارها بقدر ، حتى إذا أدرك مبتغاه انسلّ منها انسلالا وهو يشمر أذياله خشية أن تفسد عليه عمله ، لأنه — كما يقول حافظ — « كان من أشد الناس تبرما بالسياسة وأهلها ، حتى أعلن براءته من الالتصاق بها » .

والحق أن مجالس الإمام — رحمه الله — كانت مدرسة يتخرج فيها جيل من الشباب مُستنير العقل واسع الأفق متوثبُ الروح . وصدق حافظ حين سمى تلاميذ الإمام « حزب العلم والعرفان » ، وتعاليمه « سياسة التقدم والعمران » .

وكان حافظ من أقرب الناس إلى قلب أستاذه حتى إن الإمام كان يساره ببعض أموره الخاصة ، يقول حافظ : « صحبته مرة في إحدى روحاته إلى عين شمس ، وكانت لي عليه دالة ترفع عني مؤونة الاحتشام ، وكنت أتبسط معه على الحديث . فكان مما ذكر لي في هذه الليلة أنه ألقى إليه كتاب كتبه صاحبه ، وإبليس جاثم بين كتفيه ، ينذره فيه بالقتل ويتوعده بالاغتيال — ذكر ذلك كمن يذكر نبأ من الأنبياء التي يسوقها الحديث ، فلم ألمح على وجهه ما ينمّ عما وقع في نفسه من أثر ذلك الكتاب ، ثم خاض في غير ما أخذ فيه . . . »^(٢) .

وكان بعض الحساد ينفسون على حافظ قرّبه من الإمام ، ويسعون جاهدين في أن يفرقوا بين التلميذ وأستاذه ، ولكنهم ما كانوا يستطيعون أن ينالوا من هذه العلاقة الموثقة منالا ، وإلى ذلك يشير حافظ قائلا :

أيهذا الإمام أكثرت حسا	دى فباتت نفوسهم في التهاب
أبصروا موقفي فعز عليهم	منك قربى ومن علاك انتسابى
أجمعوا أمرهم عشاء وباتوا	يسمعون الورى طنين الذباب

(١) ليالى سطیح ص ١٢١ .

(٢) ليالى سطیح ص ١١٣ .

ونسوا ربهم وقالوا ضمناً
 بعدة من رحاب ذاك الجنب
 قل لجمع المنافقين ومنهم
 خص بالقول عبد أم الحباب
 إن نفس الإمام إ فوق مناهم
 ما تمنوا ولأني غير صابي
 شاب فيهم ولاؤهم حين شابوا
 وولائي في عنفوان الشباب^(١)
 وبعث حافظ ذات مرة بهذين البيتين إلى الإمام معتزاً بعلاقته ، هذه العلاقة
 التي يتيه بها على الناس ، والتي يحسدونه من أجلها :

لقد بت محسودا عليك لأني فتاك ، وهل غير المنعم يحسد
 فلا تبلغ الحساد مني شامة ففعلك محمود وأنت محمد^(٢)

ويقول الدكتور سامي الدهان إن حافظاً قد اتبع سياسة أستاذه^(٣) ، ولكن
 الواقع ينطق بغير هذا ؛ فقد تحول حافظ من سياسة المهادنة التي رسمها أستاذه
 إلى سياسة المشايعة التي كانت تبلغ حد الملق والرياء ، من إطراء للمحتلين ،
 وتهنئة للملكهم حين يستوى على العرش وغير ذلك مما سنعرض له في موضعه ،
 حتى لقد قال البعض إن حافظاً كان يسعى من وراء ذلك إلى نفع خاص .
 والواقع أن حافظاً طول حياته لم يكن ذا لون سياسي ثابت ، ولكنه كان
 يميل حيث تميل الريح منذ أن عرفت مصر الأحزاب السياسية واصطبغت بألوانها
 الحياة البرلمانية .

مهما يكن من شيء فقد كانت صحة حافظ للأستاذ الإمام خيراً وبركة ،
 وقد جنى منها حافظ أكرم ما جناه في حياته من علم وثقافة ونور وهدى ورعاية .

* * *

وأحب — قبل أن أنتهى من الحديث في مصادر ثقافة حافظ — أن أشير
 إلى مصدر آخر له أثره الكبير ، وهو تجاربه الواسعة التي اكتسبها بمخالطة
 الناس والاندماج فيهم . فقد أتاح له بؤسه أن يتصل بالناس على اختلاف

(١) الديوان ٢٣/١ .

(٢) الديوان ١٩٥/١ .

(٣) شاعر الشعب ٣٦ .

طبقاتهم ، فعرف الكثير من ميولهم وأهوائهم ، وأدرك عن كثب ما كان يختلج في نفوس الشعب من عوامل الحقد والموجدة على المستعمرين وعلى ذوى الثراء . وكان الناس يقبلون عليه لظرفه وأدبه ، وكان هو رجلاً وفيئاً ، شديد الحفاظ على المودة والصداقة ، كثير التفقد لمجالس إخوانه ، يتنقل فيها بين جدّ القول وهزله في خفة وظرف ، حتى ليخيل إلى جلسه أنه في بستان قد تعطفت جداوله وهتفت على أغصانه بلابله .

حقاً إننا حافظاً قد درس في مدرسة الحياة واستقى كثيراً منها « فكان الناس مدرسته وكتابه ومعلمه » كما يقول الأستاذ أحمد محفوظ (١) .

(١) حياة حافظ إبراهيم ص ١٩٨ .

شعر حافظ

١

معالمه ومقوماته

لقد درس شعر الرجل غير واحد ، وأطراه بعضهم إطراء لا حد له حتى لقد جعله أعظم شعراء العصر الحديث ، وغلا البعض في ذلك فاعتبره أعظم شعراء العربية على الإطلاق. وهاجمه كذلك هو وغيره من كبار الشعراء غير واحد هجوماً منكراً تشوبه شرّة الحقد والاضطغان . وقد حمل لواء هذه الحملة في أوائل هذا القرن شباب الأدباء في ذلك الحين أمثال إبراهيم المازني وعبد الرحمن شكرى رحمهما الله. وعباس العقاد أطال الله حياته . وكان المرحوم المازني عنيفاً على حافظ في غير نصفه أو هوادة . كان يراه رجلاً جنى على الشعر والأدب ، وفي ذلك يقول : « ولو كان للأدب حكومة تنتصف له من المسيء وتكافئ المحسن لكان أقل جزاء حافظ على ما ارتكب من الشعر أن يبتاع ما اشتراه الناس من كتبه ثم يحرقها بيده لأن شعره جناية على الأدب . وأنت تعلم أن من الشعر ما يكون آثماً ومنه ما هو برىء صالح ، أما الآثم فهو الذي يفسد الذوق ويعود الناس الكذب ويضلل النفوس ، وشعر حافظ من هذا النوع » (١) . وقد نشر المازني بضع مقالات في صحيفة « عكاظ » كانت كلها حملة قاسية على شعر حافظ ، ثم جمعها في كتيب صغير سماه « شعر حافظ » ولكنه لم يلق شيئاً ما من الرواج بين القراء ، وذلك لأن الحملة كانت ظالمة قائمة على التجني والبخس . والظاهر أن نابتة الأدباء في ذلك الوقت كانوا ييغون من مقارعة فحول الشعراء الشهرة والالتماع . وما أشبههم بشعراء العصر الأموي الذين كانوا يهاجمون جريراً زعيم شعراء ذلك العهد بغية ذبوع الصيت والظهور على المسرح ، وكان

(١) شعر حافظ المازني ص ١٤ .

جرير يحطمهم بضربة واحدة ، ولكنهم كانوا لا يخشون مغبة ذلك ، وحسبهم أنهم صاولوه ولوزمناً يسيراً .

والواقع أن المازني وغيره من شباب الأدباء كانوا متحاملين على عمالقة الشعر لأنهم كانوا يحسون بأنهم مطمورون وراء هؤلاء العمالقة ، وقد أفصح الدكتور محمد مندور عن ذلك في كتابه « إبراهيم المازني » فقال : « وعلى أى حال فإن نقد المازني الشاب للعمالقة من معاصريه كحافظ إبراهيم والمنفلوطي لا يخلو من تحامل شديد قد يدخل في نطاق الدفاع عن النفس الذي يتحدث عنه المازني . ونظن أن العقاد قد شاركه هذا الإحساس فجاء نقده هو الآخر بالنسبة للمعاصرين شبيهاً بنقد المازني متضامناً معه . والواقع أن المازني ورفاقه قد استشعروا الكثير من الضيق من الظلال التي كان يلقيها عليهم عمالقة العصر ، وكأنهم يحبون عنهم ضوء الشمس ووهج المجد » (١) .

على أن المازني نفسه بعد أكثر من عشرين عاماً نراه يندم على ما فرط منه ويصف حملته بأنها كانت خيالا وسفهاً فيقول : « ولقد افتتحت سيرتي في الكتابة بأن نقدتُ حافظاً رحمه الله في سلسلة مقالات كنت أعتز بها وأعتدها شيئاً ثميناً فجمعتها ونشرتها في كتاب بيع من نسخه القليل وتكدس أكثرها عندي فبعته لبقال رومي ليلف في ورقاته ما شاء من جبن وزيتون ، أو يفعل بها ما هو شر من ذلك ، وقلت وقد خلصتُ أنفاسي واستراح قلبي : هذا خير ، فما يستحق مثل هذا النقد إلا هذا المصير » (٢) .

وقد أقنعتني دراستي المتتدة لشعر حافظ بأن فطرته الشاعرة التي زكت في بيئة الإمام محمد عبده قد أصبحت إلى حدٍّ ما أسيرةً لتقاليد الصناعة واللغة . وكان حافظ إذا أفلت من ذلك الأسر جاء بالشعر الرائع ، وإذا احتجزته تلك القيود واستعصى عليه التملص منها كان شعره جافاً مبتذلاً لا يعلو فوق مستوى مقالة صحفية منظومة .

(١) إبراهيم المازني للدكتور مندور ص ٦٠ .

(٢) مجلة أبولو (يولية ١٩٣٣) ص ١٣٢٨ .

فإذا رام حافظ أن يعبر عن مشاعره في ضيق وحرارة أتى بالقول مصقولاً كثير الإيماض نقيّ المستشفّ ، وأحياناً كان يخضع لعقله الواعي ويشعر بمنزلته من الشعب فينظم الشعر متهافتاً خالياً من صادق الإحساس إرضاء للجماهير ليس غير . وهذا — في رأيي — هو السر في أن حافظاً يجمع بين المتناقضات ، فزاه الشاعر العبقرى المنيع في قصيدة ، والشاعر المتهاون المستهدف للنقد في قصيدة أخرى . وما أشبهه — في قيمة شعره — بالشاعر المخضرم النابغة الجعدي الذي كان تارة يأتي بالقول جزلاً متيناً ، وتارة يجيء به ضعيفاً متهافتاً ، وأحياناً يسلك بين ذلك سبيلاً ، حتى قال عنه الأصمعي : « عنده مطرف بآلاف وخمار بواف » (١) .

وليس من شك في أن حافظاً وأضرابه من الشعراء الذين تهافتوا على إرضاء الجماهير قد أصابوا الفن الخالص بضربة في الصميم ، في حين أن الجماهير « لا تعدو الموج الصاعد الهابط الذي لا يستقر ولا يؤمن جانبه » (٢) كما يقول المرحوم الشاعر خليل مطران . ولا يرتفع شعر — مهما كان شأنه — يكون هدفُ صاحبه تصفيقَ الجماهير ليس غير .

والواقع أن يؤس حافظ قد أتاح له أن يختلط بسواد الشعب وأن يتعرف أهواءهم ، فكان يحتجى باستحسانهم لشعره ، ولا يأتي من القول إلا بما يصادف هوى في نفوسهم ، ويقول المرحوم الأستاذ المازني : « وسيل حافظ إذا أراد أن يقول شعراً في حادثة أن يغشى مجالس الناس ويذاكرهم الحديث ليعرف ما ينبغي أن يكون رأيه رغبة فيما يتبع ذلك من طيب الثناء وجميل الذكر » (٣) . ومن أجل هذا كان حافظ يلتقي بنفسه قصائده في المحافل والمنتديات حتى يستمتع باستحسانهم وتصفيقهم . وكان يتخذ استحسان الجماهير مقياساً لجودة شعره ، ولهذا كان يتوخى الألفاظ التي يحسن وقعها في الأسماع والتي تلعب بعواطف السامعين ، ولا يأتي إلا بالمعاني التي تلتقطها أذهانهم في غير جهد .

(١) البيان والتبيين ٢/٢٦ طبعة السندوني .

(٢) أبولو ص ١٢٦٣ .

(٣) شعر حافظ ص ١٤ .

وكان حافظ يفتش عن اللفظ المناسب للموضوع ويوائم بين موسيقى الطول والقصر وبين المعاني والأغراض . وكان يعيد النظر في شعره ، ويبدل لفظة بأخرى ويقدم ويؤخر بغية توفير الجمال لفنه وكان يسمى هذه العملية « بالتذوق » ، ويمدح بعض الشعراء بأنه « ذواق » ، يريد بذلك أن له ذوقاً طيباً يعينه على الموازنة بين موسيقى اللفظ والموضوع من ناحية الفخامة والرقّة ، والشدة واللين . وكان — كما يحكى عنه أصدقاؤه — « يصنع البيت فيرده على أذنه بإنشاده اللطيف حتى يتبين موقعه من أذنه قبل أن يوقعه على آذان الناس ، ويتذوق موسيقاه بنفسه قبل أن يتذوقها الناس » (١) .

وكان حافظ يعنى أشدّ عناية بتوفير عناصر الجمال اللفظى لشعره ، وكان احتفاله بالمعنى لا يساوى شيئاً بجانب احتفاله باللفظ . ويقول عنه صديقه الشيخ عبد العزيز البشرى : « إنه ليؤمن قبل كل شيء بالصنعة والديباجة ونسج الكلام ، وما بعد هذا عنده ففضل . وهو يرى أن جلال الشعر وبهاء ليسا في التعلق بدقائق المعاني ، وأن أدق المعاني وأجلها قد تقع للدهماء في حوارهم ومنازع كلامهم . أما إشراق الديباجة ونصاعة القول وتلاحم النسج ورصانة القافية فذلك الشعر » (٢) . فالمعاني — في نظر حافظ — لقى في الطريق ، وهى مستراد مشاع لكل مرتاد . ويقول حافظ عن نفسه في حديث له مع محرر مجلة الهلال : « أما أنا فأमित المعنى إذا لم يتفق لى لفظ رائع » (٣) . وكان في أقصى ضميره يؤثر البيت الجيد اللفظ على البيت الجيد المعنى من شعر الشعراء القدامى ويردّده مترنماً في إعجاب كما يذكر أصدقاؤه ، ويقول إن الطلاوة ونصاعة الديباجة هنى كل شيء (٤) . ويقول عنه صديقه خليل مطران : « كان يتعب في قرض

(١) مقدمة الديوان ص ٤٠ .

(٢) ذكرى الشاعرين ص ١١ .

(٣) مجلة الهلال (عدد يونية ١٩٢٨) ص ٩٠٧ .

(٤) انظر « مختارات الزهور » التي أصدرها المرحوم أنطون الجميل سنة ١٩١٤ ص ٢٠ .

قريضه تعب النحات الماهر فى استخراج تمثال جميل من حجره»^(١) .
ويقول الأستاذ داود بركات : « كان حافظ كثير العناية بشعره ونثره يصقله
ثم يصقله حتى إذا ما تم صقله ووثق بأنه صار صورة صادقة لما يريد تصويره
تغنى به وردده فإذا أطرب وإذا طرب هو لتلاوته عرضته على نخبة من الأدباء
الذين يختارهم لنقده ، فلا يستكبر ولا يعاند ، بل يباحث ، فإذا هو اعتقد بأن
الصواب ما قاله ناقدده لا يعز عليه هدم ما بنى وتشيد سواء»^(٢) .

ولعل مبعث عناية حافظ بلفظه أنه كان يخاطب الجماهير ، وهذا يدفعه
إلى أن ينتقى اللفظ القوى الجذاب . ولهذا السبب نفسه قلّ الغريب فى شعره قلة
ظاهرة ، لكى تقع أفهام السامعين على معانيه فى سهولة ويسر .

وكان حافظ ذا طبيعة واضحة لا غموض فيها ولا التواء . وقد جعلت منه
هذه الطبيعة البسيطة شاعراً قليل الحظ من الحصب الذهني والعمق العقلي .
وقد نجم عن ذلك أن امتاز شعره بالوضوح وسهولة المأخذ . فهو شعر قريب
الغور يكاد يكون خالياً من المعاني الفلسفية التى تلذ العقل والفكر ، ولا يجد المرء
عناء أو مشقة فى الوصول إلى قراره .

وقد انضم إلى هذه الطبيعة البسيطة ثقافة سطحية وقلة تعمق للمسائل وعدم
اطلاع على ثقافات الأمم الأخرى فى سعة واستقصاء ، فجاء شعره ضحلاً لا عمق
فيه . ومن أجل هذا لا نجد فيه كثيراً من الأبيات الحكمية التى تجرى على
الألسن والتى تنبئ عن عمق النظر فى الحياة وفلسفتها . ومن أجل هذا أيضاً كانت
السطحية أبين خصائص شعره^(٣) كما يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات .

ويقول الأستاذ عزيز أباطة فى تقديمه لكتاب « حياة حافظ إبراهيم »
للأستاذ أحمد محفوظ : « كان شعره يقصر عن التحليق فى سماوات الخلق الواسعة
المدى كما كان يفعل شوقي مثلاً . ولكنه كان يستعيز عن ذلك بسهولة شعبية
محببة اكتسبها الشاعر من طول اندماجه فى طوائف الشعب المختلفة وتشرب روحه

(١) شاعرا العروبة ص ٥٧ .

(٢) مجلة أبولو (يولية سنة ١٩٣٣) ص ١٣٣٦ .

(٣) انظر كتاب « فى أصول الأدب » للزيات ١١٠/١ .

من تلك الأرواح الخالصة المصرية . فكان رحمه الله شاعراً مصرياً قحاً .
وأنت حين تقرأ قصيدة من قصائده التي نالت صيتاً مدوياً لا تأخذك منها
غير جزالة اللفظ وروعة العبارة ، ولو أنك حللتها لما ألفت في معانيها شيئاً يروعك
أو يستأثر بإعجابك . خذ مثلاً قصيدته « الشعب يدعو الله يا زغلول » ، هذه القصيدة
التي يقول فيها بعض الباحثين إنها من عيون الشعر العربي ، تجد فيها هذه الخصيصة
الواضحة في شعر حافظ . وحسبك أن تلقى عليها نظرة عاجلة لتبين صدق
ما نقول :

أنشد حافظ هذه القصيدة^(١) ، في الحفل الذي أقامه أعضاء البرلمان في
٢٤ يولية سنة ١٩٢٤ بكازينو سان استفانو بالإسكندرية ابتهاجاً بنجاة المغفور له
الزعيم سعد زغلول ، وتوديعاً له بمناسبة سفره إلى لندن لمفاوضة الإنجليز ، وقد
استهلها بهذه الأبيات :

الشعب يدعو الله يا زغلول	أن يستقل على يدك النيل
إن الذي اندس الأثيم لقتله	قد كان يحرسه لنا جبريل
أيموت « سعد » قبل أن نحيا به	خطب على أبناء مصر جليل
يا سعد إنك أنت أعظم عدو	ذُخرت لنا نسطو بها ونصول

والقصيدة من هذا اللون الذي يمتاز بالطلاوة ونصاعة الديباجة وجزالة العبارة
ليس غير . وليس فيها معنى عميق يروعك أو صورة جميلة تبهرك . وقد غلبت
عليه روح الفكاهة المتأصلة في نفسه ، فساق نكتة يستثير بها الأسماع كما يصنع
خطيب المحافل ، وقد اتخذ موضوع النكتة من لقب المحتفى به فقال :

النسر يطمع أن يصيد بأرضنا سزيره كيف يصيده « زغلول »

ومعاني القصيدة كلها دارجة مما يدور في خواطر السامعين وقد تتجاذبه
ألسنتهم في أحاديثهم ، ولا يرتفع على آفاق المتعلمين .

انظر إليه وهو يحذر سعداً المعروف بالفطنة والدهاء من خدع الإنجليز
وحيلهم الماكرة التي لا يجهلها أي امرئ ابتلي وطنه باستعمارهم :

لا تقرب « التاميز » واحذر ورده
الكيد ممزوج بأصنى مائه
كم وارد يا (سعد) قبلك مائه
القوم قد ملكوا عنان زمانهم
ولهم أحابيل إذا ألقوا بها
فاحذر سياستهم وكن في يقظة
إن مثلوا فدع الخيال فإنما
الشبر في عرف السياسة فرسخ
ولكل لفظ في المعاجم عندهم
تصلت سياستهم وحال صباغها
جمعوا عقاقير الدهاء وركبوا

مهما بدا لك أنه معسول
والحتل فيه مذوب مصقول
قد عاد عنه وفي الفؤاد غليل
ولهم روايات به وفصول
قنصوا النهي فأسيرهم مخبول
سعدية إن السياسة غول
عند الحقيقة يسقط التمثيل
واليوم في فلك السياسة جيل
معنى يقال بأنه معقول
ولكل كاذبة الحضاب نصول
ما ركبوه وعندك التحليل

ويمضي حافظ على هذا النحو فيأتي بالمعاني « الشعبية » القرية التي تخب
أسماع الحاضرين وتقنص نهاهم :

هذا وسامك فوق صدرك ماله
حليته بدم زكى طاهر
في كل عصر للجناة جريرة
جاروا على (الفاروق) أعدل من قضي
وعلى (علي) وهو أطهرنا فإ
من بين أوسمة الفخار مثيل
في حب مصر مصونه مبذول
ليست على مر الزمان تزول
فينا وزكى رأيه التنزيل
ويدا وسيف نينا المسلول

وهكذا نجد القصيدة كلها أشبه بالخطبة منها بالشعر . وكل قصائد حافظ ،
وبخاصة التي كان يلقيها في المناسبات من هذا الطراز الشعبي . ولذلك كانت
تقابل باستحسان الجماهير التي كان حافظ يحتفي برضاها كل الاحتفاء .

وأحب أن أقول إن الجزالة وسلاسة العبارة وسطوة الألفاظ وعذوبة الجرس
ليست بالشىء الهين في الشعر ، فهي عنصر هام وركن قوى من أركانه . وقديماً
كان أدباء العرب يعتبرون هذه الناحية كل شىء في الشعر ، والمعنى بجانبها

خسيس المقدار لأنه لا يكلف الشاعر عناء في اقتناصه ، أما اللفظ ففيه يتفاضل الشعراء وتتباين قدراتهم . ومن أوائل من نزع هذا المنزع بشر بن المعتمر والباقلاني وأبو هلال العسكري وعبد العزيز الجرجاني .

فحافظ على كل حال قد وفر لفنه عنصراً له خطره من عناصر الشعر ، ولو قد جمع إلى ذلك المعنى العميق والفكرة السامقة لكان من أعظم فحول شعراء العرب .

ومن أبرز خصائص حافظ الشاعر أنه كان كلفاً بتقليد القدماء ، وليس ذلك بالأمر الغريب ، فهو تلميذ صريح للبارودي . وقد نشأ التلميذ يقلد أستاذه في نظمه ، ثم أخذ يقلد القدماء كما كان يصنع أستاذه . وهو كأستاذه في تحصيل الثقافة ؛ كان البارودي في ثقافته لا يتجاوز أدب الأقدمين يحفظه ولا يكاد يتعمقه ، وكان حظ تلميذه من الثقافة كحظه لا يكاد يعتمد في محصله إلا على الأدب العربي القديم . وأقصد بالأدب العربي كتب الأدب الخالصة كالأغاني وديوان الحماسة والكمال والأمالى ودواوين الشعراء . وكان فهمه لهذه الكتب على قدر ما تتسع له طاقته العقلية ؛ يصيب الفهم أحياناً ويخطئه أحياناً أخرى . فنراه يزعم مثلاً في مقدمة ديوانه القديم — حين يتحدث عن أثر الشعر — أن بيتين لسديف الشاعر قد دفعا الخليفة العباسي السفاح إلى أن يفنى أمة بأسرها . والواقع أن السفاح قد نكل بالأمويين ، ولكنه لم يستطع أن يأتي عليهم . وهذا أمر يعرفه تلاميذ المدارس . وفرق بين التنكيل بأسرة وإفناء أمة بأسرها . وأحب أن أقول في غير حرج إن حافظاً كان مصاباً بتقصير في الدرس وكسل في العقل ، ولم يتجاوز في ثقافته العربية هذه الثقافة الأدبية الخالصة التي تتصل بالشعر والخطب والرسائل وبعض الأخبار . وكانت درايته بعلوم العرب وفلسفتهم ونظمهم ضئيلة جداً .

ولهذا جاء شعره متسماً بالمسحة العربية في ديباجته وفي صورته وفي طريقة أدائه . فأنت ترى حافظاً يبالغ ويسرف في المبالغة على طريقة القدماء من غير أن يمحس أو يحقق . ولعله لم يكن يحفل بمثل هذا التحقيق أو التمحيص ، لأنه

كان يؤمن بروعة اللفظ وأثرها في نفوس السامعين أو القارئین . ويبدو أنه كان يؤمن كذلك بأن الناس ما كان يعينهم التحقيق بقدر ما يعينهم الاستمتاع بجزالة اللفظ وطلاوة العبارة . وهو يرى ذلك ويقرره أمام أصحابه ، لأنه لا يحق لهم أن يكلّفوا الشعر ما يكلّفون النثر من الدقة والتحقيق العقلي . وهذه المبالغة ظاهرة في رثائه وفي مدائحه بنوع خاص .

وأعتقد أن طبيعة حافظ نفسه قد أذكت من روح هذه المبالغة التي يجري فيها على غبار الأقدمين . لأنه كان رجلاً بسيطاً في خلقه ، يسرف في الحب ويسرف في الرضا ويسرف في السخط ويسرف في الحزن ويسرف في الإخلاص . فهو يستدر الدمع المدرار على الفقيد ، ويخيل إليه أن هذه الدموع تحمل نعشه إلى قبره ، وأن أنفاس الناس تدفعه :

مشى نعشه يختال عجباً بربه ويخطر بين اللمس والقبيلات
تكاد الدموع الجاريات تُثقله وتدفعه الأنفاس مستعرات^(١)
وكم كانت الريح تتمنى أن تُسَخَّرَ لحمل نعش الفقيد بدل أن يحمله
الماجدون . والشمس ودّت لو تهبط من عليائها مؤثرة أن تساكن الفقيد في جدته
الموحش ، والضحى ود أن يُدرج الفقيد في كفن مقدود منه :

وودت الريح لو كانت مسخرة لحمل نعشك عن هام الأماجيد
والشمس لو أنها من أفقها هبطت وآثرت معك سكنى القفر والبيد
وكم تمنى الضحى لو أنهم درجوا هذا الفقيد بثوب منه مقدود^(٢)

وحافظ يرجو تراب الأرض أن يلتمس ورده من الحجرة وطعامه من النجوم :

أي هذا الثرى إلام التماذى بعد هذا أنت غرثان صادى
قد جعلت الأنام زادك في الدهر وقد آذن الورى بالنفاد
فالتمس بعده الحجرة ورّداً وتزوّد من النجوم بزاد^(٣)

(١) الديوان ١٤٤/٢ .

(٢) الديوان ١٣١/٢ .

(٣) الديوان ١٣٣/٢ .

وهو يطلب إلى جدث الزعيم مصطفى كامل أن يكبر وأن يهلل وأن يلتقى صاحبه جاثياً رهبة وإجلالا :

أيا قبرُ هذا الضيف آمال أمة فكبر وهلل والتى ضيفك جاثيا^(١)

ولعل هذه المبالغة تذكرنا بأساليب الأقدمين في الرثاء ، وبما كان فيها من صور تغلو في المبالغة إلى حد بعيد ، من مثل رثاء أبي تمام لمحمد بن حميد الطوسي ورثاء البحري للمتوكل ورثاء أبي طاهر بن بقية لوزير عز الدولة وغير ذلك . ويذكر أستاذنا الدكتور طه حسين أنه سأل حافظاً — رحمه الله — ذات مرة : كيف تتصور قبر مصطفى جاثيا ؟ فقال : دعنى من نقدك وتحليلك ، ولكن حدثنى ، أليس يحسن وقع هذا البيت في أذنك ؟ أليس يثير في نفسك الحزن ؟ أليس يصور ما لمصطفى من جلال ؟ فقال الدكتور : بلى ولكن . . . فقال حافظ ؛ دعنى من « ولكن » واكتف بمثل هذا^(٢) .

ونحن حين نقرأ المقدمة التى صدر بها ديوانه القديم نجده يحصر المثل الأعلى للشعر في محاكاة الشعراء المتقدمين من رجال العصر الأموي والعباسي ، وهو في ذلك متأثر — من غير شك — بأستاذه البارودي . وقد أشار شوقي في رثائه لحافظ إلى إعزازه القديم وإيثاره فقال :

يا حافظ الفصحى وحارس مجدها وإمام من نجلت من البلغاء
ما زلت تهتف بالقديم وفضله حتى حميت أمانة القدماء

وكان حافظ لا يحسن تقليد القدماء في بعض مناهجهم ؛ فقد رام أن يقلد عمر بن أبي ربيعة في نظم قصة غزلية فأخرجها هزيلة تتخلج في مشية عرجاء . . . كما صنع في مدحته لأستاذه البارودي التى مطلعها :

(١) الديوان ١٤٩/٢ .

(٢) حافظ وشوقي ص ١٧٣ .

نعمدتُ قتلى في الهوى وتعمداً فما أثمتُ عيني ولا لحظه اعتدى^(١)

وقد استغرقت القصة أكثر من ثلثي القصيدة . وأراد أن يحدو حذو القدماء في بدء القصيدة بالنسيب فاستطرد فيه حتى استغرق أكثر من نصف القصيدة ، كما نرى في قصيدته الميمية التي قالها عند عودة الحديو عباس من الآستانة ، وقد عرض فيها للخلاف الذي كان محتدماً في تلك الآونة بين المسلمين والأقباط سنة ١٩١١ ، ومطلعها :

كم تحت أذيال الظلام متم دامي الفؤاد وليله لا يعلم^(٢)

وتذكرنا هذه الحال بما حدثنا به ابن قتيبة من أن بعض الرجاز أتى نصر ابن سيار وإلى خراسان في عهد بني أمية فمدحه بأرجوزة انتهب معظمها في النسيب فقال نصر : والله ما أبقيت كلمة عذبة ولا معنى لطيفاً إلا وقد شغلته عن مديحي بتشبيك ، فإن أردت مديحي فاقصر في النسيب ، فأناه مرة أخرى فأنشده :

هل تعرف الدار لأم الغمر دع ذا وجبر مدحة في نصر

فقال نصر : لا هذا ولا ذاك ولكن بين الأمرين^(٣) .

ولما عاب بعض الأدباء في مستهل هذا القرن على الشعراء نظمهم في حب ليلي وسلمى ، ومساءلة الدمن ووصف الناقة ، تحركت نفس حافظ متجاوبة مع هذه الدعوة وقال قصيدته المعروفة في الشعر ومطلعها :

ضعت بين النہی وبين الخيال يا حكيم النفوس يا ابن المعالي^(٤)

وفيها يعيب على الشعراء تقليدهم للأقدمين ، ويسخر من تلك الأوضاع القديمة :
قد أذالك بين أنس وكأس وغرام بظيية أو غزال

(١) الديوان ٧/١ .

(٢) الديوان ٢٨٨/١ .

(٣) انظر مقدمة الشعر والشعراء .

(٤) الديوان ٢٣٧/١ .

ونسيب ومدحمة وهجاء ورثاء وفتنة وضلال
حملوك العناء من حبّ ليلي وسليمى ووقفه الأطلال

ويدعو في صرخة مدوية إلى تحرير الشعر من هذه القيود :

آن يا شعر أن تفك قيودا قيدتنا بها دعاة المحال
فارفعوا هذه الكماثم عنا ودعونا نشم ريح الشمال

ولكن هل جدّد حافظ ؟ الواقع أنه حاول في بعض الأحيان أن يجدّد
فكان تجديده محدود الأفق ضيق المحيط . كان القدماء مثلاً يفتتحون قصائدهم
بوصف الدمن والأطلال والراحلة لأن ذلك هو ما كان يقع تحت حسهم ،
فأراد حافظ أن يساير روح العصر وحضارته ، فافتتح بعض قصائده بما يقع
تحت ناظره من مخترعات . ومن ذلك قصيدته التي أنشدها في حفل أقامته جماعة
رعاية الأطفال بدار الأوبرا وقد استلها بوصف القطار :

صفحة البرق أومضت في الغمام أم شهاب يشق جوف الظلام
أم سليل البخار طار إلى القصد مد فأعيا سوابق الأوهام
مرّ كاللمح لم تكد تقف العيون على ظل جرمه المتراى

وقد استغرق وصف القطار أكثر من عشرين بيتاً ، ولم أجد آصرة تجمع
بين وصف القطار وملجأ رعاية الأطفال اللهم إلا أن القطار يقوم مقام الراحلة
التي كانت وسيلة السفر عند العربي القديم ، ونسى حافظ أن هذا الوضع قد
اقتضته البيئة البدوية القديمة التي كانت لا تعرف القرار^(١) .

ولكنه اعتبر عمله هذا تجديداً ، ولم لا يجدّد وهذه صيحة التجديد تصمّ
أذنيه ؟ غير أن تجديده جاء على طريقة القدماء ، مقررّاً لمنهجهم .
وكل ما صنعه أنه جدّد في الموضوعات ، أي أنه تناول الأحداث السياسية
والاجتماعية التي تفتق عنها عصره . وهذا أمر لا أرى له فيه فضلاً ، لأن الشاعر

(١) اقرأ تحليل النسيب بالتفصيل في مقدمة الشعر والشعراء لابن قتيبة .

دائماً في كل عصر يعيش في ملابسات زمنه وبيئته ، وليس من المعقول أن يخرج شاعر من إهابه وينفض عن نفسه غبار عصره ليعيش في أغوار القرون الماضية . وكان حافظ شديد العمل ، كثير التألق ، يعنت ذهنه في تقليد شعراء العرب الأقدمين . وقد جنى عليه التقليد إلى حد ما ، وأغلق في وجهه أبواب التصرف والتفنن ، وبخاصة في مستقبل حياته الأدبية . ولهذا نحس بأن الصنعة قد غلبت على الكثير من شعره وهو الذي يقول في مقدمة ديوانه القديم : خير الشعر ما جاء عن غير كد ولا تعمل وتحمى طريق التعسف والتكلف » .

فشعر حافظ في معظمه كان شعراً تقليدياً لا يعنى إلا بالتقرير التام كما يقول أدباء الفرنجة . وهو بهذا بعيد عن الشعر الرومانتيكي الذي يكون مصدره الإيحاء التام .

ومع هذا كان شعره قريباً إلى النفوس ، لأن روحه العذبة الحلوة تنساب فيه ، ولأن بساطة خلقه تطل عليك من كلماته ، ففي شعره — كما يقول الأستاذ أحمد محفوظ — « جاذبية غير واضحة ولا مفهومة ، يحسها القلب وينكرها الذوق الفني ^(١) » .

ونحن لا ننكر أن حافظاً كان شاعراً حاضراً البديهة ، سريع التأثير "Impressionist" ، ولكنه أفسد طبيعته بالصناعة بدل إطلاقها على سجيئها . وربما كان هذا عاملاً من العوامل التي جعلت إنتاجه الشعري غير غزير .

وقد ظل حافظ محافظاً على القديم ، معتصماً بحبله ، مقلداً للقدماء دون تجديد يذكر حتى آخر عمره . وكان في استطاعته أن يتناول أحاسيس النفس البشرية ، فيبرز لنا من جوانبها الكثيرة التي عاناها صوراً رائعة عميقة تمثل النفس الإنسانية أصدق تمثيل . ولكنه انزوى في ركن القدماء وترك ميدان الشعر الرحيب وقد تفاسحت أكنافه بفعل الحضارة والعلم .

* * *

وهناك مسألة أشرنا إليها إشارة خاطفة في فصل سابق ، ونحب أن نتناولها

(١) حياة حافظ إبراهيم ص ١٨٦ .

هنا بشيء من الإسهاب ، تلك هي أثر الوظيفة في نشاط حافظ الشعرى . ويقول بعض الأدباء إن وظيفة دار الكتب كانت نعمة على جيب حافظ ونقمة على فنه ، لأنه اضطر إلى المصانعة والمداواة ، وإلى أن يحسب للقول حساباً فتحطمت قيثارته ونضب معين شعره أو كاد ، وأصبح لا ينظم الشعر إلا في مناسبات ملحة . ومعنى ذلك أنهم يضيقون ساحة الشعر ويقيدون قدرة الشاعر ويحدّون من انطلاقه ، لأن الشعر متسع الآفاق يتناول جوانب الحياة كلها ، ولا يقتصر على السياسيات والوطنيات ؛ فهناك شعر الطبيعة والوصف وميدانه رحب فسيح ، وهناك الشعر الذى يترجم خلجات النفوس والمشاعر ، وهناك غير ذلك من الموضوعات التى كانت أخلق بالتناول . ولكن حافظاً قصر في هذا كله تقصيراً بادياً . وقد أشار إلى ذلك أستاذنا المرحوم أحمد أمين فقال : « إن حافظاً لم يكن يستطيع حقاً — وقد قبل المنصب في دار الكتب — أن يقول الشعر فيما كان يقول فيه قبل من اجتماعيات وسياسيات . ولكن لماذا سكت عن فنون الشعر الأخرى والمجال أمامه فسيح ؟ فليس كل شعر سياسة واجتماعاً ، فهناك شعر الطبيعة وهناك شعر القصص وهناك شعر الوصف وغيره من أنواع الشعر ، ولم تكن وظيفته تمنعه من أن يقول في كل ذلك أو في شيء من ذلك ، وفي شوقى المثل لهذا ، فقد كان مقيداً في القصر بأشد من قيود دار الكتب ، ومع هذا ظل يقول في فنون مختلفة من الشعر لا تتنافى وتقاليد القصر » (١) .

وغريب من حافظ ألا تحفزه طبيعة مصر الخلابة ولا نيلها الفياض ولا آثارها الرائعة ولا صحراؤها المنبسطة ولا شمسها الساطعة ولا نجومها المتألقة ولا مروجها الخضراء — غريب ألا يحفزه ذلك كله إلى أن ينظم فيه شعراً ، فقد تقاعس واستسلم للصنم ، وأبت شاعريته أن تحلق في هذه الآفاق الفسيحة التى تمس شغاف النفس وتتصل بأعمق أعماقها ، وبخاصة وأنه عانى ضرراً من البؤس والشقاء شطراً كبيراً من حياته ولم يكف عن الشكوى طول عمره . ويقول الأستاذ حسن الصيرفى : « وكان في استطاعة حافظ — إذا فرض أنه طلق الشعر تحت

(١) مقدمة الديوان ص ٣٦ .

ضغط قيود الوظيفة — ألا يحرم قيثارته العزف عليها في نواح أخرى ؛ كأن يرسم صوراً للشقاء الذى يلازم الحياة في مصر وهو الذى خبره ولمسه وعاش فيه زمناً ليس بالقصير وكان من الأسباب التى دفعته إلى نقل رواية البؤساء إلى العربية^(١). فحافظ في الواقع قد قصر أيما تقصير إبان عمله في دار الكتب ، وتخلف عن زميله شوقي أيما تخلف ، هذا الشاعر العظيم الذى كانت قيود القصر تغل من طاقته الفنية ، ولكن شاعريته الأصيلة حلقت في سموات الفنون الشعرية البعيدة عن السياسة فأنت بالمعجزات .

وقد نظم حافظ في أغراض الشعر التى اعتاد الناس أن ينظموا فيها من مدح ، ومداعبة للإخوان والشكوى إليهم ، وما كان يشغل بال الناس من أمور تتصل بالمجتمع ونحو ذلك . وقد قل أن تجد في شعره هذا معنى جديداً يخلب اللب ، وإنما كان يتناول معاني من سبقه من الشعراء فضلاً عن أغراضهم . ومع هذا كان يرى نفسه شاعر العصر الذى لا يدانيه شاعر آخر . وكانت ظروف الحاجة تضطره أحياناً إلى أن يقرّ بفوقان شوقي ، وهو يصرح بذلك في موطن لم يكن له أن يسلك فيه سوى هذا السبيل في قصيدة نظمها سنة ١٩٠١ :

قل للألى جعلوا للشعر جائزة فيم الخلاف ؟ ألم يرشداكم الله ؟
إني فتحت لها صدرأ تليق به إن لم تحلّوه فالرحمن حلّاه
لم أخش من أحد في الشعر يسبقنى إلا فتى ماله في السبق إلاه
ذاك الذى حكمت فينا يراعتة وأكرم الله والعباس مشواه

أما من عداه من كبار شعراء ذلك العصر فلا يبلغون شأوه في نظره . ولعل حافظاً كان يرى أن حظ مصر من الشعر في أوائل هذا القرن كان قليلاً . فالبارودى قد أدركته الشيخوخة وأخذ يدلف إلى القبر ، وإسماعيل صبرى كان يجيد في نواح خاصة كالتعبير عن المعاني الدقيقة والشعور النفسى العميق في مقطوعات صغيرة يصور بها أحاسيسه ومشاعره ، ولم يكن يحترف الشعر

(١) حافظ وشوقي لحسن الصيرفى ص ٩ .

كما كان يحترفه حافظ وشوقي ، لأن منصبه الحكومى الرفيع كان يسمو به عن ذلك .

وعبد المطلب كان شعره عربياً أعرابياً لا يساير العصر الذى يعيش فيه .
ولعل حافظاً كان يرى فى أعماق نفسه أن شوقى لم يبرزه إلا لتفسيته ظلال السراى
وكونه شاعر الأمير ليس غير ، ولولا ذلك ما فاقه ، وهو يشير إلى ذلك من
طرف خفى فى هذا البيت :

ذاك الذى حكمت فىنا يراعتة وأكرم الله والعباس مثواه

* * *

والآن أحب أن أتناول جوانب من شعر حافظ يتسع المجال فيها بلحديد من
القول ، وألقى عليها أضواء تجليها وتساعدنا على أن تكون آراءنا فيها صادقة لاشطط
فيها ولا زيغ .

الوصف والخيال

لم يبرع حافظ في فن الوصف ، وما كان له أن يبرع فيه . وأكثر شعر الوصف عنده لا يهز مشاعرك ولا يملأ جوانب نفسك ولا ينال منك ذرة من إعجاب .

فلقد عجز حافظ عن أن يقف أمام مشاهد الطبيعة وقفة التأمل الشعري والاستغراق الحسى يستكنه أسرارها ويعكس عليها مشاعره وأحاسيسه . والطبيعة ما زالت منذ القدم وحى الشاعر ، ترفع مرآتها لعينه فيجتلي في صقالها أعماق أنفسه . . . يزحف الليل فيفنى ظلام صدره في ظلامه الشامل ، وتعود الشمس إلى الطلوع فيذكر أيامه العذاب المواضى ، وتجنح إلى الأصيل وينجو ضرامها ، وتدلف نحو الطفل فيشيم مخايل الرجاء في حياة ثانية يعقد بها حبل أمانيه ويصل أسبابه بأسبابها . بل إن في قلب الطبيعة لهموماً كانت ولا تزال معيناً لا ينضب للشعر الحى . وما أجمل قول الشاعر الإنجليزي « وردز ورت Words Worth » « إن في مطلع الفجر هيباً متوهجاً قصير العمر يلهم الشعراء ، ولطالما اضطرم قلبي له حين أطلقت نفسي من عقال النوم »^(١) .

ولست أرى حافظاً من هؤلاء الشعراء الذين عناهم « وردز ورت » . فقد شغله بؤسه وشغله تندره بالناس عن أن يتأمل ما في الطبيعة من جمال وسحر ، ولذلك جاء وصفه جامداً هامداً . واقرأ له مثلاً قصيدته في وصف « الشمس » التي مطلعها :

لاح منها حاجب للناظرين فنسوا بالليل وضاح الجبين^(٢)

(١) Lyrical Ballads by Words Worth & Coleridge. P. 139.

(٢) الديوان ٢٠٧/١ .

تره يرسم خطوطاً لقصة إبراهيم الخليل عليه السلام مع الشمس التي ذكرها الله تعالى في سورة « الأنعام » بقوله : « فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون » ، وكأنه يقرر حادثة تاريخية من غير أن يستشعر صلة روحية بينه وبين الشمس :

نظر ابراهيم فيها نظرة	فأرى الشك وما ضل اليقين
قال : ذا ربي ، فلما أفلت	(قال : إني لا أحب الآفلين)
ودعا القوم إلى خالقها	وأتى القوم بسلطان مبين
رب إن الناس ضلوا وغووا	ورأوا في الشمس رأى الخاسرين
خشعت أبصارهم لما بدت	وإلى الأذقان خروا ساجدين

ثم أخذ بعد ذلك يسرد أثر الشمس في الكائنات على نحو ما يدرسه تلاميذ المدارس في علم الطبيعة :

هي أم النار والنور معا	هي أم الريح والماء المعين
هي طلع الروض نوراً وجنى	هي نشر الورد ، طيب الياسمين

وربما كان أجمل ما في القصيدة أنه ردّ على مزاعم من كانوا يعبدونها بأن (إلههم) لا يملك أن ينقذ نفسه الكسوف :

أله لم ينزّه ذاته عن كسوف ، بش زعم الجاهلين !

ولكن جمال البيت جاء من ناحية العقل والمنطق لا من ناحية العاطفة والإحساس .

وعلى كل حال فالقصيدة كما رأيت وليدة العقل الواعي ، لا الإحساس الفياض ، ولذلك جاءت خالية من الروح والحياة ، مع أنها من أشهر قصائده الوصفية .

وهاك نموذجاً آخر من شعره الوصفي ، قصيدته في وصف زلزال (مسينا) وهي قصيدة ذائعة الصيت ، ومطلعها :

نبئاني إن كنتم تعلمان ما دهي الكون أيها الفرقدان^(١)
وفيها يقول :

غليان في الأرض نفّس عنه ثوران في البحر والبركان
رب ، أين المفر والبحر والـ برّ على الكيد للورى عاملان ؟
كنت أخشى البحار والموت فيها راصد غفلة من الربان
سابع تحتنا ، مطل علينا حاتم حولنا ، مناء مداني
فإذا الأرض والبحار سواء في خلاق كلاهما غادران
ما (لمسين) صولحت في صباها ودعاها من الردى داعيان
ومحتّ تلکم المحاسن منها حين تمت آياتها آيتان
خسفت ، ثم أغرقت ، ثم بادت قضى الأمر كله في ثوانى
وأتى أمرها فأضحت كأن لم تك بالأمس زينة البلدان

والقصيدة يبدو فيها التصنع والتكلف بحيث إنك لو حذفّت عنوانها ولفظة
(مسين) التى وردت فيها وأردت أن تبين غرضها من فحوى آياتها ومعاريف
لفظها لألفيت ذلك مطلباً عسيرا ، حتى لقد حقّ لبعض الباحثين أن يسميها
— دون تجن — « جغرافية البراكين »^(٢) . ولو أنشدتك هذين البيتين :

ليتها أمهلت فتقضى حقوقاً من وداع اللسات والجسيران
لحّة يسعد الصديقان فيها باجتماع ويلتقى العاشقان

ولم أقل لك إنهما من قصيدة في زلزال (مسينا) لما جرى ببالك أنه يعنى
بلداً لأن ذلك بعيد عن المعقول ، ولسبق إلى خاطرك أنه يذكر فتاة عجّل بها
قدّر النوى . ولو قرأت هذه الأبيات على غير معرفة بما يقصد الشاعر :

لا رعى الله ساكن القمم الشـم ولا حاط ساكن القيعان

(١) الديوان ٢١٥/١ .

(٢) حافظ وشوقي للأستاذ حسن الصيرفى ص ٥١ .

قد أغارا على أكفٍ براها بارئ الكائنات للإتقان
كيف لم يرحما أناملهما الغ ر ولم يرفقا بتلك البنان

(يريد النسور والحيتان) - أقول لو قرأت هذه الأبيات عرضاً لا عتاص عليك أن تدرك أنه يصف زلزالا . فقد تقال في زلزال ، وقد تقال في حرب ، وقد تقال في شيء غير هذا .

ولولا هذه الأبيات التي يصف فيها حافظ الكارثة وصفاً ليس فيه إحساس الشاعر وعميق تأثره لما أدركت موضوع القصيدة والغرض الذي يقصده . وهذه هي الأبيات التي تتناول صميم الكارثة ولكن في غير حياة أو روح ، ولا تعدو أن تكون شيئاً أشبه بالقصص :

ربّ طفل قد ساخ في باطن الأر	ض ينادى : أمي ، أبي ، أدركاني
وفتاة هيفاء تشوى على الجم	ر تعاني من حرّه ما تعاني
وأب ذاهل ، إلى النار يمشي	مستميئاً تمتد منه اليدان
باحثاً عن بناته وبنيه	مسرع الخطو مستطير الجنان
تأكل النار منه ، لا هو ناج	من لظاها ، ولا اللظى عنه واني
غصّت الأرض ، أتخم البحر مما	طويلاه من هذه الأبدان
وشكا الحوت للنسور شكاة	ردّتها النسور للحيتان
أسرفا في الجسوم نقرأ ونهشاً	ثم باتا من كيظّة يشكوان

فأين هذا الوصف من وصف شوقي الذي ينبض بالحياة والحركة ؟ هذا الشاعر العظيم الذي رتع طرفه في مشاهد الطبيعة فتأمل سماءها وشمسها وكواكبها وبرقها ورعدها وشفقها وضحاها ، وسرح في بحرها وموجها ، وسمعت أذنه عصف رياحها ، وشمّ أنفه عرّف رياضها ، وتغلغل في صحرائها ورمالها ، وعرف لغة الطبيعة وألحانها . . .

والحق أن الطبيعة كانت مادة خصبة لصور شوقي الفنية ، استلهمها فألهمته وناجاها فاستجابت لمناجاته .

ولو شئت أن تعقد مقارنة بين قصيدة حافظ في وصف زلزال « مسينا »
وبين مثلتها عند شوقي في وصف زلزال « طوكيو » ومطلعها :
قف « بطوكيو » وخبر عن « يوكوهاما » وسل القريتين كيف القيامه (١) ؟

لألفيت شوقي يعطيك صورة رائعة عن الكارثة قد أبدعتها يد صناع ، ولأحسست
بالحركة تنبعث في جوانب الصورة طبيعية غير مفتعلة لم تأخذ طريقها بالروح
الجغرافي كما صنع حافظ . ولست أراني في حلٍّ من أن أذكر لك أبياتاً من
قصيدة شوقي أوقصائده الوصفية الأخرى لأن المقام لا يقتضي ذلك . وحسبي
أن أحيلك على ديوان « الشوقيات » لتعرف براعة أمير الشعراء في الوصف .
ومع أن شوقي أبرع شعراء العصر الحديث في الوصف نراه لا يبلغ فيه شأو
شعراء الإفرنج . فكثيراً ما نراه لا يتصل بالطبيعة بروحه وأحاسيسه ، ويصفها
وصفا مجرداً دون أن يبث شيئاً من عواطفه . وقد كنت أقرأ نونيته المشهورة « قفي
يا أخت يوشع خبرينا » فأحسست أنه لم يخلق بينه وبين الشمس صلة روحية
ولم يتصل بها بقلبه وحسه على نحو ما يفعل شعراء الإفرنج مثل « دي لامارتين »
الفرنسي و « ويلز » الإنجليزي وغيرهما ، وإنما اتصل بها بفكره وب عقله فقط .
وقد أصاب كبد الحقيقة الأديب الفاضل الأستاذ حسن الصيرفي حين
قال : « أول ما يلاحظ على فن الشاعر المادية التي لم يستطيع أن يبرأ منها ،
حتى في الأوصاف التي تنأى عن المادية ، وقل أن تصفو صورهما منها . . .
ولكن شوقي كان يتجه صوب الخيال في كثير من قصائده ، وبخاصة ما كان
متصلاً بالطبيعة . على أن اتجاهه ناحية الخيال لم يكن استغراقاً في الطبيعة ،
ولكنه كان افتتاناً حسيّاً أكثر منه افتتاناً روحياً (٢) » .

يبد أني أحب أن أقول إن شوقي له — مع ذلك — قصائد الوصف الرائعة
التي تمتلئ بالحياة المتدفقة والتي تحس فيها بالصلة الروحية منعقدة بين

(١) الشوقيات ١٠٣/٢ .

(٢) حافظ وشوقي للصيرفي ص ٦٩ .

الشاعر وبين الموصوف ، مثل قصائده في النيل وغابة بولونيا والآثار المصرية وتوت عنخ ودمشق وزحلة ووصف الطبيعة وغيرها . وكل هذه الأشعار آيات ناطقات بالقوة والتألق والاقتدار .

ولم أجد لحافظ ما راعى من قصائد الوصف إلا قصيدتين اثنتين هما قصيدته في وصف حريق ميت غمر ، وقصيدته في رحلته إلى إيطاليا . والقصيدة الأولى قالها سنة ١٩٠٢ حينما شب حريق مروع في مدينة ميت غمر في أول مايو سنة ١٩٠٢ وظل مندلع الأوار ثمانية أيام ، وقد أتت النار على معظم المدينة وهلك بسببها خلق كثير . وقد تألفت جماعة من الأعيان لتخفيف ويلات المنكوبين ، وتسابق أهل الخير لمساعدتهم ، وقامت الصحف تحضّ الناس على مدّ يد المعونة إليهم . وقد نظم حافظ قصيدته في وصف هذه الكارثة ، واستهلها بقوله :

سائلوا الليل عنهم والنهار كيف باتت نساؤهم والعذارى^(١)

وفيها يبرز لنا هذا الخطب في صورة حية تنفطر لها القلوب أسى ، ولا تفقد روعتها على مر السنين ، لأنها صورة صادقة رسمها من ذوّب نفسه وخلجات إحساسه . وقد أعانه على هذا التصوير البديع ما عاناه في صباه وفي شبابه الأول من ألوان البؤس والشقاء ، يقول في وصف الكارثة :

كيف أمسى رضيعهم فقد الأ	م وكيف اصطلى مع القوم نارا
كيف طاح العجوز تحت جدار	يتداعى وأسقف تتجارى
رب إن القضاء أنحى عليهم	فاكشف الكرب واحجب الأقدارا
ومر النار أن تكف أذاها	ومر الغيث أن يسيل انهمارا
أين طوفان صاحب الفلك يروى	هذه النار؟ فهي تشكو الأوارا
أشعلت فحمة الدياجى فباتت	تملأ الأرض والسماء شرارا
غشيتهم والنحس يجرى يميننا	ورمتهم والبؤس يجرى يسارا
فأغارت وأوجه القوم بيض	ثم غارت وقد كستهن قارا

أكلت دورهم فلما استقلتُ لم تغادر صغارهم والكبارا
أخرجتهم من الديار عُراةً حذر الموت يطلبون الفرارا
يلبسون الظلام حتى إذا ما أقبل الصبح يلبسون النهارا

فالشاعر استمد من ينابيع آلامه ما بثَّ الروح في هذه الصورة . ولذلك نراه يتفرض ثائراً على المجتمع ونظامه الجائر ، وكأنما كان يترقب مناسبة ليطلق ثورته على الفوارق الاجتماعية فيقول :

أيها الرافلون في حُلل الوث يي يجرون للذيول افتخارا
إن فوق العراء قوماً جِيعاً يتوارون ذلّةً وانكساراً

ويندد بسراة القوم الذين ييسطون أيديهم بالأموال على ملذاتهم وفي أفراحهم وهم غافلون عن مواطنهم البائسين الذين تكرّهم الخطوب ولا يجدون من يُقبل عثراتهم :

قد شهدنا بالأمس في مصر عرساً^(١) ملأ العين والفؤاد ابتهاجاً
سال فيه النضار حتى حسبنا أن ذاك الفناء يجري نضاراً

وهذه القصيدة قد برزت - في نظري - قصيدة شوقى التى قالها في وصف هذه الكارثة ومطلعها :

الله يحكم في المداين والقسرى ياميت غمر خذى القضاء كما جرى^(٢)

لأن الحال قد صادفت اتفاقاً في نفس حافظ ، فصور المكرويين أصدق تصوير . أما شوقى فلم يحس وقع البؤس من نفوس المنكوبين لأنه لم يذقه طيلة حياته ، فلم يحس في نفسه الألم الذى أحسه زميله ، ولم يستطع أن يتخى ذلك فقال :

(١) يشير حافظ إلى عرس زواج الأمير حيدر رشدى فاضل من كريمة على فهمى باشا ، وقد أقيم مهرجان عظيم بدار والد العروس مكث ثلاث ليال من ٣٠ إبريل إلى ٢ مايو سنة ١٠٩٢ ، وقد تحدثت البلاد كلها بهذا العرس في ذلك الحين .
(٢) الشوقيات : ٤٤/٢ .

ما زلت أسمع بالشقاء رواية حتى رأيتُ بك الشقاء مصوراً

ولذلك كانت ثورته في قصيدته هذه باردة كالثلج ، لأنها لم تكن صادرة من أعماق نفس تحسّ شقاء البائسين وآلام المرزوثين . وقد أشار إلى ذلك العالم الأديب الأستاذ إسماعيل مظهر فقال : « فحيث تشتد ثورة نفسه (أى شوقى) تسمو معانيه وتقوى شاعريته ، فإذا خبت نارها هبطت المعانى والشاعرية معاً إلى منزلة لم ينزل إليها الكثيرون من شعراء هذا العصر^(١) » . ولهذا نراه يعرج على الحكم فيوصى بالصبر على المصيبة ، ويذكر أن كثيراً من المدن في عصور التاريخ قد أصابه الدمار والتخريب . وهذا من عمل العقل الخالص لا من عمل العاطفة التى لم تتجاوب مع هذه الرزية الجسيمة .

وقصيدة شوقى — فيما أرى — تفضلُ قصيدة حافظ في جمال السبك وحسن الصياغة وبراعة النظم ، ولكنها تتخلف عنها في روعة التصوير وصدق الإحساس . أما قصيدة حافظ التى يصف فيها رحلته إلى إيطاليا فهى الأخرى زاخرة بالحياة رائعة التصوير ، وفيها يتجلى أثر هذه الرحلة في نفس حافظ مما يدل على أنه كان في مكتبته أن يأتى بالوصف الرائع لو أتيح له ما أتيح لشوقى من مشاهد متنوعة اخترنها خياله في رحلاته الكثيرة . وقد استهلها بقوله :

عاصف يرمى وبحر يُغير أنا بالله منهما مستجير^(٢)

ولعل من أخص ما يمتاز به هذه القصيدة مواءمة الألفاظ للمعاني مواءمة تدل على براعة في التصوير ودقة في التعبير . انظر إليه وهو يصف ثورة البحر واصطخاب الأمواج وزجرجة الرياح العاتية :

وكأن الأمواج ، وهى تسالى محنقات ، أشجانُ نفسى تثور
أزبدت ثم جرجرت ثم ثارت ثم فارت كما تفور القدور

(١) انظر كتاب « تاريخ الفكر العربى » لإسماعيل مظهر (أحمد شوقى ودلالة شعره

على نفسيته) ص ١٤٨ .

(٢) الديوان ٢٢٧/١ .

ثم أوفت مثل الجبال على الفلا لك وللفلك عزمة لا تخور
ويصف السفينة وهي تتأرجح على أديم الدأماء وكأنها ريشة في مهب الرياح
فيقول :

تترامى بجؤجؤ لا يسالى أمياه تحوطه أم صخور ؟
أزعج البحر جانبيها من الله فجنب يعلو وجنب يغور
وهو آناً ينحط من علو كالسي ل وأنا يحوطها منه سور
وهي تزور كالحواد إذا ما ساقه للطعان ندب جصور

ثم يصور جزع المسافرين وهلعهم وقد فغر الحمام فاه يريد أن يطويهم في
جوفه :

وعليها نفوسنا خائرات جازعات كادت شعاعاً تطير
في ثنايا الأمواج والزبد المذ دوف لاحت أكفاننا والقبور
مرّ يوم وبعض يوم علينا والمنايا إلى النفوس تشير

وتمتد إليهم يد الله فيهدأ البحر وتصبح الريح رخاء ، فيسكن جأشهم ويفرخ
روعهم وتجده الطمأنينة سبيلها إلى قلوبهم :

ثم طافت عناية الله بالفلا لك فزالت عن ثقل الشرور
ملكك دفقة النجاة يسد الا ه فسبحان من إليه المصير
أمر البحر فاستكان وأمسى منه ذاك العباب وهو حصير

ثم يتخيل حافظ البحر رجلاً عاتياً تياهاً بجبروته وحوله ، فيخاطبه مبيناً له
أنه ضئيل جداً بجانب حول الله في ملكوته :

أيها البحر لا يغرنك حول واتساع وأنت خلق كبير
إنما أنت ذرة قد حوتها ذرة في فضاء ربّي تسرور
إنما أنت قطرة في إناء ليس يدري مداه إلا القدير

وبعد ذلك يأخذ الشاعر في وصف مشاهد إيطاليا وما فيها من آثار وفنون
تدل على أمجاد تليدة :

فيك يا مهبط الجمال فنون ليس فيها عن الكمال قصور
ودُميَّ جمعَ المحاسن فيها صَنَعُ الكف عبقرىَّ شهير
قد أقيمت من الجماد ولكن من معاني الحياة فيها سطور

ثم يقارن بين إيطاليا ومصر من حيث جوهما وشمسهما وناسهما وأسباب الحياة
فيهما ، ويرثي لإيطاليا - هذه البلاد الحميلة - تعرّضها للبراكين التي تثور ضدهم
الحين بعد الحين .

والقصيدة طويلة ورائعة ملأها حافظ بالحياة والحركة ، واختار لها الألفاظ
المناسبة ليوفر لصوره جميع العناصر التي تجعلها حية معبرة . ولعل السبب في
جودة هذه القصيدة أن حافظاً قد راعه ما شاهده في أول رحلة له إلى أوروبا ،
ولعلها كانت الأولى والأخيرة .

هاتان القصيدتان هما - في نظري - خير ما نظم حافظ في الوصف .
أما سائر شعره الوصفي فهو - على قلته - غير جيد خال من الحياة والجمال .
ولم يكن حافظ ذا خيال خصب قادر على الخلق والابتكار ، وقلما تجد له
صورة تروّعك وتستوقفك . وقد أراد أن يستعين بأحد المخترعات الحديثة في خلق
صورة بيانية فجاءت باهتة غير حية . . . اقرأ له قوله في حبه للإمام :

كأن فؤادي إبرة قد تمغطست بحبك أنى حرّفتُ عنك تعطف

تجد صورة هزيلة يبدو فيها أثر الافتعال والتعمل . وأراد أن يتخيل قصة
غزلية في قصيدته الدالية التي يمدح بها البارودي^(١) على نحو ما صنع عمر بن
أبي ربيعة في رائيته المشهورة فجاءت القصة ممسوخة مهلهلة كما أشرنا .
وأراد كذلك أن يضع قصة تمثيلية^(٢) يصف فيها ضرب الأسطول الطلياني

(١) الديوان ٧/١ .

(٢) الديوان ٦٩/٢ .

لمدينة بيروت فلم يستطع أن يرسم الجو المناسب لها ، وجاءت التمثيلية ضعيفة
ركيكة ، وسنشير إليها بشيء من التفصيل في موضع آخر .
وإذا أراد أن يُجيدَ معنى يحسبه ذا قيمة أخرج لنا صورة مضطربة غير
واضحة . ومن أمثلة ذلك قوله يعرض بحزب تركيا الفتاة الذي شرّد أفرادَه السلطانُ
عبد الحميد :

تقاذفهم أيدي الليالي كأنهم بها مثل للناس في القوم يُضرب (١)

فهو يشبههم في تشردهم في البلاد بالأمثال السائرة بين الناس من لسان
إلى لسان . وهذا التشبيه — كما ترى — لا جمال فيه ، وكان الأخلق به أن يجعل
سوء مغبتهم — وقد أصبحت مضغة في الأفواه — كالمثل الذي يجري على كل
لسان .

وكان ذوق حافظ وخياله لا يخلوان أحياناً من بعض الفساد والسقم ، ومن
ذلك قوله عن مدينة (مكدن) الصينية التي حدثت فيها الموقعة الفاصلة في الحرب
الروسية اليابانية سنة ١٩٠٥ وقد تخضبت أرضها بدماء الضحايا :

وأصبحت (مكدن) ياقوتة يغار منها الدر والجوهر (٢)

فهذا ذوق فاسد ونفس خشنة رأت في منظر الدماء ما يغار منه الدر والجوهر .
واقراً له هذا التشبيه الذي يُغنى النفس ، من رثائه للبارودي :

وأصبح الشعر والأسماع تنبذه كأنه دسم في جوف ممعود (٣)

أظن نفسك تتقزز اشمئزازاً عندما تسمع هذا البيت .
وقد زين له خياله السقيم أن يقذف بالقطار من فوق الجسر ليحض الناس
على بذل المال لجمعية رعاية الأطفال (٤) .

(١) الديوان ١٥/١ .

(٢) الديوان ١٠/٢ .

(٣) الديوان ١٣٩/٢ .

(٤) اقرأ القصيدة في الديوان ٢٨٣/١ .

وعلى أية حال فقد قصر خياله عن أن يخلق عالياً في السماء فيزجى إلى الفن صوراً رائعة . ونحن لا ننكر أن له صوراً جميلة ولكنها قليلة في شعره . وما أصدق ما يقوله عنه صديقه الوفي الأستاذ أحمد محفوظ : « كان حافظ قريب الغور ، لا يضرب في سموات الخيال بسهم بعيد الرمية ، ولا يخلق إلا بأجنحة متكسرة^(١) » . وما أشك في أن إحساس حافظ بقصور خياله كان من الأمور التي دفعته إلى أن يعتمد في تعبيره على متانة الأسلوب وجودة العبارة أكثر من اعتماده على الابتداع أو الخيال .

ويرجع نضوب خيال حافظ وضحاياه إلى أمور ثلاثة :

الأول : أن ثقافته الغربية كانت ضئيلة تافهة ، ولو قد اتصل بها اتصالاً قوياً لنضح ذلك على شعره ، ولرأينا له الخيال المجنح الذي يأتي بالرائع من الصور .

الثاني : أنه لم يعيش في أحضان النعمة كما عاش شوقي ، فلم يقع ناظره على رائع المشاهد وفاخر الرياش ونفيس الآنية . ولا شك أن هذه الحياة المترفة كان لها أثرها البين في خيال شوقي واتجاهاته الفنية .

الثالث : أنه كان قليل الأسفار والرحلات ، فلا نعرف عنه أنه بارح الديار المصرية إلا قليلاً ، ولم يجاوز في رحلاته الشرق العربي ، اللهم إلا رحلة واحدة يتيمة سافر فيها إلى أوروبا سنة ١٩٢٣ وزار إيطاليا وفرنسا . وقد كانت قلة رحلاته سبباً في ضيق خياله ، لأنه لم يشهد مناظر كثيرة متباينة ولم ير بيئات مختلفة للطبيعة والناس .

(١) حياة حافظ إبراهيم ص ١٨٥ .

المدح

إن فن المديح من الفنون الشعرية التي لا يخلو منها عصر من عصور الأدب وهو فن له قيمته وله خطره ، ويعتبره بعض الأدباء من أفضل المقاييس لقياس حال الأمة والشاعر والأدب في وقت واحد . ويقول الأستاذ عباس العقاد : « فلا ضير على أعظم الشعراء أن يصوغ القصيد في مدح عظيم يعجب به ويؤمن بمناقبه . ولا ضير على الأدب أن يشتمل على باب المديح بين أبوابه الكثيرة التي يعرفها الغربيون والشرقيون^(١) » . وكل ما هنالك أن يكون الشاعر مؤمناً بعظمة ممدوحه فيسوق إليه نصيد المديح ، غير مغلوب على أمره وغير مدفوع إلى ذلك رهبةً أو طمعاً في عاجل جزاء . وهذا النوع من المديح — في نظري — تمجيدٌ للعبقرية والعظمة ، واعترافٌ بما هؤلاء العظماء من فضل على أوطانهم وعلى الإنسانية جمعاء .

وقد أكثر حافظ من المدح ، وكان مدحه موجهاً إلى الخديو وإلى العظماء والكبراء في مصر وفي غير مصر .

وحافظ في مديحه سائر على سنن القدماء ، فلم يكن — في الغالب — مجدداً ولا مبتكراً ، بل كان مديحه كالثوب الذي يصح أن يخلعه على كل ممدوح . فممدوحه فخر البلاد والإنسانية ، وهو وضاح الجبين ، مشرق الطلعة ، وهو متدفق البيان . سباق إلى العلا ، محسد من الناس . ثم هو كالليث يحلّ عرينه إذا آب من سفر . ويكاد مدحه كله يدور حول هذه المعاني ولا يبعد عنها كثيراً . وحسبي أن أسوق مثلاً واحداً :

أنشد حافظ بين يدي المغفور له سعد زغلول قصيدة على أثر قدومه من

(١) شعراء مصر ص ١٩ .

بلدته « مسجد وصيف » إلى القاهرة على الباخرة « دندرة » سنة ١٩٢٦ استهلها بقوله :

ما بال « دندرة » تميمس نهاديا ميس العروس مشت على إستبرق^(١)

وفيها يقول :

أعلها والتيه يثنى عطفها
إنى أرى نوراً يفيض وطلعة
هذا زعيم النيل حلّ عرينه
كم أزمة مرت بنا فاجتاحها
حملت ركاب زعيم قلب المشرق
قد زانها وضحّ الجبين المشرق
بعد الغياب فيا وفود تدفق
(سعد) بسيل بيانه المتدفق

وكان حافظ موقفاً إلى حدّ ما في مدحه الذى ينظمه فى المناسبات كالتهنئة بالعيد ، أو بالأوبة من سفر ، أو بالترقية إلى منصب ، أو بالإبلال من مرض ، وبخاصة إذا كانت تربطه بالممدوح وشائج من الحب الصادق وأواصر من التقدير والإكبار كمدائحه فى الأستاذ الإمام محمد عبده وسامى البارودى . واقرأ قوله فى تهنئة الإمام بمنصب الإفتاء :

رأيتك والأبصار حولك خُشّع
ونخفّضت من حزنى على مجد أمة
طلعت بها باليمن من خير مطلع
وجردت للفتيا حسام عزيمة
فقلت (أبو حفص) بيرديك أم (على)
تداركتها والخطب للخطب يعتلى
وكنّت لها فى الفوز قيد ح (ابن مقبل)
بجدّيه آيات الكتاب المنزل
وأثبت ما أثبت غير مضلل^(٢)
محوّت به فى الدين كل ضلالة

وقوله يمدحه، ويصف حضرته :

إنى لأبصر فى أثناء بُردته
نوراً به تهتدى للحق ضلال

(١) الديوان ١١٨/١ .

(٢) الديوان ٤/١ ، وابن مقبل رجل من جاهلية العرب فاز قدحه سبعين مرة متوالية ، ويضرب به المثل فى حسن الأثر والفوز .

حالتُ داراً بها تُتلى مناقبه بياها ازدحمت للناس آمال
لى كل حوْلٍ لبيت الجاه منتجع كما تُشدّ لبيت الله أرحال^(١)

وقوله يهتته بعودته من سياحته فى بلاد الجزائر :

بكراً صاحبيّ يوم الإياب وقفنا بى (بعين شمس) قفا بى
إننى والذى يرى ما بنفسى لمشوق لظلّ تلك الرحاب
يا أميناً على الحقيقة والإف تاء والشرع والهدى والكتاب
أنت نعم الإمام فى موطن الرأ ى ونعم الإمام فى المحراب^(٢)

واقراً قوله فى مدح البارودى :

سلبت بحار الأرض در كنوزها فأمست بحار الشعر للدر موردا
وصيرت منثور الكواكب فى الدجى نظيماً بأسلاك المعانى منضدا
وجئت بأبيات من الشعر فُصِّلَت إذا ما تلوها ألقى الناس سجدا
إذا ذكروا منه النسب رأيتنا وداعى الهوى منا أقام وأقعدا
وإن ذكروا منه الحماس حسبتنا نرى الصارم المنضوب خدّاً موردا
ولو أنى نافرت دهرى وأهله بفخرك ما أبقيت فى الناس سيدياً^(٣)

فهذه المدائح وأمثالها فيها جودة وفيها لباقة وفيها صدق ، وذلك لأنها صادرة
عن نفس صادقة تحس ما تقول وتعيه . وتستطيع أنت أن تترك من المدحة حدود
ممدوحه ومعالمه إلى حد ما .

يبد أن لحافظ مدائح أخرى لم تكن وليدة الفهم الدقيق والدرس الواعى
للممدوح ، ولم يدفع الشاعر إلى نظمها حباً غامراً أو إعجاب صادق . ولذلك
نراه يستعير فى الغالب بعض المعانى القديمة ويرصّها رصّاً من غير أن تستبين منها
ناحية الفوقان فى الممدوح . وسر ذلك — فيما أرى — أنه كان قليل الميل إلى

(١) الديوان ٦/١ .

(٢) الديوان ٢٣/١ .

(٣) الديوان ٧/١ .

القراءة ، ويذكر المرحوم الدكتور أحمد أمين - كما أشرنا - أن بعض أصدقاء حافظ حكى روايةً عنه أنه لم يقرأ كتاب « تحرير المرأة » لقاسم أمين وإن كان قال فيه شعراً^(١) .

ولما ترجم الأستاذ الجليل أحمد لطفى السيد كتاب الأخلاق لأرسطو استقبله الشعراء في ذلك العهد بالتقدير والإطراء ، ومن بينهم شاعرنا حافظ إبراهيم . وقد زعم حافظ في قصيدته أنه قرأ الكتاب فقال :

يا كاسى الأخلاق فى بلد عن الأخلاق عارى
إنى قرأت كتابه بين الحشوع والاعتبار
فلذا المؤلف ماثل جنب المترجم فى إطار
وعليهما نور فىض من المهابة والوقار^(٢)

ويجزم أستاذنا الدكتور طه حسين بأن حافظاً لم يقرأ الكتاب ولم يتجاوز مقدمة الأستاذ لطفى السيد^(٣) . والظاهر أن حافظاً قد فُتن بكلمة الأخلاق ونخيل إليه - كما يفهم من قصيدته - أن أرسطو قد قصد إلى إصلاح الأخلاق يوم ألفه ، وأن المترجم كان يبغي تقويم أخلاق بنى قومه يوم ترجمه . ولو قد قرأ الكتاب لأدرك أن المؤلف والمترجم أرادا خدمة الفلسفة قبل أن يفكرا فى الوعظ والإرشاد . ولم يكن كتاب أرسطو فى الأخلاق صالحاً لأن يكون مرجعاً للوعاظ والمرشدين يوماً ما ، وإنما هو مرجع قيم للدراسة علم الأخلاق يُدرس لطلاب الجامعات .

وقد زلَّ حافظ زلة أخرى فى هذه القصيدة ، إذ ظن أن كتاب « السياسة » لأرسطو يعيننا على حل المسألة المصرية مع الإنجليز ، ولهذا أثره على كتاب « الكون والفساد » الذى كان يترجمه الأستاذ لطفى السيد وقتئذ ، وطلب إلى المترجم أن يعجل بترجمته قبل (الكون والفساد) فقال :

(١) مقدمة الديوان ص ٣٣ .

(٢) الديوان ١١٤/١ .

(٣) حافظ وشوق لطفه حسين ص ١٢٨ .

إننا إلى (كتب السيا سة) يا حكيم على أوار
عَجَّلَ بها قبل (الفسا د) وقبل عادية البوار
إننا تناضل أمة أقطابها أسدٌ ضواری
أمست سياستهم كطِلَّة م يحير كل قاری

ولكن كتاب (السياسة) هذا لا يجدى فى معالجة السياسة الإنجليزية ،
ولا يقدم ولا يؤخر فى حل المسألة المصرية .

وأنت حين تقرأ قصيدته التى نظمها فى ذكرى شكسبير لا تستطيع أن
تعرف منها شكسبير ولا فلسفته العميقة ولا وصفه لحوالغ النفس البشرية وأحاسيسها ،
وكل ما تدركه منها أن حافظاً يمدح شاعراً عظيماً خليقاً بالمدح ليس غير . وليس
فى القصيدة بيت واحد يفضى إلى معرفة بشكسبير أكثر مما تدلّ عليه الإعلانات
على واجهات دور الخيالة والمسارح .

يقول حافظ فى مطلع القصيدة :

يحبيك من أرض الكنانة شاعر شغوف بقول العبقرين مغرم
ويطريه فى يوم ذكراك أن مشت إليك ملوك القول 'عرب وأعجم
نظرت بعين الغيب فى كل أمة وفى كل عصر ثم أنشأت تحكم
فلم تخطئ المرمى ولا غرو أن دنت لك الغاية القصوى فإنك ملهم^(١)

ثم يصف شعره مشيراً إلى بعض مسرحياته فيقول :

له قلم ماضى الشبابة كأنما أقام بشقيه القضاء المحم
طهورٌ إذا ما دُنِّست كف كاتب و'دوبٌ إذا ما قرّ فى الطرس مرقم
ولوعٌ بتصوير الطباع فلم يجز بعسائفة إلا حسبناه يرسم
أرأنى فى (ماكبيث) للحقد صورة تكاد بها أحشاؤه تتضم
ومثل فى (شيلوك) للبخل سحنة عليها غبارُ الهون والوجه أقم

وأقعدنى عن وصف (همليت) حسنهما وفى مثلها تعيا اليراعة والفم
دع السحر فى (روميو) و(جوليت) إنما يحسّ بما فيها الأديب المتيم
أتاهم بشعر عبقرى كأنه سطور من الإنجيل تُتلى وتكرّم
ندىً على الأيام يزداد نضرةً ويزداد فيها جدّة وهو يقدم

فأنت ترى فى هذا الشعر أنه لم يقرأ شكسبير قراءة دقيقة واعية ، ولم يفعل
مع شكسبير انفعال الشاعر الذى تهتاج خواجه حين سيتبطن أحاسيس شكسبير ،
هذا الفنان العظيم الذى خلق مئات من شخوص الرجال والنساء ومئات من
مفراواقف الأد والجماعات . فحافظ قد عجز عن أن يستكنه مواطن العظمة
فى شاعر الإنسانية الأكبر . وهذا الذى قال حافظ عن شكسبير يستطيع أن
يقوله إنسان كسائر الناس قرأ إعلانات المسارح عن تلك الروايات .
أما مدائح الخديو والملك فؤاد وسائر الكبراء ، فلا يتجاوز فيها المعانى
المألوفة التى أشرنا إليها .

الثناء

لعل فن الرثاء أهم فنون شعر حافظ ، بل إنه الفن الذى بز فيه شعراء عصره وشآهم . وأنت تحسّ فى رثاء حافظ بصدق العاطفة ووفرة الإحساس ، لأنه كان وفيّاً غاية الوفاء . فإذا فقد صديقاً جزعت نفسه أشدّ جزع ، وانطلق لسانه يعبر عن ذلك فى ألفاظ كأنها نسيج ثوب من الحزن لُفّت به نفسه . وترجع براعة حافظ فى الرثاء إلى أمرين :

الأول : أنه كان قوى الحس ، ذا نفس راضية لا تستبقي من صلاتها بالناس إلا الخير ولا تحتفظ إلا بالمعروف ، ولا ترى للإحسان والبر جزاء يعدل الإشادة به والثناء عليه .

الثانى : أنه كان منطوياً على شيء غير قليل من الحزن والأسى بسبب ما عاناه فى حياته من بؤس ومتربة .

وليس من شك فى أن يتمّ حافظ المبكر قد طبعه بطابع الحزن ، وحاربه الأيام فى فجر حياته ففاضت نفسه بطوفان من الحزن والكدر . وكان إذا خلا إلى نفسه أو إلى صديق له شكاً إليه بثته وخفايا نفسه .

وقد أصبح الحزن قطعة من نفسه حتى إنه كان لا يستجيب لنداء القريض إلا إذا كان محزوناً . ويحكى عنه بعض أصدقائه أنه كان يقول : « لا يطيب لى نظم الشعر إلا إذا كنت حزينا^(١) » . ويقول الأستاذ أحمد أمين : « خير شعر حافظ ما اتصل بعاطفته الحزينة ، فأما فرح بالطبيعة وفرح بنفسه ونحو ذلك

(١) ذكرى الشاعرين ص ٦٤ .

مما ينبعث عن عاطفة السرور فلم يكن له كبير مجال في شعره^(١) .
 وكان حافظ سريع التأثر ، شديد الانفعال . وقد تركت في نفسه حياته
 الأولى ندوبَ حزن عميق لا تلبث أن تنخر إذا تخطف الموت واحداً من أصدقائه
 أو من العظماء الذين يحلمهم . ولعل حافظاً كان يحس في قرارة نفسه أن أصحابه
 قد أخلصوا له الود غير طامعين في جاه أو نسب ، لأنه كان رجلاً فقيراً لا حول
 له ولا طول ، فهم أحبه لأنه خالق بحبهم وتقديرهم . فإذا فقد واحداً من هؤلاء
 فإنما يفقد قلباً يزخر له بالحب والتقدير .

هذا إلى أن حافظاً — رحمه الله — كان شديد الخوف من الموت وبخاصة
 حينما تقدمت به السن ، فكان يتوهم المرض ويعتقد أن الموت قريب منه ، فإذا
 قضى له حبيب أو صديق ارتاع لذلك وأيقن أنه نذيرُ بقرب منيته . . . يقول في
 ذكرى الإمام محمد عبده سنة ١٩٢٢ من قصيدة ضمنها رثاءه للمرحوم حفي
 ناصف :

آذنت شمس حياتي بمغيب	ودنا المهل يا نفس فطبي
قد مضى (حفي) وهذا يومنا	يتداني فاستشي وأنسي
اذكري الموت لدى النوم ولا	تغفل ذكرته عند الهبوب
راعني فقد شباني وأنا	لا أراع اليوم من فقد مشبي
حن جنباي إلى برد الثرى	حيث أنسي من عدو وحبيب
قد وقفنا ستة نبكى على	عالم المشرق في يوم عصيب
وقف الخمسة قبلي ففضوا	هكذا قبلي وإني عن قريب
وردوا الحوض تباعاً ففضوا	باتفاق في منايهم عجيب
أنا مذ بانوا وولتي عهدهم	حاضر اللوعة موصول النحيب ^(٢)

ومن أجل هذا كانت الكوارث تقع من نفس حافظ أشد وقع وتثير فيها
 أحاسيس لذاعة من الألم الممض واللوعة المريرة . وكان لسانه ينطلق بالشعر في

(١) مقدمة الديوان ص ٣٩ .

(٢) الديوان ٢٠٣/٢ .

تصوير هذه العواطف فيبلغ من ذلك ما يريد ، ويشير في نفوس الناس كثيراً من الجزع والحزن .

ونحن نستشف من رثاء حافظ أنه كان يجد الرثاء دِيناً في عنقه نحو أحبابه الذاهبين وحقاً واجباً لهم ، فهو يعدّ رثاءه وفاءً لهؤلاء الراحلين ويعتذر إذا لم يبلغ فيه ما يريد ويستنجد بدموعه إذا لم يسعفه القريض . ولهذا كان رثاؤه من النوع الإنساني البسيط الذي يصدر عن نفس بسيطة تحس لدع الحزن ولا تستطيع أن تخفيه . وهذا يفسر لنا خلو هذا الرثاء من الفلسفة والتفلسف اللذين يعتمدان على الأناة والعقل وعمق التفكير .

وما أحسب أني أعرف شاعراً من شعراء العربية في العصر الحديث قد بلغ في الرثاء ما بلغه حافظ . فكثير منهم يرثون فيحسنون الرثاء ويجيدون وصف الفقيد الراحل وتعيد خلالهم ومآثره ، ويصورون ذلك كله تصويراً يلذ العقول والأسماع ، ولكنهم لا يثيرون ما في النفوس من عواطف الحزن الكامنة . وسبب ذلك أن أكثر هؤلاء الشعراء يرثون ولكن عن غير حزن صادق وينوحون ولكن عن غير لوعة محرقة . فهم يرثون لأنهم يفهمون أن الرثاء فن من فنون الشعر يجب أن يشاركوا فيه كارهين أو راضين .

أما حافظ فكان يرثي في صدق وحرارة لأنه يحزن ويتفجع ، ولأن نفسه كانت بريئة من الضغينة والحقد .

وقد أتى حافظ أن يكون وثيق الصلة بهؤلاء الأفاضل الذين ظهروا على مسرح السياسة المصرية والمجتمع المصري . وكانت صلته بهم صافية خالية من قيود الكلفة والتزمت .

وتتجلى براعة حافظ في الرثاء في أنه نقله من مسألة فردية إلى مسألة عامة ، فموت الإمام محمد عبده خطب فادح رُثيت به مصر والعالم الإسلامي ، وموت مصطفى كامل كارثة على مصر والوطنية وموت سعد زغلول رزء أصيبت به الزعامة الحقة . وهو يبين ذلك بعد أن يسجل للفقيد شمائله وميزاته الخاصة ويصوره الصورة الكاملة .

وأنت تحس حين تقرأ رثاء حافظ لعظماء الأمة بأنه صورة صادقة للجزع
ونار ملتهبة للوعة التي لا حد لها ، وتشعر أن قلب الشعب يخفق ألماً ، وأن نفسه
تضطرم أسى وحزناً . وقد شهد له بالبراعة في الرثاء أمير الشعراء شوقي ، وكان
يؤثر أن يقضى نحيبه قبله حتى يلقى منه أوفى الرثاء ، فيقول في مستهل رثائه إياه :
قد كنت أؤثر أن تقول رثائي يا منصف الموتى من الأحياء (١)

فلا عجب إذا كان شعر الرثاء عند حافظ غزيراً وفيراً ، وقد أحس هو
بذلك فقال :

إذا تصفحت ديواني لتقرأني وجدت شعر المراثي نصف ديواني (٢)

وأول ما نلاحظه في رثاء حافظ أنه رثاء بالمعنى الإنساني الواضح : حزن غامر
تتنزى به نفس الشاعر يختلف قوة وضعفاً باختلاف صلة الشاعر بالمرثي وباختلاف
ما تركه الفقيد من آثار في ميادين الوطنية أو الإصلاح أو العلم ، وتبيان "لخلال
الشاعر وصفاته الكريمة ، وذكر" يهصر القلب للأيام المواضي التي نعم فيها
الشاعر بصداقة الفقيد ، وشجاً يتجدد كلما عدت المنية على صديق أو زعيم
أو حبيب .

وأقوى ما يكون هذا الطابع حين يبكي الشاعر عظيماً من العظماء الذين
اتصل بهم اتصالاً وثيقاً وتلمذ عليهم وغمره بعطفهم وحدهم . فإذا رثى الإمام
محمد عبده بين لك فجيعة الدين والعلم والإصلاح فيه ، وصور لك روائع مواقفه
وآثاره ، وجسامة الخطب الذي أصاب المسلمين في سويداء قلوبهم ، وكأنه
بذلك يعلمهم كيف يجدون لدع الحزن وألم الفجيعة . ولم ينس حافظ أن يقفو
آثار القدماء في تعدد مآثر الإمام ومفاخره في لفظ رصين وعبارات جزلة كما
عرف عنه . وقد استهل حافظ رثاءه للإمام بهذه الأبيات :

سلام على الإسلام بعد محمد سلام على أيامه النضرات

(١) الشوقيات : ٢٤/٣ .

(٢) الديوان ١٣٣/١ .

على الدين والدنيا على العلم والحجا على البر والتقوى على الحسنات
لقد كنتُ أخشى عادى الموت قبله فأصبحت أخشى أن تطول حياتي
فوا لهفي والقبر بيني وبينه على نظرة من تلکم النظرات
وقفتُ عليه حاسر الرأس خاشعاً كأني حيال القبر في عرفات
لقد جهلوا قدر الإمام فأودعوا تجاليدته في موحش بفلاة
ولو ضرحوا بالمسجدين لأنزلوا بخير بقاع الأرض خير رفات^(١)

فالمعاني — كما ترى — تكاد تكون مألوفة تداولها غيره من الشعراء ، ولكن
الآيات تملأ النفوس والقلوب أسي وكما . فقد كان حافظ ملتاعاً لفقد أستاذه
ووليّه ، فجعل من هذا الشعر العادي حزناً مريراً .

وحافظ يصور ذلك الجزع وكأنه طوفان من الحزن يأتي على كل نفس .
فقد أصيب الدين بثغرة ينفذ منها المتحاملون عليه ، لأن حاميه الأكبر قد
قضى :

تباركت هذا الدينُ دين محمد أيُترك في الدنيا بغير حُماة
تباركت هذا عالم الشرق قد قضى ولانت قناة الدين للغمزات

ويبين الفراغ الذي تركه الإمام في يأس يحترم النفوس :

مددنا إلى الأعلام بعدك راحنا فردّت إلى أعطافنا صفرات
وجالت بنا تبغى سواك عيُوننا فعدن وآثرن العمى شرقات

وما أروع حافظاً وهو يصور فجیعة الشرق كله من أقصاه إلى أقصاه في
فقد الإمام :

بكي الشرق فارتجت له الأرض رجة وضافت عيون الكون بالعبرات
ففي الهند محزون وفي الصين جازع وفي مصر باك دائم الحسرات
وفي الشام مفجوع وفي الفرس نادب وفي تونس ما شئت من زفرات

بكى عالمُ الإسلامِ عالمَ عصره سراجَ الدباجى هادمَ الشبهات

ويختتم حافظ مرثيته بأبيات يبين فيها فضل الإمام الجليل عليه وعلى كل من اتصل به ، فكلهم مغمور بفضله ، مكنوف بعظيم إحسانه . وفيها يتمثل الحزن الصادق والاعتراف بالجميل الذى عرف به حافظ ، وفيها يتبين ما كان عليه الإمام من تقوى وورع وكرم وخير وبر :

فيا منزلاً فى عين شمس أظلنى وأرغم حسادى وغمّ عداى
دعائمه التقوى وآسسه الهدى وفيه الأيادى موضع اللبنا
عليك سلام الله مالك موحشاً عبوس المغانى مقفر العرصات ؟
لقد كنت مقصود الجوانب أهلاً تطوف بك الآمال مبهلات
مثابة أرزاق ومهبط حكمة ومطلع أنوار وكتر عظمات

فهذه القصيدة خالدة قد استمدت خلودها من الرأى والمرئى ، فقد كان حافظ صادقاً فى وفائه وفى حزنه ولوعته ، وكانت حياة الإمام نموذجاً بليغاً للمصلحين المخلصين الذين ينشدون لدينهم العزة والقوة ولوطنهم المجد والعظمة . وقد استطاع حافظ أن يصور هذه الحياة تصويراً رائعاً وأن يبين الحسارة الفادحة التى أصابت الدين والإصلاح والشرق جميعاً .. وقد رثى كثير من الشعراء الإمام ، ولكننا لا نظفر من هذه المرثى بمثل ما نظفر به من مرثية حافظ صدق شعور وروعة تصوير ، فهى نغمات حزينة متلاحقة ، وكأن كل مقطع فى البيت شهقة مكروب أو أنة مفجوع .

وظل حافظ يبكى أستاذه فى كل مناسبة ويعدد مآثره وأفضاله فى كل فرصة حتى لبيّ نداء ربه . فكان إذا رثى أحداً بعده انفتل من رثائه إلى بكاء الإمام ، وذكر الفراغ الذى ظل شاغراً بعده لم يستطع أحد أن يملأه .

وبراعة حافظ تظهر فى رثاء الأعلام والعظماء الذين تكون الفجيرة فيهم عامة لا تختص بالجزع عليهم طائفة دون أخرى ، والذين يتركون أثراً خالداً فى حياة أممهم . فقد رثى أستاذه البارودى فى لفظ رصين جزل يعيد إلينا ديباجة

الرثاء القديم ، ولكنه لم يستطع أن يمس النفوس بهذا الحزن اللاذع وهذه اللوعة المحرقة . وعلة ذلك أن موت البارودي لم يكن كارثة شعبية ، أو لعل الناس — على أصح تعبير — لم يروه في ذلك الحين كذلك ، وإنما كان موته رُزْءاً للأدباء بنوع خاص . وليس من شك في أن حافظاً قد حزن لفقد أستاذه إمام الشعراء حزناً شديداً بسبب ما كان عليه من وفاء منقطع النظير . وقد آتهم الدكتور طه حسين بأنه قلد في رثائه قصيدة مسلم بن الوليد المعروفة :

لا تدع بي الشوق إلى غير معمود

وأنا لا أنكر أن حافظاً قد اتفق مع مسلم في البحر والقافية والروى ، ولا أنكر أنه — وهو ينظم رثاءه — كان يستعرض بذاكرته القوية قصيدة الشاعر القديم . ولكنه لم يكن مقلداً بالمعنى الذي يقصده الدكتور طه ، فقد جاءت قصيدته مختلفة اختلافاً بيناً في معانيها عن قصيدة مسلم ، فضلاً عن أنها تعطينا ملامح واضحة للبارودي . وقد استهلها حافظ بقوله :

ردوا علىّ بياني بعد «محمود»	إني عيتُ وأعيا الشعرُ مجهودي
ما للبلاغة غضبي لا تطاوعني	وما لحبل القوافي غير ممدود؟
ظننتُ سكوتي صفحاً عن مودته	فأسلمتني إلى هم وتسويد
ولو درتُ أن هذا الخطب أفحمني	لأطلقت من لساني كل معقود ^(١)

ثم يمثل لنا الشاعر المرثي تمثيلاً يوضح لنا الجوانب اللامعة في البارودي ، بحيث لو سمعه أي إنسان لعرف شخص المرثي فيقول :

ليبك يا مؤنس الموتى وموحشنا	يا فارس الشعر والهبجاء والجود
ليبك يا شاعراً ضمن الزمان به	على النّهي والقوافي والأناشيد
ليبك يا خير من هزّ اليراع ومن	هزّ الحسام ومن لبى ومن نودى
إن هُدّ ركنك منكوباً فقد رَفَعَتْ	لك الفضيلة ركناً غير مهدود

كنتَ الوزير وكنتَ المستعان به وكان همك همَّ القادة الصيد

ويأخذ حافظ في تعديد بعض مواقف البارودي المشهورة في ميادين القتال :

كم وقفة لك والأبطال طائفة والحرب تضرب صنديداً بصنديد
تقول للنفس إن جاشت إليك بها هذا مجالك سودى فيه أو يبدى
نسختَ (يوم كريد) كل ما نقلوا في يوم (ذى قار) عن (هاني بن مسعود)
نظمتَ أعداك في سلك الفناء به على روى ولكن غير معهود
كأنهم كلمٌ والموت قافية يرمى به عربى غير رعديد

ويمضى حافظ في القصيدة على هذا المنوال . ولست أشك في أنه كان محزوناً لفقد أستاذه البارودي ، ولكنه لم يبلغ من الإجابة ما بلغه في رثاء عظماء الأمة الذين تركوا صيتاً مدوياً ، لأنه لم يُثر حزن أحد معه من بنى وطنه على البارودي اللهم إلا طائفة الشعراء والأدباء .

وقد اكتسب رثاء حافظ لعظماء الأمة لوناً بارعاً من الخطابة كان له فعل السحر في نفوس الناس . ولو قرأت مراثيه للزعيم مصطفى كامل لأدركت روعة تصويره لحزن الشعب وأساؤه وذلك ناجم من عمق إحساسه بفداحة الرزء كما صنع مع الإمام محمد عبده ، لأن الأول كان عظيماً من عظماء الدين وعلماء من أعلام النهضة الفكرية ومصلحاً اجتماعياً خطيراً . وكان مصطفى زعيماً سياسياً أيقظ الأمة من سباتها وملأ نفوسها أملاً ورجاءً . وكان حافظ في رثائهما ينطق باللسنة الجماهير المحزونة .

وقد رثى حافظ الزعيم مصطفى كامل بثلاث قصائد ، وكل واحدة منها كانت قطعة من نفسه المكروبة التي هزها المصائب . فقد كان صديقاً حميماً للزعيم برغم صلاته بخصومه السياسيين ، وكان مصطفى شديد الإعجاب بشعر حافظ ، وعندما ظهر الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠١ قرّظه في جريدة « اللواء » تقريراً يدل على تقديره له ^(١) .

(١) اللواء بتاريخ ٩ أكتوبر سنة ١٩٠١ .

وقد ألقى حافظ القصيدة الأولى على قبر الزعيم واستهلها بقوله :

أيا قبر هذا الضيف آمال أمة فكبر وهلل والقي ضيفك جاثيا^(١)

ولعل جسامه الخطب هي التي دفعته إلى أن يستهل القصيدة بهذه المبالغة
المسرفة ، وهو بصور فداحة المصاب فيقول :

عزير علينا أن نرى فيك مصطفى	شهيد العلا في زهرة العمر ذاويا
أيا قبر لو أنا فقدناه وحده	لكان التأسى من جوى الحزن شافيا
ولكن فقدنا كل شيء بفقدته	وهيات أن يأتي به الدهر ثانيا
فيا سائلي أين المروءة والوفاء	وأين الحجا والرأى ؟ ويحك ها هيا
هنيئاً لهم فليأمنوا كل صائح	فقد أسكت الصوت الذي كان عاليا
ومات الذي أحيا الشعور وساقه	إلى المجد فاستحيا النفوس البواليا

وينحاطب الفقيد مبيناً أسى الشعب ولوعته ، ذاكرًا فضل الفقيد في إيقاظ
الأمة من رقادها :

عليك ، وإلا ما لذا الحزن شاملاً	وفيك ، وإلا ما لذا الشعب باكيا
وكنّا نياماً حينما كنت ساهداً	فأسهدتَنَا حزناً وأمست غافيا
شهيد العلا ، لا زال صوتك بيننا	يرن كما قد كان بالأمس داويا
يُهبب بنا : هذا بناء أقمته	فلا تهدموا بالله ما كنتُ بانيا
يصيح بنا : لا تشعروا الناس أنى	قضيتُ وأن الحى قد بات خاليا
بناشدنا بالله ألا تفرّقوا	وكونوا رجالا لا تسروا الأعاديا

ويعاهد الفقيد على أننا سنظل أوفياء لمبادئه مقيمين على عهده :

أجل أيها الداعى إلى الخير إننا	على العهد ما دمنا فم أنت هانيا
بناؤك محفوظ وطيفك ماثل	وصوتك مسموع وإن كنت نائيا

ثم يخاطب مصطفى طالباً إليه أن يرخص لهم في البكاء لأن الرزء فادح
يستأهل الانتحاب ، فهذا مقامه :

عهدناك لا تبكى وتنكر أن يُرى أخو البأس في بعض المواطن باكيا
فرخص لنا اليوم البكاء وفي غد ترانا كما تهوى جبالا رواسيا
فيا نيلُ إن لم تجر بعد وفاته دماً أحمرًا لا كنت يا نيل جاريا

والقصيدة الثانية أنشدها في ذكرى الأربعين ، وطلعها :

نثروا عليك نوادي الأزهار وأتيتُ أنثر بينهم أشعاري^(١)

وفيها يستعرض حافظ مواقف الفقيه وصلابته في الحق . ومن أبدع ما فيها
أنه يصور جنازة الفقيه تصويراً رائعاً ؛ يصور شعب مصر الوفي لزعمائه ومبلغ
حزنه على زعيمه وقائد نهضته ، ويقدم لذلك بأنه قد طاب نفساً لما رأى هذه
الجموع الحاشدة تحف بنعش الفقيه تتحب وتسكب الدمع الهتون :

عزّ القرار على ليلة نعيه وشهدتُ موكبه فقر قراري
شاهدتُ يوم الحشر يوم وفاته وعلمتُ منه مراتب الأقدار
ورأيتُ كيف تنى الشعوب رجالها حقّ الولاء وواجب الإكبار
تسعون ألفاً حول نعشك تُخشعُ يمشون تحت « لوائك » السيار
خطوا بأدمعهم على وجه الشرى للحزن أسطاراً على أسطار
أنساً يوالون الضجيج كأنهم ركبُ الحجيج بكعبة الزوار
وتخالهم أنساً لفرط خشوعهم عند المصلى ينصتون لقاري
قد كنتُ تحت دموعهم وزفيرهم ما بين سيل دافق وشرار
أسعى فيأخذني اللهب فأثنى فيصدّني متدفق التيار

ولاني لحد مفتون بهذه الأبيات لروعها وجمال نظمها وحسن تصويرها :

أدرجتُ في العَلَم الذي أصفيته منك الودادَ فكان خير شعار

علمان من فوق الرعوس كلاهما ناداهما داعى الفراق فأمسيا
واهماً على تلك المواقف إنها لم يلوّه عنها الوعيد ولا ثنى
فاهناً بمنزلك الجديد ونم به واستقبل الأجر الكبير جزاء ما
نعم الجزاء ونعم ما بلغته في طيه سر من الأسرار
يتعانقان على شفير هاري كانت مواقف ليث غاب ضاري
من عزمه قول المريب : حذار في غبطة وانعم بخير جوار
ضحيت للأوطان من أوطار في منزلك ونعم عقي الدار

والقصيدة الثالثة أنشدها في الحفل الذي أقيم عند قبره لإحياء ذكره الأولى
ومطلعها :

طوفوا بأركان هذا القبر واستلموا واقضوا هنالك ما تقضى به الذم^(١)

وفيها يخاطب الفقيد الذي كان جذوة فحبت وحركة دائبة فسكنت :

يأيها النائم الهاني بمضجعه باتت تسائلنا في كل نازلة
تركت فينا فراغاً ليس يشغله منفّر النوم سباق لغايته
ليهنك النوم لا هم ولا سقم عنك المنابر والقرطاس والقلم
إلا أبي ذكى القلب مضطرم آثاره عمم آماله أمم

ويصف عظمة الزعيم وعلو قدره وجلاله ، ويهيب بمواطنيه أن يقسموا على
الذود عن مبادئه ، وإنه لقسم - لو علموا - عظيم :

إني أرى وفؤادى ليس يكذبني أرى جلالا ، أرى نورا ، أرى ملكا
الله أكبر ، هذا الوجه أعرفه غصوا العيون وحيوه تحيته
وأقسموا أن تذودوا عن مبادئه روحاً يحف بها الإكبار والعظم
أرى محيا يحينا وييتسم هذا فتى النيل هذا المفرد العلم
من القلوب إذا لم تسعد الكلم فنحن في موقف يحلو به القسم

ثم يخاطب الزعيم في حماسة متقدة يستهديه ، ويصور ما يلاقيه المصريون من ظلم الإنجليز وضغطهم :

ليبك نحن الألى حركت أنفسهم
جئنا نؤدى حساباً عن مواقفنا
قيل : اسكتوا ، فسكتنا ثم أنطقنا
قد اتهمنا ولما نطلب جلاً
إذا سكتنا تناجوا ، تلك عادتهم
قد مرّ عام بنا والأمر يحزبنا
فالناس في شدة والدهر في كلب
وأخيراً يحث النشء على أن يسيروا في الدرب الذى نهجه الفقيد حتى يتموا ما بدأه :

يأبى النشء سيروا في طريقته وثابروا ، رضى الأعداء أو نقموا
فكلكم (مصطفى) لو سار سيرته وكلكم (كامل) لو جازه السأم

وقد رثى حافظ الزعيم الشعبى الكبير « سعد زغلول » بقصيدة رائعة استمدت روحها من شعبية الفقيد ، فجاءت مرثية قوية تصور حزن الشعب الشديد لفقد زعيمه العظيم ، مثل مراثيه فى الإمام محمد عبده والزعيم مصطفى كامل . وهو فى هذه المرثية أطول نفساً منه فى جميع مراثيه الأخرى ، وذلك لأن سعداً ناضل الإنجليز نضالاً عنيفاً واحتمل آلام النفي والاضطهاد وهو شيخ لوت السنون كفه على العصا كما يقولون ، ومع ذلك لم تلن له قناة ولم تفر له عزمة ، وقد هبت الأمة كلها عن بكرة أبيها تشد أزره شيئاً وشباناً ، رجالاً ونساء ، فكان بحق زعيماً شعبياً عظيماً اتجهت إليه النفوس وهى مفعمة بالأمل والرجاء . ولهذا كان حزن الأمة عليه بالغاً . هذا إلى أنه كان يغمر حافظاً بفيض رعايته ، وكان حافظ من خاصة جلاله وسماره . ومن أجل هذا كله جاءت القصيدة آية ناطقة بالوفاء وعمق الإحساس وصدق التصوير .

وفى يرينا حافظ عظم الخطب ، وكيف ينصب فى النفوس انصباباً ،

ويناشد الليل أن يجلل الوجود بظلامه :

إيه يا ليل هل شهدت المصابا كيف ينصبّ في النفوس انصبابا
قُدّ يا ليل من سوادك ثوباً للدرارى وللضحى جلبابا
انسجّ الحالكات منك نقابا واحبّ شمس النهار ذاك النقابا^(١)

ويدعو جنود سعد أن يتادوه فإذا لم يجب فليشقوا عليه الثياب لأن فقدته
كان طامة كبرى أصابت البلاد :

أى جنود الرئيس نادوا جهاراً فإذا لم يُجب فشقوا الثيابا
إنها النكبة التي كنت أخشى إنها الساعة التي كنت آبي
إنها اللفظة التي تنسف الأذ فس نفساً وتفقر الأصلابا
مات (سعد)، لا كنت يا (مات سعد) أسهاماً مسمومة أم حرابا
كيف أقصدت كل حي على الأر ض وأحدثت في الوجود انقلابا

وينحبر أهل فلسطين الذين دهاهم الزلزال فدك ديارهم دكاً أن زلزال مصر
أدهى وأعنف لأنه نكبتها في زعيمها الأوحده :

قل لمن بات في (فلسطين) يبكى إن زلزالنا أجل مصابا
قد دُهِيتَ في دياركم ودُهِينا في نفوس أبسينَ إلا احتسابا
فقدتم على الحوادث جفنأ وفقدنا المهند القرصابا
قدرّ شاء أن يزلزل مصرأ فتغالى فزلزل الألبابا
طاح بالرأس من رجالات مصر وتخطى التحوت والأوشابا

ويبين الشاعر كيف شيعت الأمة زعيمها بين زفرات الحزن والأسى كما صنع
في رثاء الإمام والزعيم مصطفى كامل :

خرجت أمة تشيع نعشاً قد حوى أمة وبحراً عبا
حملوه على المدافع لما أعجز الهام حملته والرقابا
حال لون الأصيل والدمع يجرى شفقا سائلا وصبحاً مُذابا
وسها النيل عن سراه ذُهولا حين ألنى الجموع تبكى انتحابا
ظن يا سعد أن يرى مهرجانا فرأى مأتماً وحشداً عُجابا

ويأخذ في تعديد مواقف الفقيد وسجاياه كعاداته في رثاء عظماء الأمة :

يا كبير الفؤاد والنفس والآ مال أين اعتزمت عنا الذهابا
كيف ننسى مواقفك لنا كنت فيها المهيب لا الهيا
كنت في ميعه الشباب حساماً زاد صقلا فرندُه حين شابا
عِظَمٌ لو حواه (كسرى) أنوشر وان يوماً لضاق عنه إهابا
ومضاءٌ يُريك حد قضاء الـ ه يفرى متناً ويحطم نابا

ويشير حافظ إلى صلابه قناة سعد التي لم تلتن تحت وطأة النفي والتشريد والاضطهاد ، وإلى ذكائه ودهائه ويقظته :

لم يُنهيه من عزمك السجن والنس ي وساجلتها بمصر الضرابا
سائلوا (سيشلا) أأوجس خوفاً وسلوا (طارقا) أرام انسحابا ؟
عزيمة لا يصدّها عن مداها ما يصدّ السيول تغشى الهضابا
كلما أحكموا بأرضك فخاً من فخاخ الدهاء خابوا وخابا
تقتل الدس بالصراحة قتلاً وتُسقي منافق القوم صابا
وترى الصدق والصراحة ديناً لا يراه المخالفون صوابا
قد بلوناك قاضياً ووزيراً ورئيساً ومدبرهاً خلابا
فوجدناك من جميع نواحيه لك عظمياً موقفاً غلابا
لم ينل حاسدوك منك منهم لا ولم يلصقوا بعلياك عابا

وحين نقرأ مراثيه لقاسم أمين نجده إنساناً محزوناً صادق الحزن ، ولكننا لانحس

فيها بالجو الشعبي الذي نحسه في مراثيه لزعماء الأمة . وذلك لأن قاسماً لم يكن فقدته خسارة شعبية مثل الأستاذ الإمام والزعيمين مصطفى كامل وسعد زغلول ، وفيها يقول مشيراً إلى جهاده في سبيل تحرير المرأة من غير أن يبدى فيه رأياً خاصاً :

إن ريتَ رأياً في الحجاب ولم	تُعصم ، فتلك مراتب الرسل
الحكم للأيام مرجعه	فيما رأيتَ فتم ولا تسئل
وكذا طهارة الرأي تتركه	للدهر يُنضجه على مهل
فإذا أصبتَ فأنت خير فتى	وضع الدواء مواضع العلل
أو لا ، فحسبك ما شرفت به	وتركتَ في دنياك من عمل

ولا نلاحظ في القصيدة فاجعة شعبية عامة تأسى لها نفوس المصريين جميعاً ، لأن حافظاً لم يجد في فقد قاسم خسارة عامة ولذلك نراه لا يخرج في رثائه هذا عن تعديد شمائل الفقيد وإقفار الديار منه :

واهاً على دار مرتُّ بها	قفراً وكانت ملتقى السبل
أرخصتُ فيها كل غالية	وذكرتُ فيها وقفة الطلل
ساءلتها عن (قاسم) فأبت	رداً الجواب فرحتُ في خبل

ويخرج من ذلك إلى مخاطبة قاسم قائلاً :

قل للإمام إذا التقيتَ به	في الجنتين بأكرم النزل
إن الحقيقة أصبحت هدفاً	للكيين مراكب الزلل
لله آثارٌ لكم خللدتْ	صاح الزوال بها فلم تزُل
لله أيامٌ لكم درجتْ	طالت عوارفها ولم تطل
نعم الظلال لو أنها بقيت	أو أن ظلاً غيرُ منتقل

ولم يترك حافظ صديقاً أو زعيماً يمضى إلا وفاء حقه من الرثاء، يسوقه إلى ذلك وفاء نادر وكمد يطوق النفس من جميع جوانبها . وكان وفاؤه يدفعه إلى أن

يمتدح المرثى ، غير مبال برأى الناس فيه . فقد رثى الدكتور (شبلى شميل)
وسرد شمائله الكريمة برغم أن كثيراً من الناس قد أنكروا منه ذلك لأنهم كانوا
يغتمزون فيه التواء العقيدة ورقة الدين ، ويشير حافظ إلى ذلك فيقول :

إليه شبلى قد أكثر الناس فيك الـ	قول حتى تفننوا في عتابي
قيل : ترثى ذاك الذى ينكر النوـ	ر ولا يهتدى بهدى الكتاب
قلت : كفّوا فإنما قمتُ أرثى	منه خلاً أمسى طويل الغياب
أنا والله لا أحاييه فى القـو	ل فقد كان صاحبي لا يحايي
أنا أرثى شمائله منه عندي	كنّ أحلى من الشهاد المذاب ^(١)

وحافظ فى كل موقف من مواقفه الرثائية يذيب نفسه — كما رأيت — حسرة
على المصائب ويندب حظه فى آلافه وحظ الأمة فى رجالاتها وحظ الشرق فى
زعمائه وحظ الدين فى حماه . وكثيراً ما يجعل مرثيته سجلاً لما كان بينه وبين
المرثى من ألفة ومودة وما كان بينهما من مجالس أنس وسرور « يشتاقيها هرون
أو جعفر » ، وما كان يدور فى المجالس من طرف وفكاهات « عن غيرهم فى
الحسن لا تصدر » :

فكم لنا من مجلس طيب	يشتاقي هارون أو جعفر
نلعب باللفظ كما نشتهى	ونضمر المعنى فما يظهر
ونرسل النكتة محبوكة	عن غيرنا فى الحسن لا تصدر
ثم انطوى هذا وهذا وما	يطوى من الأيام لا يُنشر ^(٢)

ولست أشك فى أن حافظاً كان صادق الحزن فى رثائه للأشخاص الذين
عرفهم ولمس مآثرهم وجمعتهم بهم أواصر من المحبة الخالصة والصدقة والألفة . ولكن
هذا الحزن يتفاوت قوة وضعفاً بحسب منزلة المرثى من نفسه أو من نفوس مواطنيه .

(١) الديوان ١٨١/٢ .

(٢) الديوان ٢١٦/٢ .

ولست أوافق الدكتور طه حسين في « أن شعره في رثاء الأباطين متكلف لا يدل على حزن صادق ولا على لوعة ، وإنما دفع إليه بواجب المجاملة ^(١) » . فإنك لو قرأت رثاءه فيهم لأحسست أنه صادر من قلب محزون ينبض بالوفاء . وذلك لأنه قد نشأ بين الشاعر وبين أسرة الأباطين جميعاً صداقة قوية كانت تزداد مع الأيام رسوخاً « حتى امتنعت الكلفة وأصبح يحسب نفسه واحداً منهم ولا يحس في بيوتهم بوحشة الاغتراب » كما يقول المرحوم الأستاذ دسوقي أباطة ^(٢) ولهذا لم يكذب يقضي واحد منهم حتى يدفع الوفاء حافطاً إلى رثائه في صدق وإخلاص . وقرأ له مثلاً قوله من قصيدة يرثي بها عميد الأسرة المرحوم سليمان أباطة تجد فيها شيئاً من المبالغة التي لم تخل منها مرثية في الشعر العربي :

أنى حلت أرى عليك مآتما	فلمن أوجه فيك حسن عزائي ؟
لبنيك ، أم لذويك ، أم للكون ، أم	للدهر ، أم لجماعة الجوزاء ؟
لا تحمـلوه على الرقاب فقد كفى	ما حُمِّلْتُ من منّة وعطاء
وذروا على نهر المدامع نعشه	يسرى به للروضة الفيحاء ^(٣)

ومثل ذلك قوله أيضاً في رثائه :

رحم الله منه لفظاً شهياً	كان أحلى من ردّ كيد الأعادي
رحم الله منه شهماً وفيها	كان ملء العيون في كل نادي
بت في حلة النعيم وبتنا	في ثياب من الأسى والسهاد
وسكنت القصور في بيت نخلد	وسكنا عليك بيت الحداد ^(٤)

ونحن لا ننكر أن هذا الشعر وأمثاله لم يكتمل له نضجه الفني ، لأنه قاله في فجر شبابه . والذي يهمننا منه أنه تعبير صادق عما كان يحس به حافظ من

(١) حافظ وشوقي ص ١٦٧ .

(٢) مجلة أبولو ص ١٣٤١ (يولييه سنة ١٩٣٣) .

(٣) الديوان ص ١٣٥/٢ .

(٤) الديوان ١٣٧/٢ .

حرقة الحزن لفقد أحبابه من الأباطين .

ويشبه الدكتور طه مراثيه للأباطين بمرثيته للملكة « فكتوريا » ، ولكنى لا أرى هذا الرأى ، لأن حافظاً كان وفيّاً لأصدقائه الذين اتصل بهم من الزعماء وغيرهم . ولم تكن الملكة فكتوريا صديقة له . وأخلق بهذا الشعر الذى قاله فيها أن يكون شعراً سياسياً . ولعل حافظاً كان يرغب من وراء ذلك أمراً ما ، كما سمعتُ من بعض من كانوا على صلة به .

والقارئ لمراثى حافظ يلمح فيها ظاهرة واضحة ؛ هى أنه كان يصوغها فى الغالب من الأبحر الطويلة ذات التفاعيل المديدة لتوائم مواقف الحزن وتناسب وقار الرثاء . وقد ساعده على التزام ذلك أنه كان يلتقى قصائده بنفسه ، فكان يحس بجمال هذه البحور الطويلة فى مثل ذلك المقام ، ويدرك مناسبة موسيقاها ورحابة مقاطعها .

وبعد ، فهذا هو رثاء حافظ ، ولعله بلغ فيه من نفوسنا ما يريد ، ولعل أحدا من الشعراء الذين رثوه لم يبلغوا فى رثائه ما بلغه فى رثاء أئمة مصر وزعمائها ورجالاتها .

ولم يستطع شوقى أن يبلغ فى رثائه ما بلغه حافظ ، لأنه كان على نقيضه فى طباعه وفى حياته . فقد كان ذا شخصية غامضة يعجز المرء عن الوصول إلى قرارها . ولم يصادف فى حياته شيئاً من شظف العيش والإقتار . وقد ارتبطت حياته بالقصر ، فاضطر إلى أن يرسم لنفسه طريقاً خاصاً لا يجزّ عليه سخط صاحبه . ولهذا قلما كان فى رثائه مكان للبكاء أو استثارة للحزن . فهو لا يذوب أسى وحسرة على الراحلين ، ولا يتحدث عن نفسه فى معرض الحزن والبرحاء كما كان يفعل حافظ .. ولكنه كان يجعل من المراثى وسيلة للتحدث فى الحياة وفلسفتها وتفاهتها ونهاية الدنيا ، ويتخذ من ملابسات المراثى وظروفه ميداناً للإفاضة فى الأحداث الإنسانية العامة واستخلاص العبر منها . وقلما نحس فى مراثيه باللوعة إلا فى أحوال قليلة كرثائه لأمه ولصطفى كامل وعمر لطفى وأمين الرافعى ،

لأن هؤلاء كانت تربطه بهم وشائج من القرابة أو التعلق الشديد أو التجاوب الفكري .

وهذا يفسر لنا ما كان يصطنعه شوقي في مراثيه من الحكم العامة البالغة التي يستخلصها من عبرة الفناء والموت والحياة لكي يستعويض بها عما كان يشعر به من فتور العاطفة وضعف الإحساس . ولكن عبقرية شوقي كانت تضيئ على مراثيه كثيراً من الجلال يعوضها ما تفقده من صديق الشعور .

وكثير من مراثي شوقي صيغت في أبحر قصيرة لا تليق بوقار الحزن ومواقف الرثاء ، وإنما هي أليق ما تكون بمواقف الرقص والمرح ، وذلك لأنه كان ، في قفصه الذهبي ، يحيا حياة ناعمة بعيدة عن أجواء الحزن والألم .

معارض التاريخ

كانت ثقافة حافظ التاريخية غير فسيحة ، ولذلك نراه لا يعنى كثيراً بالتاريخ وحوادثه والتعليق عليها . وكل ما كان يصنعه أنه كان يشير إلى بعض الأحداث والأعلام إشارة عابرة .

وكان حافظ بطبيعته قلما يميل إلى الالتفات إلى الماضي ، وإذا التفت إليه لا يعدو الماضي القريب . فهو يسبح في التاريخ ولكنه لا يخلق ، وذلك لأنه كان يتناول مادة شعره مما يجرى حوله أو يقع تحت حسه .

وإذا قلبنا النظر في شعر حافظ نلتبس فيه أثر التاريخ المصرى القديم لا نجد له إلا قصيدة « مصر تتحدث عن نفسها » التى أنشدها في الحفل الذى أقيم بفندق (الكونتنتال) لتكريم المرحوم عدلى يكن بعد عودته من أوروبا قاطعاً المفاوضة مع الإنجليز ومستقيلاً من الوزارة في ديسمبر سنة ١٩٢١ .

وهذه القصيدة من روائع شعر حافظ ، وقد غنت السيدة أم كلثوم أبياتاً منها . وهو يستهلها استهلالاً رائعاً فيقول :

وقف الخلق ينظرون جميعاً	كيف أبني قواعد المجد وحدى
وبناة الأهرام في سالف الدهر	ر كفوئى الكلام عند التحدى
أنا تاج العلاء في مفرق الش	رق ودُرّاته فرائد عقدى
أى شيء في الغرب قد بهر النا	س جمالا ولم يكن منه عندى
فترابى تبرّ ونهرى فراتٌ	وسمائي مصقولة كالفرند ^(١)

ويمضى حافظ على هذا المنوال من الفخر ، حتى إذا خلق في الأفق

(١) الديوان ٨٩/٢ .

التاريخي كان تحليقه خاطفاً عجلاً يدل على روح خطيب لاهلي روح شاعر
ينفذ إلى أغوار المعاني . . يقول :

قل لمن أنكروا مفاخر قومي
هل وقفت بقمة الهرم الأكـ
هل رأيتم تلك النقوش اللواتي
حال لونُ النهار من قدم العهد
هل فهمتم أسرار ما كان عندي
ذاك فنَّ التحنيط قد غلب الدهـ
قد عقدت العهود من عهد فرعو
إن مجدي في الأوليات عريق
أنا أم التشريع قد أخذ الرو
ورصدت النجوم منذ أضاءت
وشدا (بنتشور) فوق ربوعى
وقديماً بنى الأساطيل قومي
قبل أسطول (نلسن) كان أسطو

مثل ما أنكروا مآثر ولدى
بر يوماً فريتم بعض جهدى ؟
أعجزت طوق صنعة المتحدى ؟
د وما مسّ لونها طول عهد
من علوم مخبوءة طيَّ بردى ؟
ر وأبلى البلى وأعجز ندى
ن فني (مصر) كان أول عقد
من له مثل أولياتي ومجدي ؟
مان عني الأصول في كل حد
في سماء الدجى فأحكمت رصدي
قبل عهد اليونان أو عهد نجد
ففرقن البحار يحملن بندي
لى سوريا وطالعي غير نكد

ثم نرى حافظاً ينفث من معارض التاريخ لأنه لا يستطيع أن يقف فيها وقفة
التأمل المتفحص ، وينحو نحو آخر ، هو تبصير مواطنيه بمناهل القوة والعلا
ليردوها فيقول :

قد وعدت العلا بكل أبي
أمهروها بالروح فهي عروس
ورددوا بي مناهل العز حتى
وارفعوا دولتي على العلم والأخـ
وتواصوا بالصبر فالصبر إن فا

من رجالى فأنجزوا اليوم وعدى
تشأ المهر من عروض ونقصد
يخطب النجم في المجرة ودنى
لاق فالعلم وحده ليس يجدى
رق قوماً فما له من مسد

والقصيدة كلها جزلة رائعة الديباجة محكمة النسيج كما ترى . وقد وفّر لها حافظ كل العناصر التي تجعلها أخاذة صالحة للإلقاء في المحافل . فهي خطبة منظومة تستهوي الجماهير وتخلب أسماعهم لما فيها من سطوة في القول وعذوبة في الموسيقى وبراعة في الأداء . ولكن الشاعر لم يوفق في أن يرسم لنا في الأبيات التي يشير فيها إلى قوة مصر العسكرية زمن الفراعنة — صوراً رائعة يستمد ألوانها وخيالها من الصور التي اختزنتها ذاكرته من حياته في الجيش .

وهذا هو جهد حافظ الوحيد في ميدان التاريخ الفرعوني . أما جهده في ميدان التاريخ الإسلامي فلا نعرف له إلا مطولته المشهورة المعروفة (بالعمرية)^(١) وقد أقيم حفل خاص لإلقائها في ٨ فبراير سنة ١٩١٨ في مدرج وزارة المعارف بدرب الجماميز . وهي سرّد مسهب لتاريخ الخليفة عمر بن الخطاب وأعماله ومواقفه ، وتبلغ عدتها ستة وثمانين ومائة بيت . وقد قسمها حافظ إلى أجزاء وضع لكل منها عنواناً ، مثل مقتل عمر ، وإسلام عمر ، وعمر ويعة أبي بكر ، وعمر وعلى . . . إلخ . وقد استهلها حافظ بالضراعة إلى الله أن يمنحه بياناً يستعين به على قضاء حقوق هذا الخليفة الفذ الذي يعتر به التاريخ الإسلامي أيما اعتزاز :

حسب القوافي وحسبي حين ألقيا	أني إلى ساحة الفاروق أهديها
لا همّ ، كهب لي بياناً أستعين به	على قضاء حقوق نام قاضيها
قد نازعتني نفسي أن أوفيها	وليس في طوق مثلي أن يوفيها
فر سريّ المعاني أن يسواتيني	فيها فإني ضعيف الحال واهيها

وليس هناك من سبب ظاهر لنظم هذه المطولة ؛ فقد يكون الدافع إليه إعجاب حافظ الشديد بالخليفة العظيم مفخرة الإسلام والمسلمين . وقد تكون القصيدة نفحة روحية أضفتها عليه صحبته لزعيم الشرق والإسلام الإمام محمد عبده . ويجوز أن يكون حافظ قد أراد أن يضع أمام نابتة الشباب صورة واضحة لهذه الشخصية الإسلامية الجليلة من صميم تاريخهم لتكون مثلاً لهم يحتذونه

ويقتدون به ، وبخاصة بعد ما رآه من التياث حال العالم الإسلامى إبان الحرب العالمية الأولى وفساد أمر الخلافة .

وهو يشير إلى ذلك فى ختام القصيدة فىقول :

هــذى مناقبه فى عهد دولته	للشاهدين وللأعقاب أحكيها
فى كل واحدة منهن نائلة	من الطبائع تغذو نفساً واعيا
لعل فى أمة الإسلام نابتة	تجلو لحاضرها مرآة ماضيها
حتى ترى بعض ما شادت أوائلها	من الصروح وما عاناه بانيها
وحسبها أن ترى ما كان من (عمر)	حتى ينبه منها عين غافيا

وما من شك فى أن حافظاً كان ينظر إلى شوقى فيراه يصول ويجول فى ميدان التاريخ الفسيح فيبدع ويجيد ، فأراد أن يجرى فى غباره ، وبخاصة بعد أن نظم شوقى مطولته المشهورة « نهج البردة » ، فنظم « عمريته » ليبين أنه ليس أقل استظهاراً لأمر التاريخ من زميله .

والقصيدة فى مجموعها طيبة الأسلوب دقيقة النظم رصينة العبارة كسابقتها . وهى — فيما أرى — اللفتة الوحيدة التى أرسلها حافظ إلى الماضى البعيد . وقد وفق فى تجلية شخصية عمر إلى حد كبير .

ويتضح من ذلك أن حافظاً قد تخلف عن شوقى فى ميدان التاريخ تخلفاً كبيراً جداً . فشوقى هو الشاعر العربى الأعظم الذى استعرض التاريخ ، وبخاصة التاريخ المصرى والتاريخ الإسلامى ، فاستجلاه واستخلص منه العبر ، واتخذة وسيلة لاستنهاض الهمم ، وجعله مادة دسمة لشعره ، وهو ينوّه بقيمة التاريخ فىقول :

غالٍ بالتاريخ واجعل صحفه	من كتاب الله فى الإجلال قابا
قلّب الإنجيل وانظر فى الهدى	تلق فى التاريخ وزناً وحسابا
واطلب الخلد ورّمه منزلا	تجد الخلد من التاريخ بابا

عاش خلقٌ ومضوا ما نقصوا رقعة الأرض ولا زادوا الترابا
أخذ التاريخ مما تركوا عملا أحسن أو قولا أصابا^(١)

وشوقى يعتبر التاريخ أحد مصدرى الشعر فيقول : « والشعر ابن أبوين :
التاريخ والطبيعة^(٢) » . وقد تناول تاريخ الدول وسير عظماء التاريخ فى الشرق
والغرب ، وتناول الآثار وأخذ يناجيها ويحاورها .

وكان شوقى يتخذ شخصياته التاريخية من العصاميين لتكون الصورة أروع
والعبرة أبلغ ، ومن غير العصاميين لمكانتهم الأثرة فى التاريخ .

ولست بصدد الحديث عن شوقى ، وحسبى أن أحيلك على ديوانه لتدرك
أنه زاخر بألوان شتى من التاريخ . وذلك لأن شوقى كان مؤرخاً بطبيعته كما كان
شاعراً بسليقته . وله من ألوان التاريخ ما يغوص فى بطون الماضى السحيق ، ومنها
ما يتناول حوادث العصر الحديث . ولعل أبرز تاريخياته مطولته المشهورة التى
نظمها فى شبابه وافتتح بها الجزء الأول من ديوانه بعنوان « كبار الحوادث فى
وادي النيل » ، وقد قالها فى مؤتمر المستشرقين الذى انعقد فى « جنيف » سنة
١٨٩٤ ، وكان مندوب مصر فيه . وهى قصيدة تدل على سعة الطاقة الفنية وطول
النفس إذ تبلغ تسعين ومائتى بيت التزم فيها قافية واحدة وروياً واحداً ، ومطلعها :

هَمَّتْ الْفَلَكَ وَاحْتَوَاهَا الْمَاءُ وحداها بمن تُقِلُّ الرِّجَاءُ^(٣)

وقد عرض فيها شوقى لتاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى تاريخ نظمها . وقد
جمعت هذه القصيدة إلى براعة الفن جمال العرض ولباقة الأداء، يتخلل ذلك
الحكمة البالغة المستوحاة من أعماق التاريخ . وهو يعرض أمام ناظريك مواكب
التاريخ منتظمة آخذة برقاب بعضها البعض فى نظام فى ساحر . وقد وصف

(١) الشوقيات : ٥٣/٢ .

(٢) من كلمة قدم بها قصيدة « رومه » الشوقيات : ٣٠٦/١ .

(٣) الشوقيات : ١/١ .

المرحوم الدكتور «محمد حسين هيكل» هذه القصيدة وصفاً رائعاً فقال : « رواية من الروايات الخالدة لتاريخ مصر منذ الفراعنة إلى عهد أبناء محمد علي ، وقف فيها الشاعر وقفة مصرى صادق العاطفة تفيض عليه ربة الشعر تاريخ بلاده منذ عرفها التاريخ . . . وأنت تراه في عرضه هذا التاريخ ممتلئ النفس فخراً بمجد مصر حين يرتفع بها المجد إلى عليا ذراه ، آسفاً حزيناً حين تمر بمصر فترات ظلم وذلة ، مستفزاً للهمم ، حافزاً لعزائم أهل جيله والأجيال التي بعده كي يعيدوا مجد الماضي وعظمته^(١) . . . »

أما الجانب الإسلامى فقد كان له من قريض شوق أكبر نصيب . ولعل ألمع إسلامياته قصيدتا « نهج البردة » و « الهمزية » . وفي خلال إقامته بإسبانيا إبان الحرب العالمية الأولى استفزه مجد الإسلام الدائر إلى أن ينظم سلسلة من القصائد في التاريخ الإسلامى ، وقد طُبعت بعد وفاته في كتاب عُرف باسم « دول العرب وعظماء الإسلام » . وقد قدّمها اللغوى العالم محمود خاطر بقوله : « هذه درة في تاج الأدب وغرة في جبين القريض ، نظم أمير الشعراء عقدها وصاغ معناها ولفظها ، وهو يعانى ألم النفي ويتجرع غصص النوى إبان الحرب العالمية الكبرى بين ربوع الأندلس التي عمّر الإسلام فيها ثم درس . . . » . وقد استهل شوقى هذه المجموعة بالكلام على لغة العرب ، وختمها بالكلام على دولة الفاطميين . وقد نظمها من بحر الرجز على غرار المنظومات العلمية كما صنع ابن المعتز في تاريخ الخليفة المعتضد ، وأبان اللاحق في بعض أبواب من الفقه ، فهو يقول مثلاً :

الخلفاء الراشدون أربعه مرضية سنهم متبعه
العمـران وابن أروى وعلى في الذروة السماء والأوج العلى

بيد أنه أبدع أيما إبداع في منظومته « صقر قريش » وهي موشحة رائعة نظمها على غرار موشحة ابن سهيل الأندلسى شاعر إشبيلية المعروف . ولعل

(١) انظر مقدمة الدكتور هيكل للجزء الأول من الشوقيات .

البحر الذي كان يعيش فيه وهو الأندلس قد ذكره بهذه العهود الغابرة التي أسس فيها عبد الرحمن الداخل دولة زاهرة في الأندلس ، فجاءت الموشحة من قرارة نفسه آية في الروعة والجمال . وقد صور فيها شوقي قصة هذا المغامر العربي الجريء تصويراً بديعاً حقاً ، وهي قريبة الشبه بأندلسيته المشهورة :

يا نائح الطلح أشباه عوادينـا نأسي لواديك أم تأسي لوادينـا

مهما يكن من شيء فإن مجال القول لا يتسع للحديث بإسهاب عن شوقي الشاعر الفنان المؤرخ ، ولكني أحب أن أقرر أن حافظاً لم يستطع أن ينهض ليحاذى شوقي في معارض التاريخ ، بل كان في السفح وزميله في القمة .

الوطنيات

كان الشرق العربي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين يتوثب للنهوض والتحرر من أغلال الاستعمار بعد أن مضت عليه فترة غشيته فيها سحب من الاستكانة والحمول والتواكل حتى لقد قال أحد زعماء الشرق : « لقد نزلت هذه الأمة منزلة من الحمول هبطت بها إلى مصاف العجماوات حتى خشيتُ أن يخطئها البعث في يوم البعث » (١).

وكان لا بد للشعراء أن يحملوا العبء الأكبر في استنهاض الهمم وإيقاظ الشعوب العربية من غفوتهم التي طال ليلها، لأن الصحافة في ذلك الوقت كانت لا تزال غضة العود لا تقوى على النهوض بهذه الرسالة . لذلك قامت في كل وطن عربي صيحات مدوية تتفاوت قوة وضعفا ، تفيض بها قرائح الشعراء مترجمين عن آلام أممهم وآمالهم ، وباعثين الهممة القعساء والعزم الحديد في نفوسهم .

وبهذه الروح وجد الشعر العربي باباً جديداً واسعاً يطرقة الشعراء ، فيضيفون إلى أبوابه لوناً جديداً لا عهد للعربية به من قبل وهو الشعر الوطني . ولقد تلفتت مصر إلى شعرائها لتحملهم هذه الأمانة فلبوا نداءها سراعاً . وكان في الرعيل الأول شاعرها الكبيران أحمد شوقي وحافظ إبراهيم .

نعم ، لم يكد هذان الشاعران يبلغان الحلم حتى سمعا صوت « جمال الدين الأفغاني » يوقظ المسلمين من غفواتهم ويهيب بهم أن يحطموا تلك الآصار التي ضربت عليهم . ثم لم يلبثا أن استمعا إلى صيحة الجهاد والتحرير تستجيب لنداء جمال الدين على لسان الشاب مصطفى كامل حوالى سنة ١٨٩٠ ، وقد رددتها

(١) ليالى سطيح ص ١١٤ .

جنبات الوادى ، واستيقظ على صدها ذلك الجليل المستسلم . ثم أصاخ الشاعران إلى صيحات أخر تدوى فى جنبات البلاد العربية والإسلامية داعية إلى التحرر من ضراوة الاستعمار الأجنبى ، ومن الجهل الجاثم فوق الصدور ، ومن الخوف الذى يشبط الغزائم ويقبض الهمم .

نشأ الشاعران إذن فى زمن كل ما فيه يدعو الفرد إلى أداء ضريبة الوطن الأولى وهى الجهاد . وكان من البديهى أن يُسهم الشاعران فى هذا الجهاد على طريقة تُسقط عنهما عبء الجهاد العسير فى السياسة أو فى الجماعات السرية التى تسترخص النفوس فى سبيل استنقاذ الوطن المصرى خاصة والوطن العربى عامة من إसार الرق وأغلال الاستعباد . وكان طريقهما فى هذا الجهاد الشعر الذى يستنهض الهمم ويحث على الجهاد ، وهذا الشعر هو الذى يعرف بالشعر الوطنى أو الشعر القومى .

وكانت هذه البلاد كلها فى ذلك الحين تغلى وتحرك . وكانت مصر ملجأ كل مضطهد ومهاجر كل مظلوم ، وكانت تن تحت نير الغاصب الجبار وتحاول أن تسترد حريتها المسلوبة .

وقد وجد الشاعران إذن الميدانَ فسيحاً لكى يؤدبا لوطنهما ضريبة الجهاد على الطريقة التى قصدهاها .

والآن أحب أن أبين نصيب شاعرنا حافظ فى هذا الجهاد ، وهل أفلح فى تأدية ضريبته على أكمل وجه أم لا . وقبل أن أشرع فى تبيان ذلك أود أن أوضح مفهوم الشعر الوطنى :

يعرف أديب فاضل الشعر الوطنى تعريفاً صادقاً فيقول : « أصل الشعر الوطنى هو الحماسة ، أى أن تكون ناثراً النفس ، جياشاً الفؤاد ، فتصب ثورة نفسك فى بيان يتدفق فى قلوب أبناء أمتك فيثيرهم ويثير أحلامهم ويحيي هممهم ويوقظ نائم أحقادهم ويرفع لهم مثل الحياة الحرة الشريفة العزيزة ويهزم هزاً إلى صراع عدوهم وإن خيف بطشه وجبروته ، ويجب إليهم احتمال الأذى ولقاء

الردى ، والجود بالنفس والمال والولد ونعيم الحياة وراحة الحياة الدنيا^(١) .
 هذا التعريف الحق للشعر الوطنى . والواقع أن حافظاً — فيما أعتقد —
 لم يكن له نصيب يذكر من هذا الشعر . وأظن أنه لم يكن فى طوقه أن يسهم فى
 ميدان الجهاد بهذا اللون من الشعر الوطنى . فقد كان رجلاً فاطر النفس ، خائر
 العزيمة ، مستغرقاً فى هم صغار لا تنزع به إلى ثورة ولا إلى تحريض على ثورة .
 وكان — حتى آخر أيامه — جد حريص على أن يكون مكفى الرزق بسبب ما لاقاه
 من بؤس وضيق فى بواكير عمره .

وكان مما قصر بحافظ عن أن يكون شاعراً وطنياً بالمعنى الصحيح أنه كان
 إنساناً مدعور القلب فى غير ذعر ، ضعيف القدرة على تحمل المشاق وتكاليف
 الجهاد ، كثير الشكوى والنقمة على الزمان ، شديد الجزع إذا أصابه ضرر مهمما
 كان هينا . فقد نشأ فى يتيماً وعاش صدر حياته عالة على خاله كما ذكرنا ،
 فكان فى إنشاده يكتن أنفاسه حذراً ويجمع شعوره تقية ، وبخاصة بعد أن عاد
 من السودان طريداً معاقباً . ولم تفارقه تلك الرهبة التى استولت على مشاعره ،
 فكان شعره يمثل نفساً مقهورة مدعورة مستكينة . وكان إذا جاش بنفسه شعر
 يخشى أن يؤخذ عليه خاف مغبة ذلك وطواه وأبى نشره . ويذكر لنا أستاذنا
 المرحوم الدكتور أحمد أمين أن حافظاً — رحمه الله — أنشده قبيل وفاته قصيدته
 التى مطلعها :

قد مر عام يا سعاد وعام وابن الكنانة فى حماه يُضام

وكانت نحو مائتى بيت يذكر فيها بشاعة حكم إسماعيل صدق عام ١٩٣٢ —
 فأشار عليه بأن ينشر بعضها أو يكتبها أو يملئها أو يحتفظ بها فقال : « إني أخاف
 السجن ولست أحتمله^(٢) » . وله من أمثال ذلك كثير .

وقد ظهر أن معظم هذا الشعر الذى كان يخشى مغبة إذاعته أهون من أن

(١) مجلة الكتاب ص ١٥٧٦ (عدد أكتوبر سنة ١٩٤٧) .

(٢) مقدمة الديوان ص ١٩ .

يخافه إنسان من عامة الناس فضلاً عن شاعر مذكور كان يعتبر نفسه في عداد المجاهدين .

وكان ذعره وخور همته يدفعانه إلى أن يتلمس الطريق التي تقربه من المستعمرين الباطشين ، فكان يختار مناسبات يقول فيها شعراً تبرأ منه الوطنية ولا يدل إلا على أن قائله يطلب السلامة لنفسه من غير أن يكون هناك ما يهدد حياته أو ما يجب توقيه . والعجيب في ذلك أنه كان يعلم — كما كان يعلم غيره — عدم جدوى هذه الزلى الرخيصة ، وأنه لن ينجى من ورأها قليلاً أو كثيراً . ولست أدري لم كان يكذ ذهنه في نظم هذا الشعر التافه .

تموت فكتوريا ملكة بريطانيا — وقد ذقت بلاده شر أنواع البلاء إبان حكمها — فيريها ، مبيناً مناقبها (الغر) ويعزى قومها الذين ساموا بلاده من الخسف والهوان ما شهدته حافظ بعيني رأسه . ومن المؤلم أن هذا الشعر المسف قد نُشر في يناير سنة ١٩٠١ ولم يقرأه إلا قومه المساكين المغلوبون على أمرهم^(١) . ويخلفها على عرش إنجلترا ابنها إدوارد السابع فينبرى شاعرنا يهني ملك المستعمرين الطغاة بقصيدة مطلعها :

لحتُ من مصر ذاك التاج والقمر
فقلتُ للشعر هذا يوم من شعرا^(٢)

وهي قصيدة مليئة بالكلام الغث المزدول فيه خنوع وتصاغر أمام المستعمر ، وفيه تشييط لطم الشباب وتحطيم لآمالهم في الجهاد ، وفيه إلى جانب ذلك مدح للإنجليز وإشادة بعظمة دولتهم التي لا يجسر أحد على مناوأتها ، لأن الأقدار تجري بما تشاء :

من ذا يناويك والأقدار جارية
بما تشائين والدنيا لمن قهرا

وما أشقّ على نفس المصري أن يقرأ شعر « شاعر النيل » فيجده انهياراً مخزياً أمام الإنجليز ؛ فإذا ابتسمت لنا إنجلترا سعدنا ودان لنا الدهر ، وإلا فالويل

(١) اقرأ القصيدة في الديوان ١٣٦/٢ .

(٢) الديوان ١٨/١ .

لنا إن كشرت عن أنيابها :

إذا ابتسمت لنا فالدهر مبتسم وإن كشرت لنا عن نابه كشرا

ثم يصف الإنجليز بالعدل الذى مكن لهم فى الأرض :

ما ثلَّ ربك عرشاً بات يحرسه عدل ، ولا مَدَّ فى سلطان من غدرا

فأى عدل رآه حافظ من الإنجليز ؟ لعله لم ير ما تعانيه الأمم الخاضعة لهم من ضروب الظلم والهوان . ولعله قد رأى فى هذا الظلم رعاية كريمة منهم للبشر حين يقول :

اليوم يلثم تاجُ العز محتشماً رأساً يدبر مُلكاً يكلأ البشر

وما أعجب أمر حافظ حين يقرن (عدل) إدوارد السابع عند الإنجليز بعدل الفاروق عمر عندنا :

هم يذكرونك إن عدوا عدولهم ونحن نذكر إن عدوا لنا عمرا

وقد نشر حافظ هذه القصيدة فى أغسطس سنة ١٩٠٢ ، أى فى وقت لم يكن يشغل فيه وظيفة ما ، يخشى أن يصاب فيها ؛ فقد ترك وظيفته العسكرية سنة ١٩٠٠ وعين فى دار الكتب سنة ١٩١١ .

وتحدث حادثة دنشواى فى ١٣ يونية سنة ١٩٠٦ فيهتر لها ضمير العالم كله جزعا ، وتغلى نفوس المصريين حقداً على الإنجليز ، ويدوى صوتُ الزعيم الشاب مصطفى كامل فى الحافقين كالرعد القاصف مندداً بوحشية الإنجليز ، فينبى حافظ الشاعر (الوطنى) — وهو فى فورة العزم وحُمى الشباب — آخذاً بنصيبه مع الحانقين ، وينظم قصيدة كلها لين وعتاب رقيق ، وتحس فيها بأن الشاعر يقف من القساة المحتلين موقف الذلة والاستجداء ، مذكراً إياهم (بولاء المصريين) لهم :

أيها القائمون بالأمر فينا هل نسيتم ولاءنا والوداد^(١)

ويرجوهم أن يحسنوا القتل إذا ضنوا بالعفو :

أحسنوا القتل إن ضنتم بعفو أقصاصاً أردتم أم كياداً ؟
أحسنوا القتل إن ضنتم بعفو أنفساً أصبتم أم جماداً ؟

وقد بلغ من تطامنه أن وجه اللوم إلى مواطنيه الذين اتَّهموا ظلماً في هذه الحادثة وقتل منهم من قتل وعذب منهم من عُذب من غير ذنب أو جريرة مع أن الحق كان ينطق ببراءتهم :

جاء جهالنا بأمر وجثم ضعف ضعفيه قسوة واشتدادا
كيف يحلو من القويّ التشفي من ضعيف ألقى إليه القياداً -
أكرمونا بأرضنا حيث كنتم إنما يُكرم الجواد الجوادا
أمة النيل أكبرت أن تعادى من رماها وأشفقت أن تعادى

فمن هم (جهالنا) الذين يشير إليهم حافظ ؟ إنهم مواطنوه البراء من تهم الإنجليز ومن تهم حافظ نفسه . وماذا يعنى حافظ بقوله « من ضعيف ألقى إليه القياداً » ؟ فهل ارتضينا أن نسلم قيادنا إلى المستعمرين ؟ إن حافظاً يعلم أننا غُلبنا على أمرنا فسلبونا استقلالنا على الرغم منا وقبضوا على أزمة أمورنا . والقصيدة كلها من هذا الطراز الغث الذي لا يبعث في النفوس ثورة ضد مظالم المستعمرين .

ومن الذي يقول هذا الشعر ؟ إنه ضابط بالجيش ، الذي كان أولى به أن تمتلئ نفسه بفورة التضحية والفداء . إنه علم من أعلام الشعراء الذين يُنتظر منهم التوجيه السليم والقُدوة الحسنة . إنه حافظ إبراهيم الذي لم يكن صاحب ذرية ضعاف يخشى عليهم البؤس والتشريد . ومن غريب الأمر أن أستاذه البارودي يقرّظ الجزء الأول من ديوان تلميذه فيصفه بالشجاعة والإقدام قائلاً :

لا زال يبلغ شأو كل فضيلة بمضاء صمصام وصوله بازى

يلوم اللائمون شوقى لأنه لم يعرض لهذه الحادثة إلا بعد مرور سنة . وهو — فى نظرى — قد سلك مسلكاً أكرم من مسلك حافظ ، لأنه لاذ بالصمت حتى تحين فرصة للقول ، وقد صدق النبى الكريم حين قال : « رحم الله امرأ قال خيراً فغنى أو سكت فسلم » .

كان هذا شأن حافظ مع الإنجليز ؛ العتاب الرقيق الذى يوجهه صديق لصديق لم يأت فى حق الصداقة أمراً إداً . فى حين أنه قسا قسوة مريرة على (المدعى العمومى) المصرى وتهكم عليه تهكماً لا ذعاً :

أيها المدعى العمومى مهلاً بعض هذا فقد بلغت المراد
قد ضمنا لك القضاء بمصر وضمنا لنجلك الإسعادا
إيه يا مدره القضاء ويا من ساد فى غفلة الزمان وشادا
أنت جلادنا فلا تنس أنا قد لبسنا على يديك الجدادا .

وكان المستعمرون الطغاة أولى بهذه السهام لأنهم أسّ البلاء ، فهم الذين أفسدوا الضمائر والنفوس وبثوا فيها روح الملق والإسفاف . وأدهى من ذلك أن شاعر النيل ينظم قصيدة يستقبل بها (كرومر) عاهل الاحتلال عند عودته من مصيفه بعد حادثة (دنشواى) ويستفتحها بتحيةة اللورد ، ويعاتبه عتاباً يسيل رقة :

قصر الدبارة هل أتاك حديثنا فالشرق ريع له وضج المغرب^(١)
أهلاً بساكنك الكريم ومرحباً بعد التحية إننى أتعجب

ومن المؤلم أن يذكر أن اللورد هو الذى علمنا الحياة فيقول :

علمتنا معنى الحياة فما لنا لا نشرب لها وما لك تغضب

نعم ، لقد علمنا (كرومر) الحياة ، ولكنها حياة الخنوع والذلة والاستسلام ،
هذه الحياة المتطامنة التي أُجبلت عليها نفس حافظ . أنا على يقين من أن حافظاً
كان يؤمن في قرارة نفسه بأن الإنجليز قد (علمونا) الجهل والانقسام والتهافت
على الدنيا حتى ذهبت ريحنا وأصبح كبراًؤنا وأولو الأمر فينا براذع لكرومر
وأعوانه من ذوى الوجوه الحمر .

ويتوسل حافظ في ذلة وانكسار إلى (اللورد) أن يرفق بنا وأن يذكر ولاءنا
لهم ، فلعل هذا الولاء يشفع لنا عنده في حسن المعاملة :

رفقاً عميد الدولتين بأمة	ضاق الرجاء بها وضاق المذهب
رفقاً عميد الدولتين بأمة	ليست بغير ولأها تتعذب
كن كيف شئت ولا تكل أرواحنا	للمستشار فإن عدلك أخصب
فاجعل شعارك رحمة ومودة	إن القلوب مع المودة تكسب

يا لها (من نصائح غالية) يزجها هذا الشاعر الوطني إلى عميد الاحتلال
الطاغية (صاحب العدل الأخصب) الذي لم تسلم من بوائقه زاوية في أرض
مصر !

وليت حافظاً يكتفى بذلك ويمسك لسانه عن القول ، ولكنه يرمى أمته بكل
نقيصة ، وكأنه لم ير هدفاً لهجائه إلا مواطنيه المساكين ، فيخاطب (اللورد)
قائلاً :

وإذا سئلت عن الكنانة قل لهم	هي أمة تلهو وشعب يلعب
واستبق غفلتهم ونم عنهم ثم	فالناس أمثال الحوادث قلب

ولست أشك في أن حافظاً لم يرغب عنه أن الإنجليز هم سبب هذا الانحلال
وذلك اللهو ، فهم أحق بهجائه من شعب مصر البائس . ولكنه ترك هجاء الأعداء
وأخذ يهجو أمته لتكون كلماته عوناً للمستعمر في تثبيت أقدامه حين تنتشر
وتجرى على ألسنة المنافقين وحشوة الأمم ممن نزلوا أرض مصر مع الاحتلال

ابريطاني . . . وحافظ هو صاحب البيت المشهور الذى يؤذى الآذان من قصيدة نظمها سنة ١٩٠٠ .

إذا شئت أن تلقى السعادة بينهم فلا تك مصرياً ولا تك مسلماً^(١)

وحافظ هو القائل فى سنة ١٩٠٤ يهجو أمته ويقرعها :

فما أنت يا مصر دار الأريب	ولا أنت بالبلد الطيب
يقولون : فى النشء خير لنا	وللنشء شرٌّ من الأجنبي
(وكم ذا بمصر من المضحكات)	كما قال فيها أبو الطيب
أمورٌ تمر وعيش يُمر	ونحن من اللهو فى ملعب
وشعب يفر من الصالحات	فراراً السليم من الأجرب
وقالوا : دخیلٌ عليه العفاء	ونعم الدخیل على مذهبي
ألفنا الحمول ويا ليتنا	ألفنا الحمول ، ولم نكذب ^(٢)

فما الذى يعنيه حافظ بمثل هذا الشعر ؟ إن كان يريد التقرع لاستنهاض الهمة واستثارة الحمية فما أبعد عن الصواب ! إن مثله كمثل المدرس الذى يظل يوبخ تلميذاً مهملاً ، ويكثر من توبيخه بحق وبغير حق حتى يتبلد إحساسه ويصبح التوبيخ لا جدوى منه . أو كمثل خطيب المسجد فى القرى فى الزمن الغابر . . . كان جلّ همّه أن يوجه إلى المصلين السباب المرّ حول عصيانهم لله وتنكّبهم جادة الهدى من غير أن يبصرهم بأمر دينهم بطريقة تؤثر فيهم ، فكان الكلام يصل إلى آذانهم دون قلوبهم ولا يتصححون به أو يتأثرون .

لقد كان الأخلق بحافظ أن يشجع مواطنيه ويستحثهم على استنقاذ وطنهم من ربة الاحتلال ، مذكراً إياهم بمجدهم الغابر وماضيهم السالف كما كان يصنع زميله شوقي . فالفرق بين الشاعرين أن شوقي يصور لنا من حياتنا ناحية الكبرياء الجريئة ، لأنه كان يشعر بالكرامة الوطنية ويحاول أن يشدّ العزائم

(١) الديوان ١١٤/٢ .

(٢) الديوان ٢٥٦/١ .

ويحشد الهمم . أما حافظ فهو يصور لنا ناحية الثورة الهزيمة والنفوس الحائرة ،
وصدق من قال : إن حافظاً نفسه كان أشد على مصر من هذا النشء الذى
ذمه ، وإنه ابن هذا الشعب الذى يفر من الصالحات^(١) .

ولما أقضت صبيحات الزعيم مصطفى كامل مضجع الطاغية « كرومر »
واضطر إلى الاستقالة سنة ١٩٠٧ بعد حادثة دنشواى ودفعه حافظ بقصيدة فيها
إطراء لسياسته واعتراف (بفضله على المصريين) بدأها بقوله :

فى الشعر هذا موطن الصدق والهدى فلا تكذب التاريخ إن كنت منشدا
لقد حان توديع العميد وإنه حقيق بتشجيع المحبين والعدا
فودّع لنا الطود الذى كان شامخاً وشيّع لنا البحر الذى كان مزبدا^(٢)

ثم أخذ يعدّد (أيادى اللورد البيضاء) ، هذا الذى كان يرى فيه حافظ
(ذلك المصلح المتوددا) ، فيخاطبه قائلاً :

سنطرى أياديك التى قد أفضتها علينا فلسنا أمة تجحد اليدا
أمنّا فلم يسلك بنا الخوف مسلماً ونمنا فلم يطرق لنا الذعر مرقدا
وكنّت رحيم القلب تحمى ضعيفنا وتدفع عنا حادث الدهر إن عدا

فأى شيء يريده الإنجليز أكثر من هذا الكلام فى تبرير الاحتلال
وتثبيته ؟

والغريب أن حافظاً يتنصل من إبداء رأيه الصريح فى سياسة هذا الطاغية ،
وهو الشاعر الذى كان خليقاً به أن يكون قدوة لمواطنيه فى تأجيج ضرام الثورة
ضد المستعمرين وصب اللعنات عليهم . وكان يرى أن الشاعر لا يجوز له أن
يدخل فى غمار السياسة ، وحسبه أن يسجل التاريخ ويخلد الأعمال :

ولو كنت من أهل السياسة بينهم لسجلت لى رأياً وبلغت مقصدا
ولكننى فى معرض القول شاعر أضاف إلى التساريخ مجداً مخلدا

(١) مجلة الكتاب ص ١٥٧٢ (أكتوبر سنة ١٩٤٧) .

(٢) الديوان ٢٦/٢ .

وقد ختم القصيدة بتحية كريمة يزجها إلى عاهل الاحتلال :

فيأيها الشيخ الجليل تحية وبأيها القصر المنيف تجلدا
لئن غاب هذا الليث عنك لعله لقد لبثت آثاره فيك شهدا

أما شوقي فقد ودع « كرومر » بقصيدة رائعة كلها سخط على الرجل وتنديد^{*}
بسياسته وشماته به وتشهير^{*} بأعمال الإنجليز يقول فيها :

لما رحلت عن البلاد تهدت فكأنك الداء العياء وبيللا
أنذرتنا رقاً يدوم وذلة تبقى وحالا لا ترى تحويلا
أحسبت أن الله دونك قدرة لا يملك التغيير والتبديلا
قالوا جلبت لنا الرفاهة والغنى جحدوا الإله وصنعه والنيللا
فأرحل بإذن الله جل صنيعه مستعفياً إن شئت أو معزولا
إنا تمنينا على الله المنى والله كان ينيلهن كفيلا^(١)

وينحيل إلى^{*} وأنا أقرأ قصيدة حافظ أنه كان يقول وهو يتلفت وراءه خشية
أن يعود (اللورد) ويبطش به .

ربما كان حافظ يعتقد أن الملاينة والإطراء بدعوان المحتلين إلى أن يردوا
إلينا بعض حقوقنا . ولكنه كان يعلم كما يعلم سائر المصريين أن الحقوق لا تُرد^{*}
إلى ذويها إلا بالجهاد ، سواء أكان هذا الجهاد بالسيف أم بالقلم . ولا شك أن
حافظاً قد أدرك أن جهاد مصطفى كامل قد أثمر ثمرته المرجوة بعزل جبار الاحتلال
عقب حادثة (دنشواي) المشثومة . ولو سلك معهم سبيل حافظ لما جنت البلاد
إلا الفشل والخسار .

ويظن بعض الناس أن حافظاً كان يسلك هذا المسلك أملاً في أن يحقق
صالحاً خاصاً له . وقد يكون هذا القول صحيحاً . ولعل أهون ما يقال في هذا الاتجاه
المريب أنه ينم عن ضعف في المنة وخور في العزيمة .

وقد دافع بعض الأدباء عن موقف حافظ هذا بأنه « لم تتوافر له أسباب الحرية التامة ومقوماتها بالقدر الذى توافر لشوقي . فهو كان يعمل مضطراً فى أحيان كثيرة على أن تكون علاقته بذوى النفوذ والسلطان حسنة ما استطاع ^(١) » . وهذا الكلام فيه طعن صريح فى وطنية حافظ ، لأنه كان يتخذ مدح الإنجليز الذين أذلوه واستذلوا مواطنيه سُلماً للتقرب منهم طمعاً فى صالح ذاتى أو خشية أن يلحقه أذى .

ويستطرد هذا الكاتب فيقول : وشاعرنا لم يكن على اتصال وثيق بالحديو الذى كان يناصبه (اللورد كرومر) العداة كما كانت الحال مع شوقي . ويأتى أخيراً ذلك الاعتبار الذى ذكره حافظ نفسه فى قصيدته من أنه فى ذلك الموقف ليس من أهل السياسة ولكنه مؤرخ للحقيقة المنصفة البعيدة عن الهوى والغرض . وفى هذا القول يشير الكاتب إلى سر الموقف النبيل الذى وقفه شوقي من وداع اللورد . على أن دفاعه عن حافظ قد زاد موقف الشاعر سوءاً . فمثله كمثل الدبة التى رأت ذبابة حطت على وجه صاحبها وهو نائم فقدذفها بحجر حطم رأسه وقضى عليه .

فهل يُسأغ من حافظ أن يعرض عن نقد طاغية الاستعمار (كرومر) لأنه أى (كرومر) يناصب الحديو العداة ؟ لقد كان الأجدر به أن يتخذ من هذه الحال القائمة بين اللورد والحديو ما يشد أزره لمهاجمة عدو الوطن . ألا رحمك الله يا حافظ ، فهل ران على قلبك ركام من النسيان فنسيت أو تناسيت ما ذاقه المصريون على يد هذا الطاغية الجبار ؟ وهل من التأريخ « للحقيقة المنصفة البعيدة عن الهوى والغرض » أن تثنى على من أذاق مواطنيك ألواناً من الظلم والهوان ؟ .

والواقع أنك تتبين هذا الاتجاه المزرى من حافظ فى كثير من قصائده ؛ فقد استقبل « مكهمون » المعتمد البريطانى الحديد بقصيدة كلها إشادة بعدل الإنجليز ونبل أخلاقهم ، وفيها استجداء مسفّ يكاد يجعل الأنف فى الرغام .

(١) انظر كتاب « حافظ إبراهيم الشاعر السياسى » للأستاذ روفائيل مسيحة ص ٧٧ .

ذلك أنه كان من خلق حافظ أن يميل مع من يواليه من العظماء في أى اتجاه من غير أن يستبين وجه الحق والصواب . فلما أرسلت انجلترا (السير مكماهون) أول مندوب سام يحكم مصر تحت ظل الحماية لما شب ضرام الحرب العالمية الأولى - استقبله وكيل الجمعية التشريعية في محطة مصر يوم ٩ من يناير سنة ١٩١٥ مع لفيف من العظماء وكبار رجال الدولة . فلما رآه يترجل من القطار قال على مسمع من الحاضرين : إن دلائل الخير بادية على وجهه^(١) ، وكان حافظ محسوباً في بطانة وكيل الجمعية هذا . فلم تكد تمضى أيام حتى نشر حافظ هذه القصيدة يخاطب بها المندوب الجديد ، وقد بدأها بقوله :

أى (مكماهون) قدمت بالـ	قصد الحميد وبالرعاية
ماذا حملت لنا عن المـ	لك الكبير وعن (غرايه)
أوضح مصر الفرق ما	بين السيادة والحماية ^(٢)

واسمع قوله منها يخاطب الإنجليز :

أنتم أطباء الشعو	ب وأنبل الأقاليم غايه
أنى حللتم في البلا	دلكم من الإصلاح آيه
رسخت بنايه مجدم	فوق الروية والهدايه
وعدتم فلكتم الـ	لدنيا وفي العدل الكفايه
إن تنصروا المستضعفـ	ين فنحن أضعفهم نكايه

فقل لى بالله عليك ؛ ماذا بقى لبريطاني من قول يقوله في تسويغ الاحتلال وفي تأييد دعواهم العريضة (الإصلاحية) التى يدعونها على كل شعب وقع تحت سنايك استعمارهم الغشوم ؟

أنا على يقين من أن حافظاً كان يعلم حق العلم أنهم ليسوا (أنبل الأقاليم غايه) ، وأنهم ليسوا (أطباء الشعوب) كما يقول ، ولكنه رجل تنطوى نفسه على

(١) صحيفة المقطم ١١/١/١٩١٥ .

(٢) الديوان ٨٢/٢ .

الذعر والاستسلام . ويخيل إليك - وهو يخاطب مكهمون - أنه يخاطب ولي الأمر في مصر الذي بيده العقد والحل كما يقول أحد المدافعين عنه^(١) .
ويعن حافظ في اتجاهه هذا إمعانا مزريا حتى إنه يدعو السلطان حسين إلى أن يوالى الإنجليز وأن يوادهم وأن يتعاون معهم ، لأنهم يخلصون لنا الود وينصروننا إذا استنصرناهم ؛ يقول من قصيدة يهني بها السلطان بالسلطنة سنة ١٩١٥ :

ووال القوم لأنهم كرام	ميامين النقية حيث جلسوا
لهم "ملك" على التاميز أضحى	ذراه على المعاني تسهل
وليس كقومهم في الغرب قوم	من الأخلاق قد نهلوا وعسلوا
فإن صادقهم صدقوك ودأ	وليس لهم إذا فتشت مثل
وإن شاورتهم والأمر جد	ظفرت لهم برأى لا يزل
وإن ناديتهم لبأك منهم	أساطيل وأسيف تسل
فمادد هم حبال الود وانهمض	بنا فقيادنا للخير سهل ^(٢)

ومهما قيل من أن الظروف الاستثنائية التي كانت تكتنف مصر آنئذ هي التي دعت حافظاً إلى ألا يقول غير هذا ، فلن تغتفر له الوطنية المصرية مثل هذا الشعر الغث . وكان في استطاعته أن يخلد إلى الصمت ولا تثريب عليه ، فالصمت أذكى وأكرم من شعر يقبض الأفئدة ويغشى النفوس .
وكان حافظ داعية يأس وقنوط ، يشبط عزائم المصريين ويقعدهم عن الكفاح ويحطم آمالهم في النهوض بوطنهم ، ويطلق في نفوسهم جذوة الوطنية المتأججة . . . اقرأ قوله لما رأى العلم البريطاني يخفق على مدينة الخرطوم :
دعاني وما أرجفتم باحتماله فإني بمكر القوم (شيق) زمانى^(٣)

(١) حافظ إبراهيم والشاعر السياسي ص ٧٨ .

(٢) الديوان ٦٧/١ .

(٣) شق (بكسر الشين) : كاهن عربي قديم اشتهر بمعرفة الغيب ، وكان في زمن كسرى أنو شروان .

وأكبر ظنى أن يوم جلاّتهم ويوم نشور الخلق مقترنان
إذا غاضت الأمواه من كل مُزبد وخسرت بروج الرجم للحدثان
وعاد زمان السمهرى وربّه وحكمّ في الهيجاء كل يمانى
هناك اذكّرا يوم الجلاء ونبيّها نياماً عليهم يندب الهرمان^(١)

وزعم كاتب فرنسى فى سنة ما أن جلاء الإنجليز سيكون فى أكتوبر من نفس السنة ، فعلق حافظ على ذلك بهذين البيتين اللذين يدلان على نفس ممتلئة باليأس :

كم حددوا يوم الجلاء الذى أصبح فى الإيهام كالمحشر
وسنّ قوم الطيش من جهلهم كذبة (إبريل لأكتوبر)^(٢)

فحافظ — كما ترى — يصور لنا ناحية الثورة الهزيمة والنفوس الحائرة . ولم يكن حال شوقى (شاعر السراى) كحال حافظ (شاعر الشعب) . فقصائد شوقى تمور بنفحات الوطنية المتوفرة ، حتى قصائد المديح التى كان يُزجها للخديو ، لا تخلو من ترديد لمجد مصر التليد والتفاؤل بزوال غمامة الذل عنها وإقالة عثرتها ، واستعادة الاستقلال الأثير فى كل القلوب . وكان شوقى يمزج ذلك بنفحات من روحه العالى ليملأ القلوب ثقة فى المستقبل الباسم ، ويصور ما يجيش فى قلوب أهل عصره من الآمال . أما حافظ فمسلكه يدعو إلى العجب . فأنت لا تسمع من «شاعر الشعب» بيتا يحى فى نفوس المصريين أملا طالعا ، أو يدعوهم إلى تضحية أو جهاد . وإذا اضطره الموقف إلى أن يستحث المصريين على المطالبة بحق من حقوقهم رجاهم أن يترفقوا فى الطلب ، كقوله من قصيدة أنشدها فى الحث على تعضيد مشروع الجامعة :

لا تهجعوا إنهم لن يهجعوا أبداً وطالبوهم ولكن أجملوا الطلبة^(٣)

(١) الديوان ٥/٢ .

(٢) الديوان ١٠٩/٢ .

(٣) الديوان ٢٧٢/١ .

فالفرق بين الشاعرين - كما ترى - كبير جداً ؛ فشوقي كان يناجي أحلام الماضي وآمال المستقبل ، ويُهيب بالهمم أن تستيقظ ويصدق بالعفو عما فات والتأهب لما هو آت . في حين كان حافظ قابعا في ثلة من أصحابه أو قاصداً أبواب عظماء زمانه ، يمدح هذا ويحجى ذاك . ومن الغريب أنه مدح شاعر الثورة العراقية (البارودي) عام ١٩٠٠ ورثاه عام ١٩٠٥ ولم يشر إلى موقفه من الثورة ودوره فيها ، ولم يذكر من مواقفه الحربية إلا يوم (كريد) في الحرب العثمانية اليونانية .

حقاً إن حافظاً كان يصور الجانب الهزيم المخطوم من مصر . . . ذلك الجانب الذي أرهبه يوم الإسكندرية ويوم التل الكبير ، ورزق عليه شبحُ الدعر من القوة الغالبة ، حتى كاد - وهو يرتعد فرقاً - يلثم اليد التي تمتد إليه بالسيف على حد تعبير أحد الأدباء .

والحق أن بؤس حافظ قد طبع وطنياته بطابع خاص هو طابع التشاؤم والضعف والقنوط وتحطيم مجاديف الجهاد .

وأحياناً يستبين طريق الرشد ، فيبث الأمل في نفوس المصريين وأهل الشرق ، كقوله من قصيدة أنشدها في مدرسة مصطفى كامل :

فدينسالك يا شرق لا تجسزعن	إذا اليوم ولّى فراقب غدا
فكم محنة أعقت محنة	ولت سراعاً كرجع الصدى
فلا يوتسك قيلُ العداة	وإن كان قила كحز المدي ^(١)

ويحسن الظن بالنشء فيقول من نفس القصيدة :

فيأياها الناشئون اعملوا	على خير مصر وكونوا يدا
ستظهر فيكم ذواتُ الغيوب	رجالا تكون لمصر القدا

وينبثق في نفسه فجر الأمل وتقوى ثقته بالأمة المصرية فيقول مخاطباً سعد

زغلول من قصيدة وقد تهيأ لمفاوضة الإنجليز سنة ١٩٢٤ :

فاوض فخلفك أمة قد أقسمت ألا تنام وفي البلاد دخيل
عزل ولكن في الجهاد ضراغم لا الجيش يفرعها ولا الأسطول^(١)

ويث الحماس في نفوس الشباب ليستعيدوا مجد بلادهم الغابر فيقول من
قصيدة يحكي بها العام الهجري (عام ١٣٢٨ هـ ١٩١٠ م) :

أهلا بنابتة البلاد ومرحبا جددتم العهد الذي قد أخلقا
لا تيأسوا أن تستردوا مجدكم فلبت مغلوب هوى ثم ارتقى
فتجشموا للمجد كل عزيمة إني رأيت المجد صعب المرتقى
من رام وصل الشمس حاك خيوطها سببا إلى آماله وتعلقا
عار على ابن النيل سباق السورى مهما تقلب دهره أن يسبقا^(٢)

ويهم حبا بمصر فيقول من قصيدة نظمها سنة ١٩٠٩ بمناسبة محاولة مد
امتياز شركة قناة السويس أربعين سنة أخرى :

وما أنا والغرام وشاب رأسى وغال شبابي الخطب الجسام
لعمرك ما أرقى لغير مصر ومالى دونها أمل يرام^(٣)

ويستهل قافيته المشهورة بقوله :

كم ذا يكابد عاشق ويلاقى فى حب مصر كثيرة العشاق
إني لأحمل فى هواك صباية يا مصر قد خرجت على الأطواق^(٤)

ونحن لا نجرد حافظاً من الوطنية ، ولا نشك فى أنه كان يحب وطنه حباً
جمماً ، وقصائده التى ذكرنا طرفاً منها شاهدة على ذلك ، وكلها تفيض حباً

(١) الديوان ١ / ١١٠ .

(٢) الديوان ٢ / ٥٨ .

(٣) الديوان ٢ / ٥٣ .

(٤) الديوان ١ / ٢٧٩ .

للوطن وإشفاقاً على مصيره وأنينا من وطأة المحتل ، ولكنها قصائد ليس لها نهج مرسوم ولا تتوفر فيها عناصر الشعر الوطني الحق الذي حددنا سماته آنفاً ، وكانت تقال في فورة الأمر وعنفوانه فلا تخطئ هدفها في وقتها ، إذ تجد النفوس مهيأة لتلقيها ، أما بعد ذلك فلا تثير في نفوسنا شيئاً من الإعجاب الذي أحس به الناس حين سمعوها أو قرأوها في حينها . فحافظ في حقيقة الأمر قد أنفق في التهدي إلى حقيقة الشعر الوطني الصحيح . ونحن نلاحظ أنه كان يردد دائماً الآراء والأفكار التي كانت تجري على ألسنة الناس ، ولم يكن يأتي بشيء جديد أكثر من أن ينظم هذه الآراء وتلك الأفكار شعراً ، وفي ذلك يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات : فإذا تهيأ (أي حافظ) للشعر أو للنثر عمد إلى الآراء التي تختلج حينئذ في النفوس وتستفيض في المجامع وتردد في الصحف فيجمعها في بALE ويديرها في خاطره^(١) . ومن ثم اشتهر حافظ بأنه شاعر الشعب الذي يعبر عن آلامه وآماله . وإلى هذا يشير المرحوم الأستاذ المازني فيقول : وحافظ عندي لسان العصر الذي عاش فيه وصوت الشعب الذي أنجبه^(٢) . وقد نظم حافظ في جميع المسائل القومية والاجتماعية التي كانت محور أحاديث الناس في زمنه مثل اللغة الفصحى ، والسفور والحجاب ، وأزمات المال ، ومضاربات الأغنياء في سوق القطن ، وأضرار الشركات وغير ذلك . ولكنه كان يسجل هذه الأحاديث ليس غير .

وقد اتخذ حافظ كتاب «ليالي سطيح»^(٣) ميداناً لينفث فيه حقه على الإنجليز^(٣) . وقد أكبر ذلك منه بعض الأدباء واعتبروه نبياً من أنبياء الوطنية . والواقع أن ما ذكره في هذا الكتاب لا يعدو أن يكون وصفاً لسوء حالنا في ذلك الزمن الأغبر ، لا يستنهض همة ، ولا يستثير حماسة ، ولا يترك في النفوس أثراً أكثر من مضمضة الشفاه رثاءً لهذه الحال . أما الدعوة إلى الجهاد وتحطيم عوامل

(١) انظر كتاب (في أصول الأدب) للزيات ص ١٠٩ .

(٢) مجلة أبولو (يولييه سنة ١٩٣٣) ص ١٣٢٨ .

(٣) انظر « ليالي سطيح » ص ٦٨ وما بعدها .

اليأس من النفوس المريضة فلم يُعنَ به حافظ ، ولعله لم يكن من طبعه أن يعنى به .
ومن أشد ما يؤخذ على حافظ تذبذبه وميله حيث تميل الريح ، وذلك فيه
خطر شديد ، لأنه يلعب بعقول الناس ويشككهم في مشاعرهم الوطنية ، وفي
مواقفهم من القضايا السياسية الكبرى . . . كان حافظ لا يمدح الحاكم لشخصه
وإنما يمدح الجالس على الكرسي ، حتى إذا سقط من فوقه لا يتورع حافظ
عن ذمه وإظهار الشماته به . وكان قلبه هذا من الأسس التي قامت عليها دعائم
حياته . . . كان يتحول من الأمر إلى نقيضه ويجهر بذلك في غير ما تخرج
ما دام يتوقع أن هذا التحول يسوق إليه مغنماً أو يقربه من ذوى السلطان . وإن
كنت في ريب من هذا فاسمع قصته مع السلطان عبد الحميد خليفة آل عثمان :
كان عبد الحميد حاكماً مستبداً ، وكان يُحمد كل صوت يطالب بالإصلاح
ولو برز كالنبأة الخافتة ، بوساطة عيونه الأيقاظ المنبئين في جميع أطراف
الدولة . بيد أن هذا الضغط الشديد جعل الجماعات السرية تخرج من غياباتها
وتجهز بمعارضة السلطان الطاغية . وظهر من هذه الجماعات حزب عُرف بحزب
(تركيا الفتاة) ، أنشأه ثلاثة من الشبان المخلصين للوقوف في وجه الطاغوت وحمله
على إعادة الدستور الذي كان قد ألغاه عقب توليه الخلافة لثمة له مقومات الحكم
الاستبدادي المطلق . . . فاضطهدهم السلطان وفرّق جمعهم قیداً وطرّدهم شر
مطرّد . ولما حلت ذكرى عيد جلوسه سنة ١٩٠١ هنأه حافظ بقصيدة مبالها
بالمدح الكاذب والزلفى الممقوتة ، وقد استهلها بهذه الأبيات :

لمحتُ جلال العيد والقوم هُيب	فعلّمني آىّ العلا كيف تُكتب
ومثّل لي عرش الخلافة خطارى	فأرهب قلبي ، والجلالة تُرهب
سلوا الفلك الدوار هل لاح كوكب	على مثل هذا العرش أو راح كوكب
وهل أشرقت شمس على مثل ساحة	إلى ذلك البيت «الحميدى» تنسب ^(١)

وكان حافظ يعلم أن عبد الحميد من شر سلاطين آل عثمان وأشدّهم فسقاً
وجوراً ، ولكنه يقول فيه :

تجلّى على عرش الجلال وتاجه
يَهشّ وأعواد السرير تُرحّب
سما فوقه والشرقُ جِذلان شيقُ
لطلعتَه والغربُ خِذلان يرقب
فقام بأمر الله حتى ترعرعت
به دوحةُ الإسلام والشركُ مجذب

ويهاجم حزب (تركيا الفتاة) هجوماً عنيفاً مشيراً إلى قوة الخليفة وسعة سلطانه فيقول :

فِدَى لك يا (عبد الحميد) عصابة
عصّتُ أمر باريها وحزبُ مذذب
ملكتَ عليهم كل فج ولُجّة
فليس لهم في البر والبحر مهرب
تقاذفهم أيدي الليالي كأنهم
بها مثلٌ للناس في القوم يُضرب
وكم سألوها لثمّ أذيالك التي
لها فوق أجرام السموات مسح
فما بلغوا سؤالاً ولا بلغوا منى
كذلك يشقى الحسائن المتقلب

وتتابعت مدائحُه للسلطان عبد الحميد في كل مناسبة . ولما اضطرتّه الحوادث إلى أن يُعلن الدستور مرة أخرى سنة ١٩٠٨ عاد حافظ يذكر بالحمد هؤلاء الأحرار ويحيي يوم عودتهم إلى الوطن الذي جنى ثمار جهادهم :

يا يومَ عِداد النازحون لأرضهم
يتسابقون لرؤية الأوطان
خلعوا الشباب على البشير وأخلقوا
باللثم عهد خليفة الرحمن
وتعانقوا بعد الذوى كخمائيل
يحلو بهنّ تعانقُ الأغصان^(١)

ويعرّض ببطانة السوء التي كانت توغر صدر السلطان على كل حر أبيّ ويشير إلى ما ينتظرهم من حساب عسير :

ولى زمان المعتدين كما انطوت
حيّل الشيوخ وإمرة الحصيان
وُضِع الكتابُ وسيق جمعهمُ إلى
يوم الحساب وموقف الإذعان
قد جاء يومهم هنا ، وأمامهم
بعد النشور هناك يومٌ ثانى

ثم دالت دولة عبد الحميد وسقط عن عرشه قلب له حافظ ظهر الحزن
ونظم قصيدة بمناسبة خلعه وتولية السلطان محمد الخامس في مايو سنة ١٩٠٩
مطلعها :

لا رعى الله عهدا من جدد كيف أمسيت يا ابن (عبد الحميد) (١)

وفيها يندد بحكم عبد الحميد ويشير إلى ما كان يأتيه من ضروب الفساد
والوان الظلم :

مشبع الحوت من لحوم البرايا ومجمع الجنود تحت البنود

يشير بذلك إلى الذين كان يأمر السلطان عبد الحميد بإغراقهم في مضيق
البسفور . ثم يغمزه غمزات تناقض ما قاله في مديحه إبان سلطانه :

أصبح ما قيل عنك وحق	ما سمعنا من الرواة الشهود
أن عبد الحميد قد هدم الشر	ع وأربنى على فعال الوليد ؟
أصبح بكيت لما أتى الوفاء	دونابتك رعدة الرعيد ؟
ونسيت الآباء والمجد والسؤ	دد والعز يا كريم الحدود ؟

وينصرف عن عبد الحميد وعن دولته الزائلة ، ويستقبل السلطان الجديد :

حيّ عهد الرشاد يا شرق وابلغ	ما تمنيت من زمان بعيد
قد تولى (محمد) الخامس الملا	ك فأعظم بتاجه المعقود
وتجلى في مهرجان تجلى	سيف (عثمان) فيه بالتقليد
وقف الدهر خاشعاً إذ رأى السيد	فين في قبضة العزيز المجيد
طأطى للجلال يا أمم الأر	ض سجوداً ، هذا مقام السجود
علم الله أن عهد (رشاد)	خير فال برد عهد (الرشيد) .

وفي يولييه من السنة نفسها أقيم في حديقة الأزبكية حفل بمناسبة عيد الدستور

وأنشد فيه حافظ قصيدة مطلعها :

أجل هذه أعلامه ومواكبـه هنيئاً لهم فليسحب الذيل صاحبه^(١)
وفيها يصف هؤلاء الوطنيين الذين كانوا في نظره (عصاة متمردين) بأنهم
أبطال مصلحون وحماة للدستور :

فمن يطلب الدستور بالسوء بعدما حمته يد (الفاروق) فالله طالبه
إذا (شوكت) الفاروق قام منادياً إلى الحق لباه (نيازى) وصاحبه^(٢)
ثلاثة آساد يجانبها الردى وإن هي لاقاها الردى لا تجانبه
روت قول (بشار) فثارت وأقسمت وقامت إلى (عبد الحميد) تحاسبه
(إذا الملك الجبار صعر خده مشينا إليه بالسيوف نعاتبه)
رجال من الإيمان ملأى نفوسهم وجيش من الأتراك ظمأى قواضيه

ولا ينسى حافظ أن يعرج على السلطان المنفى (عبد الحميد) فيسلقه بلسان
حديد ، ويخاطبه خطاب الشامت المحقق ، وهو الذى كان بالأمس - فى نظره -
الحاكم العادل الذى (ترعرعت به دوحة الإسلام) . وكان الأجمل به أن يترك
الرجل فى محنته يقاسى مرارة المنفى وآلام الوحشة . ولكن هذا ديدن حافظ الذى
عرف به طول حياته . . . يقول :

يناديه صوت الحق : ذُقْ ما أذقتهم فكل امرئ رهن بما هو كاسبه
هم منحوك اليوم ما أنت مُشته فرد لهم بالأمس ما أنت سالبه
ودع عنك ما أملت إن كنت حازماً فلم يبق للآمال فضل تجاذبه
مضى عهد الاستبداد واندك صرحه وولت أفاعيه وماتت عقاربـه

ثم يمدح الجالس على العرش السلطان (رشاد الخامس) فيقول :

يطيفون بالعرش الكريم وربّه تطيف بهم آلاؤه ومناقبه

(١) الديوان ٤٨/٢ .

(٢) يريد (شوكت ونيازى وأنور) من أبطال حزب (تركيا الفتاة) ، وكان لهم الفضل
الأكبر فى إعادة الدستور .

لتهنى أمير المؤمنين محمداً خلافته فالعرش سعد كواكبه
ستملك أمواج البحار سفينه كما ملكت شم الجبال كتائبه

وظل حافظ يهتبل كل فرصة ليعرض بالسلطان عبد الحميد ويظهر الشماته
به وكأنه عدو لدود قديم ، حتى أفل نجم الخلافة العثمانية .
وهذه المواقف المتناقضة التي كان يضطرب فيها حافظ ترجع - في نظري -
إلى أمرين :

الأول : أنه كان رجلاً تغلب عليه طبيعة الخطيب الشعبي ، ولهذا كان
يميل إلى مجازاة التيارات القوية التي تسيطر على الجماهير . فهو دائماً أبداً يساير
التزعات الشعبية التي تتناقض ولا تستقر على حال .

الثاني : أنه كان رجلاً مذعور القلب ، يرى السلامة في ممالأة ذوى السلطان ،
حتى إذا دالت دولتهم انقلب عليهم وشيعهم بالذم والشماته واستقبل خلفاءهم
بالمديح والإطراء .

وهذا التناقض الصريح يكاد ينفرد به حافظ دون غيره من شعراء عصره .
ولم يكن زميله شوقي كذلك مع أنه كان مرتبطاً بسياسة السراى التي كانت
تلمس القرب من الجالس على عرش الآستانة مهما يكن شأنه . فقد كانت
طبيعة المؤرخ تغلب على شوقي ، ولم يكن يبالي بإرضاء الجماهير قدر مبالاته
بإرضاء النزعة الفنية فيه ، فنية التاريخ وفنية الشعر . ولهذا كان لا يميل مع هوى
الجماهير ، فلا ينقض في يومه ما قاله في أمسه . وقد ظل على وفائه للسلطان
المخلوع (عبد الحميد) الذي أكرم وفادته واستضافه في الآستانة ، فشيعة
بالقصيدة المشهورة التي مطلعها :

سل (يلدزا) ذات القصور هل جاءها نبأ البسودور^(١)

وهي ناطقة بما كان يكنه الشاعر لهذا العاهل الطريد من آيات الوفاء
والتقدير .

* * *

وبعد فإننا نستطيع أن نقول — في غير جور — إن شعر حافظ الوطني
لم يكن طيباً ، بل كان داعية قنوط واستسلام ، وما اتسم منه بنفحات الوطنية
تجده ضئيل الأثر ، إذ لم تتوفر فيه صفات الشعر الوطني الحق الذي يوجب نار
الحماسة في النفوس ويدفع إلى الثورة ضد الغاصب الظلوم في تضحية وفداء .
وما من شك في أن بؤس حافظ وخوفه قد خلقا منه نفساً مريضة تتوجس
الشر من كل شيء ، ولهذا كان يصطنع المداهنة والرياء ويبلغ في ذلك مدى
تبراً منه الوطنية والنفس الأبية كما رأيت .

الشكوى

نشأ حافظ نشأة يكتفها البؤس ويغشيها الشقاء ، فقد قضى أبوه وهو ما يزال
في المهمل صبياً ، وشتت عليه الأيام في مسهل حياته حرباً شعواء تحدثنا عنها
بإسهاب في الفصول السابقة .

ولما أقصى عن عمله في السودان عاد إلى مصر كسير القلب مكلوم الفؤاد ،
وأخذ يبحث عن عمل يرتزق منه فلم يوفق . فصاقت الدنيا أمام ناظريه وأخذ
يشكو ويندب حظه الأسود في هذه الدنيا :

سعبتُ إلى أن كدتُ أنتعل الدما وُعدتُ وما أعقتُ إلا التندما
سلام على الدنيا سلام مودّع رأى في ظلام القبر أنساً ومغماً^(١)
ويقول :

لكنني غير مجود وما فتئتُ يد المقادير تفصيني عن الأرب
وقد غدوت وآمالى مطرححة وفي أموري ما للضب من ذنب^(٢)

وأمثال هذا الشعر كثير . وأغلب الظن أن حافظاً لم يكن جادا في
سعيه ، لأن العمل في ذلك الحين كان مُيسراً لكل من يحمل شهادة ، إذ كان
حملة الشهادات قلة ضئيلة جدا . ولكن حافظاً كان متواكلاً كسلان ، ينشد
عملاً طيباً يقبض منه الراتب الضخم دون أن يكلفه شيئاً من الجهد والعناء .

(١) الديوان ١١٤/٢ .

(٢) الديوان ١١٦/٢ .

ولم يتصل حافظ بسُلطان أو أمير ، وقد حاول أن ينال شيئاً من الخطوة التي نالها شوقي عند الحديو عباس ، فكان يحتفل بمديحه في المناسبات المختلفة ، ويختار لقصائده من القوافي (كل كاسية تاهت بنصرتها في ثوبها القشب) . ولكنه برغم هذا الاحتفال لم يبلغ بقصائده المكانة التي كان يبتغيها . وكان يدافع عن قصر نفسه بأنه شاعر "مقل" ، وأن مدح الملوك يجب أن يخلو من الثثرة . وأحياناً يجب أن يتقرب إلى شوقي فيقول إنه (أى شوقي) لم يترك له قولاً يحاوله : لم يُبق (أحمد) من قول أحاوله في مدح ذاتك فاعذرني ولا تعب

وليس من شك في أن حافظاً كان يشعر بمرارة الحرمان من عطف الحديو وآلائه ، وكانت نفسه تتشوف إلى أن يتيح له شوقي مكاناً ولو ضيقاً لدى صاحب الأمر . وقد انضم هذا الحرمان إلى ألوان الشقاء التي غاناها الشاعر في حياته ، فنجم عن ذلك أن اتسحت نفسه بثوب من الحزن والبرم بالحياة ، فأكثر من الشكوى ، وأخذ يندب حظه في هذه الدنيا ، ورأنت على نفسه مسحة كثيفة من التشاؤم والضيق وضعف الأمل في صلاح حال الوطن ، فجاء شعره مشبهاً لعزائم الشباب ، مصوراً لهم مستقبل وطنهم في لوحة قاتمة الظلال .

وقد سرى هذا الشعور القائم في معظم شعره . حتى الظواهر الطبيعية من موج وبحر وجبل وليل ونهار ، يشهدا فلا تثير في نفسه إلا النواحي الحزينة المظلمة بدل أن تثير فيها الإحساس بالمتعة والجمال .

وهذه النفس الحزينة المتشائمة الساخطة تجيد - من غير شك - تصوير البؤس ومشاركة البائسين . ولم أر شاعراً عربياً في العصر الحديث يحسن وصف مآسى المنكوبين والمكروثين مثل حافظ ، لأنه يصف ما يحسه في حرارة وصدق . وقد استمرراً حافظ عادة الشكوى ، فلم يكف عنها طوال حياته حتى في أيام رخائه وصلاح حاله . . .

كان موظفاً بدار الكتب يتناول مرتباً ضخماً يسيل له اللعاب في ذلك الحين ، وكان هذا المرتب يحقق له كل رغائبه ؛ فلا يضمن على نفسه بما تشهاه ،

ولا يضمن على إخوانه بضمن ما يطعمون وما يشربون ، ولا يستعمل في تنقلاته إلا سيارة الأجرة ، ولا يدخن إلا (السيجار) الفحم ، ويولم الوليمة فينفق فيها بضع جنيهات . . . ومع كل ذلك نراه يشكو البؤس ويكثر من الشكوى ويتلمسها فيما لا يدعو إليها ، بل إنه يطلبها فيما هو خليق بالغبطة والرضا . ويقول الشيخ البشرى عنه : على أنه ما فتى طوال حياته يشكو البؤس ، حتى إذا طالت يده الألفُ جن جنونه أو ينفقها في يوم إن استطاع . فإذا استغلقت عليه أحياناً وجوه الإنفاق عدّ هذا أيضاً من معاكسة الأقدار^(١) .

وليس لدينا من سبباً لهذه الشكوى الدائبة إلا ما يقوله شباب ذلك العصر ممن أصبحوا الآن من كبار المفكرين ؛ فهم يذكرون أن الشكوى كانت بدعة من البدع التي شاعت في أوائل هذا القرن ، وأن حافظاً كان حامل لوائها . . . يقول الدكتور طه حسين : كان البدع في أيام صباى تكلف البؤس وانتحال سوء الحال والافتنان في شكوى الناس والزمان ، وكان ذلك بدعاً في العصر الأول من هذا القرن ، وكان حافظ يذيع هذا البدع ويروجه^(٢) .

ويخبرنا الشيخ البشرى أن حافظاً كان يتخذ الشكوى من البؤس وسيلة لشحذ قريحته وتجويد صناعته فيقول : ولعل هذا من أنه نضجت شاعريته في باب شكوى الزمان ، وقال فيه ما لم يتعلق بغباره شاعر . فهو ما يبرح يطلب البؤس طلباً ويتفقدده تفقداً إيثاراً لتجويد الصنعة والتبريز في صياغة الكلام^(٣) . ثم يذكر الشيخ البشرى بعد ذلك أن الشكوى « كانت دعوة للمرحوم الإمام محمد عبده نحسب أن حافظاً يحققها بيده إذا قصرت في تحقيقها الأيام » . ومعنى ذلك أن كلمة (البؤس) التي كان يرددّها حافظ لم يكن يعنى بها مدلولها المادى المفهوم ، وإنما كان يرمز بها إلى أمر معنوى .

فلم يكن بؤس حافظ منشؤه الحرمان من المال ، لأن الرجل كان موفور

(١) ذكرى الشاعرين ص ٥١ .

(٢) حافظ وشوق لطفه حسين ص ١٠٩ .

(٣) مجلة أبولو (يولييه سنة ١٩٣٣) ص ١٣٢٦ .

الرزق ، يتناول مرتباً كبيراً ويصيب من أصدقائه الأغنياء كثيراً من العطايا والهبات . ولعله لم يكن مملقاً قبل وظيفة دار الكتب إلى الحد الذى يصوره لنا شعره الشاكى ، بدليل أنه تزوج سنة ١٩٠٦ ، وليس من المعقول أن يبنى بزوجة ويجعل من نفسه رب أسرة وهو لا يكاد يجد قوت يومه كما يظن .

وأنا أعتقد أن حافظاً كان يرى نفسه غير حظيظ في هذه الدنيا وهو الذكى الأريب — كما كان يعتقد — بالقياس إلى ما ناله شوقى من مكانة ملحوظة فى السراى أفاد من ورأها ثروة ضخمة . وقد حاول حافظ أن يصل إلى ما وصل إليه شوقى فأخفق . وأراد أن يتقرب من خليفة الآستانة فحيل بينه وبين ذلك . وكان يتطلع إلى عيش أرغد وأرخى مما هو فيه ، ويقول صديقه الأستاذ محفوظ : أنا لا أعدّ بؤسه إلا بؤساً فى الرغبة والطموح . كان فيه خلق الأدباء المتطلعين إلى الترف والحياة الناعمة التى يزعمون أنها من حقوقهم وحدهم ، لأنهم فقهوا جمال الحياة ونعيمها ، ولأنهم فوق الناس فهما وإدراكا ، فهم أحق منهم بكل خير فى هذه الدنيا^(١) .

ولهذا أرجح أن بؤس حافظ كان بؤساً نفسانياً روحانياً ، ولم يكن بؤس المادة والحاجة . أى أن بؤسه ينحصر فى آماله المنهارة وقصوره التى بناها فى الخيال ولعبت بها أيدى الرياح الهوج .

والظاهر أن عادة الشكوى التى لا تنقطع "نحيزة" نجدها فى الشعراء منذ القدم . فالأحوص الأنصارى وأبو العتاهية ومروان بن أبى حفصة وأبو تمام والبحترى والمتنبى كانوا لا يكفون عن الشكوى ، مع أنهم كانوا أغنياء يملكون الكثير ، ويعيشون عيشة ناعمة رطية .

وأياً ما كان الأمر فقد أخذ حافظ يذكر البؤس ويردّد الشكوى فى شعره وفى نثره ، وكأنه كان يجد فى ذلك راحة لنفسه ولعقله . وكان لا يترك مناسبة إلا ذكر البؤس والبائسين وما يلقونه من مغالبة الأيام وعنت الدهر . . . يقول

(١) حياة حافظ إبراهيم ص ١٨١ .

مخاطباً أستاذه الإمام محمد عبده في إهدائه إياه كتاب (البؤساء) : «إنك موثل البائس ومرجع اليأس . وهذا الكتاب — أيدك الله — قد ألمّ بعيش البائسين وحياة اليائسين . . . وقد عُنيت بتعريبه لما بين عيشي وعيش أولئك البؤساء من صلة النسب » . ويفتح المقدمة بقوله : هذا كتاب البؤساء وهو خير ما أخرج للناس في هذا العهد ، وضعه بائس وعربه معربه وهو بائس ، فجاء الأصل والتعريب كالحسناء وخيالها في المرأة . وضعه نابغة شعراء الغرب وهو في منفاه وعربه كاتب هذه الأسطر وهو في بلواه » ، ويبين أن الذي أعانه على تجويد الترجمة اتحاده والمؤلف في الشقاء فيقول : «ولولا أني أشرب بالكأس التي كان يشرب بها ذلك الرجل العظيم لما وصل مبلغ علمي إلى مبلغ علمه . ولما سبح يراعى في قطرة من سيول قلمه . . . ولما حدثتني النفس بتعريب ذلك الكتاب لولا اتحادنا في الألم وتشابهنا في الشقاء » .

ويقول بعضهم إنه كان لحافظ شخصيتان متناقضتان : إحداهما تنطوي على المرح والدعاية حين يتاح لصاحبها أن يلتقي بالناس ، والثانية منطوية على البؤس واليأس حين يخلو الشاعر إلى نفسه . ويستدلون على ذلك بالمداعبات الشعرية التي كان يرسلها إلى أصدقائه من السودان ، وهي مداعبات تم على المرح وخلو البال ، وتخرج أحياناً عن حد التوقر ، مما يدل على أن صاحبها هانىء بحياته في الظاهر على الأقل ، في حين أنه كان يعاني إبان ذلك ألواناً شتى من الضيق والبؤس^(١) .

ومهما يكن من شيء فقد لوّن البؤسُ نفس الشاعر بألوان من الأخلاق لا تكاد تفارقه ؛ فكان يعجب بالبساطة والسذاجة ، ويضيق بالنظام والرسميات ، ويحتفي بمألوف العادات ، ولا يتطلع إلى تقليد الأرستقراطيين . بل كان شعبياً في طبعه وفي حديثه وفي مأكله وفي مشربه وفي نظره إلى الدنيا . كما كان صافياً السريرة نقيها ، حاضر البديهة لماعها .

(١) انظر مداعباته لإخوانه بالديوان «الجزء الأول» ، وبخاصة صديقه محمد البابلي .

الفكاهة

لقد وُهب حافظ رغم بؤسه خفة في الروح وسرعة في الخاطر وحضوراً في البديهة . وقد خلق ذلك كل منه رجلاً بارعاً في الفكاهة وصوغ النادرة وليس من شك في أنه كان يتخذ من ذلك وسيلة للتنفيس عن شقائه وحرمانه .

وكان حافظ في بؤسه صورة صادقة للمصرى الصميم . فإن من أنخص صفات المصرى أنه صاحب نكتة يرسلها في كل وقت وفي كل مناسبة ، وبخاصة في أحلك أيامه العصبية ، بل إنه ينتزع نكاته من الخطوب التي تحدث به . وكذلك كان حافظ يتخذ من بؤسه معيناً لفكاهاته ونوادره .

وقد منحت الطبيعة حافظاً قدرة فائقة على إزجاء الفكاهة اللطيفة والنادرة المستملحة ، فراح يضحك من البؤس ومن الشقاء ومن الأوضاع المقلوبة ومن الأحداث ومن كل شيء .

وكان أعجوبة الأعاجيب في استخلاص النكتة مما يصادفه ، ويقول عنه المرحوم أستاذنا الدكتور أحمد أمين : « كان له ذوق بارع في اختراع النكتة من كل ما يدور حوله ، فما يسمع حديثاً أو يعرض أمامه شيء حتى يدرك موضع الفكاهة منه فيصوغ ذلك صياغة تستخرج ضحك السامعين من أعماق صدورهم وقرارات قلوبهم ، فكان في مجالسه موضع إعجابهم ومنبع سرورهم . يرسل النكتة من بديهة حاضرة فتستخف الوقور وتستهي الرزين . فهو زينة المجلس وبهجة النادي^(١) » . وكان حافظ — إلى جانب ذلك — يحفظ رصيداً

(١) مقدمة الديوان ص ١٦ .

ضعفماً من مُلح العرب وُطرفهم يتحف بها جلاسه فيقبلون عليه في شغف شديد . فلا عجب إذا هويته الأفئدة ، ولا غرو إذا غصت مجالسه بطلاب المتعة والبهجة يلتفون حول رجل « خفيف الظل ، عذب الروح ، حلو الحديث ، حاضر البديهة ، رائع النكتة ، بديع المحاضرة » كما يقول صديقه الشيخ البشري^(١) وكانت سخريته من تصرفات الناس ومفارقاتهم آية في اللباقة والظرف وحضور البديهة . والسخرية أرقى أنواع الفكاهة ، كما تحتاج إلى ذكاء وخفاء ومكر كما يقول صديقنا الأديب الدكتور شوقي ضيف^(٢) . ولحافظ لفتات ساخرة عجيبة تنتزع الإعجاب والضحك وحسبي أن أسوق إليك واحدة منها لتدرك مدى مهارته وسرعة خاطره :

يحدثنا صديقه الأستاذ أحمد محفوظ فيقول : « لما نزلتُ دار الكتب حديثاً التحقتُ بالقسم الأدبي فيها . وكان هذا القسم يتولى يومئذ طبع كتاب " أساس البلاغة " للزمخشري . فجاءنا يوماً مدير الدار ومعه ملزمة من المطبعة مهيأة للطبع الأخير ، ومعه حافظ . وكان المدير لا يحسن شيئاً إلا الخط ، فلو تقدم إليه نابليون وإسماعيل سرى المهندس والدكتور حسين هيكل وغيرهم من الأفاضل المتعالم عنهم قبح الخط — أقول لو تقدموا لسعادته طالبين الالتحاق بأعمال الفراشين والسعاة ، لرفض طلبهم لقبح خطوطهم . .

وجاء سعادته وجمعنا حوله ، وأخذ يقرأ علينا الملزمة المشكولة كلها شكلاً كاملاً ، إلا الأسماء المعروفة التي لا يخطئ في قراءتها طفل في كُتّاب . وكان من سوء حظه ، بل قل من سوء حظي أنا ، أن أول الملزمة كان شعراً ، وأن قائله هو الفرزدق ، وكان الاسم غير مشكول بالطبع . فقال وهو يقرأ علينا ، ويجلس منا مجلس الأستاذ من تلاميذه : قال الفرزدق ، وكسر سعادته الفاء . فلم يستطع غرورى وقلة خبرتي أن يكستا عن هذا الخطأ الذي لا يخطئ فيه

(١) ذكرى الشاعرين ص ١٥ .

(٢) الفكاهة في مصر للدكتور شوقي ضيف ص ١٣ .

أحد ، فرددت قائلاً : الفرزدق بفتح الفاء .

فأنبرى شيخ من الدين قال في شبيههم أبو حيان التوحيدى : « لقد شاخ في الخدائع وتحنك » وابتدئنى قائلاً : « أخرس دا سعادة البك بيمتحننا » . فلم يسكت حافظ الساخر ، بل التفت إلى الشيخ وقال : بس يا أستاذ السؤال ده صعب شوية^(١) .

فحافظ كان مفطوراً على الفكاهة والسخرية . وأخباره مع أمراء الفكاهة في زمانه — وبخاصة إمام العبد ومحمد البابى وعبد العزيز البشرى — معروفة يتفكه بها الناس . ومجالس حافظ في مقهى (متاتيا) وفي مقاهى (باب الخلق والناصرية) يعرفها كل الناس في ذلك الحين ، ونحن لا نزال نتملح بها في أيامنا هذه ، وهى كثيرة لا يحصرها عد^(٢) .

وإنى لذاك طرفاً منها على سبيل المثال : يُروى عنه أنه كان يلبس حلة لا يغيرها ، فقال له أحد أصدقائه : لماذا لا تغير هذه البذلة ؟ فأجاب على الفور : لأن فيها صفتين من صفات الله : القدم والوحدانية .

ومرض أحد أصدقائه وعرف أن عنده المصران الأعور ، وهو عادة في الجانب الأيمن ، وحدث أن أحس حافظ بألم في الجانب الأيسر بعد أن انتهى من زيارة صديقه المريض ، فدخل في وهمه أنه مريض بالمصران الأعور ، فقال له صديق طبيب : إن المصران الأعور لا يكون إلا في الجانب الأيمن ، فقال له : يمكن يكون أعور شمال يا أخى .

وسمع حافظ أن إمام العبد لا يفتأ يذكر أنه هو الذى خلق حافظاً ، فلما التقى إمام بحافظ أسرّ إليه بأنه فى حاجة ملحة إلى مبلغ من المال ذكره له ، فقال حافظ على الفور : « والله يا مولاي كما خلقتنى » .

وأبصره أحدُ أصحاب الصحف الأسبوعية جالساً فى المقهى فأسرع إليه

(١) حياة حافظ إبراهيم ص ١٦٦ .

(٢) انظر كتاب الدكتور شوق ضيف « الفكاهة فى مصر » ص ١٦٧ وما بعدها .

وقال له : إنما كنت أتفقدك لأقترض منك جنيهاً أنا في أشد الحاجة إليه .
فضحك حافظ وقال : « عمرك أطول من عمري » .

وكان شائثه والمتحاملون عليه يعترفون بخفة ظله وحلاوة حديثه . . . فالأستاذ المازني — رحمه الله — يقول إبان حملته القاسية عليه : « وليس لنا عنده كما توهم بعضهم ثأراً نجزيه به ، فإن الرجل ليس بصديق لنا ولا عدو ، ولسنا نحترقه كما توهم آخرون ، ولكن نحترق شعره ونزدري مظاهر نفسه ، فإن الرجل ظريف المحاضرة ، مليح النكتة ، عذب المحادثة . ولا عيب فيه إلا أنه يحاول أن يقول شعراً ويعالج ما ليس في طبعه »^(١) . وغير المازني يشهد لحافظ بالظرف وخفة الروح .

حقاً كان حافظ بهجة المجالس وزينة المحافل ، لا يحتويه مجلس إلا رأته يتنزي تنزياً من ضحك ومن طرب ومن إعجاب . وقد رثاه الأستاذ عباس العقاد على قبره بقصيدة بدأها بقوله :

أبكاءٌ وحافظ في مكان تلك إحدى طوارق الحدثان
كنت أنساً فكيف أمسيت يا حافظ تدمي لذكرك العينان^(٢)

بيد أننا نلاحظ أن شعر حافظ قد خلا أو كاد من الفكاهة التي عرف بها في المجالس والسوامر ، ولا نجد لهذه الروح أثراً في شعره إلا أثاراً قليلة جداً أشبه بالدعابة الخفيفة منها بالنكتة والفكاهة . وسر ذلك — فيما أرى — أمران :

الأول : أنه كان يعتبر الشعر ضرباً من الفن الرفيع يجلب عن أن تشوبه هذه الفكاهات ، أو بعبارة أخرى كان يعدّ الشعر ضرباً من الأدب الأرستقراطي لا يصح أن تدنسه هذه النوادر الشعبية .

(١) شعر حافظ للمازني ص ١٧ .

(٢) ذكرى الشاعرين ص ٢٠٣ .

الثانى : أنه كان ينطوى على حزن دفين بسبب ما عاناه من تنكر الأيام له . ويقول الأستاذ أحمد أمين : « إن طبيعة حافظ كانت مخالفة تمام المخالفة لمظهره الخارجى . كان مظهره الخارجى ضحوكا مرحا ، لا يراه الرأى حتى يضحك من ضحكته ، ولا يكون فى مجلس حتى يملأه سروراً وضحكا ، ولكنه فى أعماق نفسه حزين ، كالشمعة تضىء وهى تحترق ، أو كالممثل يجيد تمثيل دور الضاحك وهو فى نفسه يذوب حشرات » (١) .

فحافظ كان يستعين بالدعابة — كنوع من السخرية بالحياة — لتخفيف حدة الشعور بالبؤس والحزن . فهو يتهمك بالدنيا ويصوغ ذلك فى قالب من الفكاهة التى تحمل أقصى معانى الألم كما عرفنا من تندرته على حلته القديمة . ويقول بعض الأدباء أن بؤس حافظ فى نفسه قد طفح كياله فتحوّل إلى نقيضه ، وقد يما قالوا : إذا زاد الشئ عن حده انقلب إلى ضده . وهذا رأى له وجاهته .

والواقع أن حافظاً كان يجمع بين النقيضين : الحزن والمرح ، فالحزن « قد رسب فى نفسه أيام يتمه ، وأيام فشله فى المحاماة ، وأيام خدمة الجيش ، وأيام تعطله ورزقه القلق الذى كان لا يعرف مورداً ثابتاً . وأما مرجه فقد كان ينبع من طبيعة نفسه ، ومن فلسفة اعتقدها كانت تستقى من سخريته بالحياة وبالناس » (٢) .

على أن أشعاره التى تسرى فيها روح الدعابة لا تكاد تعدو بضع مقطوعات قليلة تُعدّ على أصابع اليد الواحدة ، مثل قصيدته التى قالها فى الدكتور محجوب ثابت رحمته الله . وكان الدكتور — كما يقولون — تطمح نفسه إلى أمرين : وزارة يتولاها ، وفتاة جميلة عريقة غنية يتزوجها . . . يقول حافظ فى مطلعها :

يرغى ويزبد بالقافات تحسبها قصف المدافع فى أفق البساتين

(١) مقدمة الديوان ص ٣٨ .

(٢) حياة حافظ إبراهيم ص ١٩٤ .

من كل قاف كأن الله صورها من مارج النار تصوير الشياطين^(١)

وفيها يصور أحلام الدكتور :

بيت ينسج أحلاماً مذهبه طوراً وزيراً مشاعاً في وزارته
وتارة زوج عطبول خدلجة
يعنى من المهر إكراماً للحينه
تغنى تفاسيرها عن (ابن سيرين)
يصرف الأمر في كل الدواوين
حسنا تملك آلاف الفدادين^(٢)
وما أظلمته من دنيا ومن دين

ومثل قصيدته التي أنشدتها في حفل أقيم بطنطا تكريماً لصديقه المرحوم
« حفي ناصف » لانتقاله من القضاء إلى التفتيش (بنظارة المعارف) ، وفيها
كثير من الدعابات التي تدل على خفة روح حافظ ، يقول منها :

لولا الحياء ولولا	دينى وعقلى وسنى
لقت في يوم حفى	أدعو لسكرة (ينى
لا تنس عيشاً تولتى	ما بين شرح ومتن
ولتى شبابك فيه	ما بين مدّ وغنّ
وذقت من (جاء زيد)	ومن شروح الشُّمْنَى
ومن حواشى الحواشى	على متون (ابن جنى)
مالم تذقك الليالى	قلبن ظهر المحنّ
أيام (سلطان) يلهو	(بمشّه) ويغنى
بيت يقصع مالم	أسمه أو أكنى
يشكو إليك وتشكو	إليه عيشة غبن

(١) الديوان ١/١٨٩ .

(٢) العطبول من النساء : الفتية الجميلة الممتلئة الطويلة العنق . والحدلجة : الممتلئة
الذراعين والساقين .

أيام يدعوك : (حفى) من الحياة أجرنى
هات المسدس إني ستمت (مشى) و (جبنى)
من لي بلدهم لحم عليه حبة سمن
قرمت والله حتى صاحت عصافير بطنى^(١)

ثم أحسن حافظ بأنه قد خلع عن الشعر ثوب الوقار والأرستقراطية بهذه
الدعابات الخفيفة ، فاعتذر عن هذا المزح ، وأخذ يلتقى التبعة على صديقهم
الدكتور (إبراهيم شلودي) وهو شاعر معروف ، وكان قد نظم مقطوعة فى
تكريم حافظ نحا فيها هذا النحو من المزح ، وذكر حافظاً بعهدده السابق فى
الجيش . . . يقول حافظ من نفس القصيدة :

أسرفت فى المزح فاصفح يا سيدى واعف عني
فالذنب ذنب شلودي فالعن (شلودي) ودعني
قد سنّ فينا مزاحاً على الحقيقة يجنى
ذقت الأمرين منه فسل (سليما) وسلنى^(٢)
واسمع مديح محب يطرى بحق ويشئ

ومن دعاباته قصيدة بعث بها إلى أحد أصدقائه وكان معروفاً بشدة شحه :

ولقد عجبت لبخله ولكفه المستحجر
لا يصرف السحتوت إلا إلا وهو غير مخير
لو أن فى إمكانه عيشاً بغير تضور
لاختار سداً الفتحة بن وقال : يا جيب احذر^(٣)

وبعث بأبيات إلى الأستاذ « حامد سرى » فى يوم زفافه يستهديه شيئاً

(١) الديوان ١/١٧٩ .

(٢) يريد (سليم سرکيس) الصحفي المعروف ، وكان من أصدقاء حافظ .

(٣) الديوان ١/١٩١ .

من طعام العرس وثيابا ، وكانا إذ ذاك متجاوزين بالجيزة يقول فيها :

أحمد كيف تنساني وبينى	وبينك يا أخى صلة الجوار
أيشبع مصطفى الحلوى وأمسى	أعالج جوعتى فى كسردارى ^(١)
وييتى فارغ لا شىء فيه	سواى وإننى فى البيت عارى
وما لى جزمة سوداء حتى	أوافيكم على قرب المزار
وعندى من صحابى الآن رهط	إذا أكلوا فآساد ضواري
فإن لم تبعثن إلى حالا	بمائدة على متن البخار
تغطيها من الحلوى صنوف	ومن حمل تتبل بالهار
فإنى شاعر يُخشى لسانى	وسوف أريك عاقبة احتقارى ^(٢)

وتكاد دعاباته كلها تنحصر فى هذه القصائد التى أشرنا إليها . وهى لا تعتبر من أنماط الفكاهة التى تقوم على ما نسميه نحن (بالقفشات) التى تدور حول التورية والمفارقات وتصدر عن بديهة حاضرة وخاطر لماح كان يعرف بهما حافظ . والدعابة أخف ألوان الفكاهة ، وهى فكاهة الذين يعتصمون بالتوقر ، ولا تنتزع من السامعين إلا الابتسام الخفيف ، لا القهقهة والضحك الصاخب .

(١) كان بين الأستاذ مصطفى الحلوى والأستاذ سري صلة نسب .

(٢) الديوان ٢٠٤ / ١ .

الأخطاء والسرقات

شاع في شعر حافظ كثير من الأخطاء ، ولعل لا أجاوز الصواب إذا قلت إن منشأ الكثير منها شيوع هذا النوع من الخطأ في الصحف والمجلات وفي الكتب التافهة ، وجريانه على ألسنة كثير من المتعلمين الذين لا يُعنون بالبحث والتقصي . ويذكر الشاعر المرحوم الأستاذ أحمد محرم أنه التقى بحافظ بعد نشر قصيدته في شكسبير ومطلعها :

يحبيك من أرض الكنانة شاعر شغوف بذكر العبريين مغرم^(١)

فقال له : « أقرأت قصيدتي في شكسبير ؟ فأجاب الأستاذ محرم : نعم ، وابتسم ، فضحك حافظ وقال : وماذا نصنع يا أخي وقد ابتلانا الله بلغاة الصحف ؟ لقد أغرم كتابها بكلمة (شغوف) فهي لا تفارق أعلامهم ولا تنجلي عن شفافها ، والصواب (مشغوف) كما تعلم ، لقد جعلت مكانها كلمة (ولوع) وانتهى الأمر »^(٢) .

ومما يؤسف له أنه لم يكن يطبق بذل الجهد في البحث عن مادة لغوية للتحقق والاستيقان ، وفي ذلك يقول الشيخ عبد العزيز البشري : « لم يكن له صبر على مراجعة معاجم اللغة فيما يغم عليه من مفرداتها . ولعل الأمر إذا كرثه في بعض هذا تقدم إلى غيره فرجع إليه بما أصاب »^(٣) .

وأخطاء حافظ اللغوية والنحوية كثيرة منبثة في ديوانه . ويغلب على ظني أنه كان يعرف وجه الخطأ في كثير منها ، ولكنه كان يخضع لأوزان الشعر ويستبيح

(١) الديوان ٧٢/١ .

(٢) مجلة أبولو ص ١٢٩٧ (يولييه ١٩٣٣) .

(٣) مجلة أبولو ١٣١٣ (يولييه ١٩٣٣) .

لنفسه من الأخطاء ما لا يباح . وكان يداخله الشك ويزايله اليقين في بعضها ، ولكنه كان لا يحب أن يتكلف الجهد في سبيل الاستيثاق .
وقد تتبعْتُ أخطاءه في شعره فوجدتها كثيرة ، ولست بمستطيع هنا أن أثبتها كلها ، وحسبي أن أذكر أمثلة منها ظاهرة كل الظهور لا يحتاج الفكر إلى جهد لإدراكها : قال حافظ :

أزجى إليك قوافٍ منكسات الرءوس^(١)

والصواب (قوافي) بإثبات الياء وفتحها . وقال :

سما فوقه والشرق جذلان شيق لطلعته والغرب جذلان يرقب^(٢)

يريد بكلمة (جذلان) مخذول ، ولم نجد هذه الصيغة بهذا المعنى في معاجم اللغة ومدوناتها ، والظاهر أن الشاعر ذكرها مقابلة لكلمة (جذلان) في الشطر الأول . وقال حافظ :

وتفانيك في سبيل (أبي حفص) ومسعاك عند دفع المصاب^(٣)

يريد بلفظة (التفاني) الاستماتة في نصرة الحق . ولكن التفاني لا يتأتى إلا من طرفين ، فيقال : تفانت القبيلتان أي أفنى بعضهم بعضا . وقال :

وأشركنا مع الأخيار منكم إذا جلسوا لإيقام الحدود^(٤)

لم يرد في كتب اللغة (إيقام) بياء بعد الهمزة كما يقول حافظ ، والذي ورد (إقام) بدون ياء مصدر « أقام » ، وقال :

شهيد العلا لا زال صوتك بيننا يرنّ كما قد كان بالأمس داويا^(٥)

(١) الديوان ١/١٠٣ .

(٢) الديوان ١/١٥ .

(٣) الديوان ١/٢٣ .

(٤) الديوان ٢/٣١ .

(٥) الديوان ٢/١٤٩ .

المعروف في كتب اللغة أن الفعل (دوى) بتشديد الواو ، واسم الفاعل منه : مدو . وأما (دوى) بالتخفيف فهو استعمال شائع في كلام الناس في هذا العصر . وقال حافظ :

لهني عليك قضيتَ مرتحلاً لم تشك ، لم تستوص ، لم تقل^(١)
يريد بكلمة (تستوصي) توصي . ولم أجد فيما راجعته من كتب اللغة استوصيت بمعنى أوصيت . وقال :

أغمضتَ عينيك عنها وازدريتَ بها قبل الممات ولم تحفل بموجود^(٢)
أخطأ في قوله (ازدريتَ بها) لأن الفعل يتعدى بنفسه . وقال :

هبوا الأجير أو الحراث قد بلغا حدّ القراءة في صحف وفي كتب^(٣)
كان ينبغي أن يقول (بلغ) بدل (بلغا) لأن (أو) وجدت بين الأجير والحراث . وقال :

ولا تنس من أمسى يقلّب طرفه فلم تر إلا أنت في الناس عيناه^(٤)
كان الصواب أن يقول (إلا إياك) أو (إلاك) بضمير النصب . وقال :
وبات زغلوها في وكرها فزعا مروّعا ، لرجوع الأم ينتظر^(٥)

أخطأ في قوله (لرجوع الأم ينتظر) والصواب إسقاط اللام من (رجوع) لأن الفعل (ينتظر) متعد . وقال :

أو كان (في) ظي الحمى مغرما أما لهذا الظي من مرتع^(٦)

(١) الديوان ١٥٦/٢ .

(٢) الديوان ١٣٩/٢ .

(٣) الديوان ٢٦٥/١ .

(٤) الديوان ٣٧/١ .

(٥) الديوان ١٩٤/١ .

(٦) الديوان ٣٤/١ .

والصواب أن يقول (بظبي الحمى) بدل (فى ظبي الحمى) ، لأنه يقال مغرم بكذا ولا يقال مغرم فيه . وقال :

وعين اليم تنظر للبخار بنظرة واجد قلق الرجاء^(١)

أخطأ فى قوله (بنظرة واجد) والصواب حذف الباء . وقال :

أيها الرافلون فى حلال الوشى يجرون للذيول افتخارا^(٢)

أخطأ فى قوله (يجرون للذيول) والصواب حذف اللام لأن الفعل متعد . وقال :

رجسوتك مرة وعتبت أخرى فلا أجدى الرجاء ولا العتاب^(٣)

الصواب أن يقول (فما) بدل (فلا) ويستقيم الوزن . وهذه الأخطاء كثيرة فى شعر حافظ ، وتكفيها النماذج التى ذكرناها منها . وكان حافظ يسطو على معانى الأقدمين ، وقلماء كان يزفها فى أثواب قشبية تكسيها حسناً وبهاءً . ولكنه كان يكسوها فى الغالب الأعم أسمالاً بالية تمسخها مسخاً وتشوّهها تشويهاً يؤذى الذوق والفن جميعاً . والواقع أن سرقات حافظ وإغاراته على شعر غيره كثيرة يكاد يخطئها العد . وقد أورد له المرحوم الأستاذ إبراهيم المازنى الكثير من هذه السرقات^(٤) ، وردّها إلى أصولها ، ولكنه كان متحاملاً عليه — فى غير نصفه — تحاملاً ياباه النقد البرى . فهو يرى « أن حافظاً نكد القريحة ، وأنه لزمانة سليقته يلجأ إلى السرقة وانتحال شعر الأوائل » ، ويرميه بكثرة الإسفاف وقلة السمو حتى فى سرقاته « لأنه لا يعمد إلا إلى المعانى الصغيرة فيطلق يده فيها إذ كانت روحه لا تسع

(١) الديوان ١٣٧/٢ .

(٢) الديوان ٢٥٠/١ .

(٣) الديوان ١٦٦/١ .

(٤) انظر كتاب الأستاذ المازنى (شعر حافظ) .

المعاني الجلييلة» (١) . ويسرف الأستاذ المازني - رحمه الله - في حملته إسرافاً لا يقره عدل ولا ذوق فيحكم عليه بأنه « من ساقه الشعر ومتلصصيههم ، ولولا مؤازرة الأستاذ الإمام له وتنويهه به وحث الناس على اقتناء ديوانه لكان اليوم نكرة من النكرات وغفلا من الأغفال » (٢) .

والواقع أن حافظاً كان يتناول المعنى القديم فلا يضيف عليه شيئاً من الجدة أو الطرافة ، بخلاف زميله شوقي الذي كان يصوغ المعنى القديم صوغاً رائعاً ويطوره تطويراً يكسبه طرافة وجمالاً . وأمامنا معارضاته لفحول الشعراء ، ففيها تتضح قدرته على الخلق والابتكار . أما حافظ فكان حظه من ذلك تافهاً ضئيلاً . وإني لذاكرٌ هنا نماذج لهذه السرقات ، وستدرك منها أن حافظاً لم يكن يأتي بشيء جديد يروعك أو يستأثر بإعجابك كما كان يصنع شوقي . . قال حافظ :

جنيت عليك يا نفسي وقبلي عليك جنى أبي فدعى عتابي

أخذه من بيت أبي العلاء المشهور :

هذا جناه أبي لي وما جنيت على أحد

وقال :

ليت شعري هل لنا بعد النوى من سبيل للقا أم لات حين

أخذه من قول بشار :

يا ليت شعري وقد شط المزار بهم هل تجمع الدار أم لا نلتقى أبدا

وقال :

لست أدعوك بالتراب ولكن بقدود الملاح والأجياد
بحدود الحسان ، بالأعين النج ل ، بتلك القلوب والأكبـاد

(١) شعر حافظ ص ١٧ .

(٢) شعر حافظ ص ٢١ .

استأنس فيه بقول أبي العلاء :

خفف الوطء ما أظن أن يم إلا من هذه الأجساد

ولعلك تدرك أن بيت المعري أجمل صياغة وأنصع ديباجة . هذا إلى ما في
كلمتي (القلوب والأكباد) في بيتي حافظ من القلق والركاكة وقال :

رحم الله منه لفظاً شهيماً . كان أحلى من ردّ كيد الأعدى

أخذه من قول الخوارزمي :

وكيف ونظرة منها اختلاسا ألدّ من الشماتة بالعدو

وقال :

إني فتاك فلا تقطع مواصلي هبني جنيتُ فقل لي كيف أعتذر

نظر فيه إلى قول جميل :

فإن لم يكن قولي رضاك فعلمي نسيم الصبا يابثن كيف أقول

وقال :

لا تعين يا شكيب ديبى إنمسا الشيخ من يدب ديبا

أخذه من قول الشاعر :

زعمتني شيخاً ولست بشيخ إنمسا الشيخ من يدب ديبا

وقال :

وحسرة في القلب لو قسمت على ذوات الطوق لم تسجع

أخذه من قول الشاعر :

قد مرّ بي من صرفه حاصب لو مرّ بالورقاء لم تسجع

وقال في وصف الأرض في حرب اليابان :

وأصبحت تشتاق طوفانها لعلها من رجسها تطهر

أخذه من قول أبي العلاء :

والأرض للطوفان مشتاقة لعلها من درن تغسل

وقال من قصيدة يمدح بها البارودي :

تيممها والليل في غير زيه وحاسدها في الأفق يغرى بي العدا

أخذ معنى الشطر الثاني من قول المتنبي :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثى وبياض الصبح يغرى بي

وقال :

وما الذي تخشاه لو أنهم قالوا فلان قد غدا عبدا ؟

أخذه من قول مهيار الديلمي :

ما على قومك أن صار لهم أحد الأحرار من أجلك عبدا

وقال من قصيدة يرثي بها الأستاذ الإمام محمد عبده :

لقد كنت أخشى عادى الموت قبله فأصبحت أخشى أن تطول حياتي

أخذه من قول الشاعر :

كنت أخشى صرف الحمام فلما راح يحبي أصبحت أخشى حياتي

وقال :

نامت بمصر وأيقظت لحادث الأيام سعبدا

أخذه من قول بشار :

إذا أيقظتك صعباب الأمور فنبه لها عمرا ثم نم

وقال يرثي الإمام :

لقد جهلوا قدر الإمام فأودعوا تجاليسه في موحش بفسلة

أخذه من قول محمد بن بشير الخارجي :

أقول وما يدري أناسٌ غدوا به إلى اللحد ماذا أدرجوا في السبائب

وقال في رثائه أيضاً :

بكيننا على فرد وإن بكاءنا على أنفس لله منقطعات

أخذه من قول الشاعر :

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

هذه أمثلة من سرقاته ، ولو شئت أن أذكر سرقاته كلها لاحتجت إلى عشرات الصفحات ، وحسبي ما ذكرت منها .

وعلى أية حال فنحن نستطيع أن نقرر بعد الذي ذكرنا أن حافظاً لم تكن لديه القدرة على التجديد والابتكار ، بل إنه كان في كثير من الأحيان يمسخ المعنى ويسلبه بهاء وجماله .

خاتمة القول في حافظ

١

بين حافظ وشوقي

رأيت من الخير - إتماماً للبحث - أن أكتب فصلاً عن حافظ وشوقي ،
لأنهما كانا الشاعرين اللذين احتلا مكان الصدارة بين الشعراء في الثلث الأول
من هذا القرن ، وقد شغلا الناس ردحاً طويلاً من الزمان . ولا زالت أقلام مؤرخي
الأدب ونقده تـجـرى في المقارنة بينهما والمفاضلة بين شعريهما . وكان لكل
منهما أنصار يغفلون في تأييده ويشيدون بذكره في الآفاق . ولا زال هذان الشاعران
الفرسين المجليين في حلبة الشعر العربي الحديث . ولم يستطع شاعر عربي آخر
أن ينتزع من أحدهما قصب السبق حتى الآن . وكان هذان الرجلان متلازمين
في أفكار الناس ، فلا يُذكر أحدهما حتى يتداعى له اسم الآخر . ولحافظ في
ذلك نادرة لطيفة ؛ فقد حدث أن كتب المرحوم الدكتور حسين هيكل مقالا
عنهما بعنوان « شوقي وحافظ » ، فبلغ حافظاً أن شوقي غضب لذكره معه في
مقال واحد ، وكان لا يرى حافظاً ندّاً له ، فقال حافظ : لماذا يغضب ؟ إننا
متلازمان ، أما سمع الناس يقولون : « زفتي وميت غمر » فهل غضبت من ذلك
زفتي أو غضبت ميت غمر ؟ ويقولون « سميط وجبنة » و « خيار وفقوس »
و « عسل وبصل » ، ثم يعقب - رحمه الله - على ذلك بقوله : « أما من يكون
العسل ، ومن يكون البصل ، فهذه مسألة أخرى » (١) .
وأريد في هذا الفصل أن أعقد مقارنة عاجلة بين الشاعرين تبين منحي

(١) الفكاهة في مصر للدكتور شوقي ضيف ص ٧١

كل منهما الفنى والظروف التى اختلفت عليه وأثرت فى اتجاهاته الفنية ، فأقول :
كان الخلاف بين الشاعرين يتصل بالمزاج وأفق الخيال وطريقة التفكير
أولا ، وبالبيئة والنشأة وظروف الحياة والثقافة ثانياً .

فقد كان شوقى رجلاً هادئ الطبع وديع النفس ، يعيش فى جو من
التأملات وذكريات الماضى البعيد المليء بتاريخه ودياناته وأحداثه وعيبره . وقد
أتاحت له الخطوة لدى الحديو والحياة الرخية الناعمة التى كان يحياها أن يجلس
فى برج عاجى وينظر إلى الدنيا بمنظار الحكيم الفيلسوف الذى يشهد
زيفها وخداعها وزخرفها وذهاب بنينا إلى غير رجعة ، ويستخلص من ذلك
كله ما يستخلصه المعلم الناقد ، ويزجيه إلى الناس حكماً ونصيحاً وتوجيهاً . وقد
أعانت بسطة رزقه على أن يوفر همه كله فى إجادة نظم القريض ، فجال فى
آفاق الشعر مطلق الجناح على حد تعبير بعض الأدباء .

وقد شهد شوقى حقبة طويلة من تاريخ مصر والعالم العربى وكان يشهد هذه
الأحداث من مرباً عالٍ لم يتيسر لغيره من أدباء عصره أن يتسنمه ، وتبلورت
فى نفسه أحداث هذا العهد الطويل ، واختلطت بأحاسيسه وامتزجت بمشاعره ،
فأبرز لنا ذلك كله فى قصائد غراء استهوت أفئدة المصريين والعرب والمسلمين
جميعاً ، ووجدت فيها الطوائف على اختلافها غذاء لعقولهم وأفكارهم ، وشغف
بها الشباب شغفاً شديداً ، وأخذوا — وما زالوا — يرددون بعضها ألحاناً وطنية
يشحذون بها العزائم كلما انغمروا فى الحركات الوطنية .

وظل شوقى فى برجه ينظم فى نواحي الحياة المصرية والعربية والإسلامية ويتألق
فى فنه وهو قابع فى كرمته بعيداً عن صخب الحياة وضوضائها ، وقد توفرت له
كل عناصر العيش الرخى ، فصفا ذهنه ، وانشغلت قريحته ، وفرغ لفنه
مستمداً خواطره من عوالم فسيحة الأرجاء ، ليرسلها فى أشعار تنشد عنه فى
المحافل القومية والمناسبات المختلفة ، حاملة طابع المعلم الفيلسوف الحكيم الذى
يرسم للناس المثل العليا . وأحياناً يزف إليهم ذلك فى ثوب ملحة تاريخية ، أو عبرة
على ألسن الحيوان والطير ، أو قصص مسرحية . وبذلك سد فراغاً كبيراً فى

فنون الشعر العربى . . . أقول ظل شوقى فارغاً لفنه على هذا النحو حتى نهاية العمر .

من أجل ذلك أكبر الناطقون بالضاد شوقى وأحلوه من نفوسهم المكانة الأثيرة ، وبأبعه شعراء العربية بإمارة الشعر .

أما حافظ فقد شهد ما شهدته زميله من أحداث ، ولكن من مرباً دان . وقد نشأ وترعرع فى ظلال البؤس والمترية ، فأحس بمرارة الحرمان منذ صباه ، وطلع حسه أول ما طلع على جوانب من الحياة قائمة عابسة .

وقد شدّ شوقى فى مؤتلف حياته رحاله إلى أوربا فهل من معارفها ، وكان لهذا صدهاء المدوّى فى فنه . أما حافظ فقد سافر إلى السودان فى فجر حياته العملية فعانى فيه الكثير من لأواء العيش وقسوة الحياة ولفح الرياح وقيظ الهاجرة ، ولم تقع عينه هناك إلا على رماله وبطحاته ، وأحس فيه بظلم المستعمر وطغيانه . وقد ران على نفسه بسبب هذا كله سحب كثيفة من اليأس والتشاؤم ظهر أثرهما فى شعره ، وسرت فيه نغمة حزينة مُغشاة بالنقمة والبرم بالحياة .

ولعل من أهم الفروق بين الشاعرين أن شعر حافظ واضح قريب إلى الأفهام لا يجد الإنسان عناء كبيراً فى إدراك ما يرمى إليه . أما شعر شوقى فالإنسان يجد بعض العناء أحياناً فى فهمه .

ومعنى ذلك أن شعر حافظ ضحل قليل العمق ، تبهرك روعته وتأسرك سطوة ألفاظه ، فإن أنت فتشته وجدته خالياً من فحولة المعنى وعمق الفكرة . وسر ذلك — فيما أرى — طبيعة حافظ اليسيرة التى لا غموض فيها ولا التواء . فى حين كان شوقى أكثر عمقاً وأشدّ خصباً من حافظ . وما أظن أن المقارنة تجوز بين الرجلين فى هذا الباب ؛ فقد اختلفت على شوقى ظروف خلقت منه هذا الشاعر الحصب البارع ، وخلقت فيه هذه الطبيعة العميقة المعقدة . ويقول أستاذنا الدكتور طه حسين : « أما طبيعة شوقى فهى معقدة ينبثنا شوقى نفسه بتعقيدها ، فيها أثر من العرب وأثر من الترك وأثر من اليونان وأثر من الشركس . التقت كل هذه الآثار وما فيها من طبائع واصطلحت على تكوين نفس شوقى ، فكانت هذه النفس

بحكم هذه الطبيعة أو الطبائع أبعد الأشياء عن البساطة وأناها عن السذاجة .
وهى بحكم هذا التعقيد والتركيب خصبة كأشد ما يكون الخصب ، غنية كأوسع
ما يكون الغنى « (١) » .

ولقد واتت شوقى الظروف ، فتيسر له أن يلم بقدر ضخيم من الثقافات
المتنوعة المختلفة الطعوم والألوان ، فقد نهل من مناهل الغرب الفياضة ، وأكبّ
على ثقافة العرب فهل منها كذلك وعلّ ، واختزن في كنيسته محصولاً وافراً من
مفردات اللغة وأساليبها ، حتى إنه كان يحفظ مواد كاملة من معاجم اللغة العربية
كما يقول كاتبه الخاص « أحمد عبد الوهاب » (٢) . وهذا يفسر لنا انتضاح
شعره بالألفاظ الغراب ، كما يلجأ الرجل الثرى إلى اقتناء التحف القديمة يزين
بها بيته .

واطلع شوقى كذلك على حوادث التاريخ القديم والحديث فغزت عنده
الأفكار وغنى شعره بالمعاني وانبثت فيه الحكم البليغة . ويقول عنه الشاعر خليل
مطران : « فأما المعنى فيجيشه على مرامه أو على أبعد من مرامه ولا ينضب عنده
لأنه يستخلصه من عقل فوّار الذكاء ومعارف جامعة إلى أفانين الآداب في لغات
الإفرنج والعرب فلسفة الحقوق وحقائق التاريخ وغرائب السير التي يحفظ منها غير
يسير ، إلى مشاركات علمية وتنبيهات فنية استقاها من مطالعته صنوف الكتب
واتخذها من ملحوظاته ومسموعاته في جولاته بين بلاد الشرق والغرب » (٣) .
وقد أكسبته رحلاته الكثيرة وعلاقته الوثيقة بالسراى ألواناً من الثقافات
والمشاهد المختلفة لم تتح لغيره ، وتيسر له الوقوف على الكثير من أسرار السياسة
المصرية وتياراتها المتباينة وما يجرى على مسرحها خلف الستار .

ولم يتوفر لحافظ شيء من هذا كله ، لأن ظروفه كانت تختلف عن
ظروف صاحبه كل الاختلاف ، وقد شغلته أمور الحياة الدنيا عن كسب

(١) حافظ وشوقى لطف حسين ص ١٩٩ .

(٢) اثني عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء ص ٨٦ .

(٣) ذكرى الشاعرين ص ٤٣٥ .

المعرفة الواسعة . وكل ما ملأ به جعبته ثقافة عربية ضخمة استقها من أمهات الكتب ، فكظّ حافظته بالمفردات الكثيرة والتعبيرات البليغة والطرف اللطيفة . ولهذا نجده قد تخلف عن شوقي في كثير من ضروب القول ، وعجز خياله عجزاً بيناً عن أن يطاول خيال شوقي ، ووقف وقوفاً جامداً عن الابتكار والتجديد . ويقول عنه المرحوم الدكتور أحمد زكي أبي شادي : « كانت تنقصه الوثبات القوية الأخاذة والخيال الرائع المحبوب وقدرة التصوير الفني المتجلية في شعر شوقي مهما يكن من استجابة حافظ لعواطف الشعب استجابة فطرية »^(١) . وصدق الأديب الجليل الأستاذ أحمد حسن الزيات حين قال : « فحافظ لم يستطع - لضيق مضطربه وقصور خياله وضعف ثقافته - أن يعنى بغير الشكل والصورة »^(٢) وكان حافظ كلفاً بتقليد الأقدمين ، يتخذ منهم مثله الأعلى ، ويرى الشعر الجيد في محاكاتهم ، وهو يصرح بذلك في مقدمته لديوانه القديم .

أما شوقي فقد أبدى إعجابه بشعر الأقدمين في مقدمة ديوانه القديم . وفي الوقت نفسه أبدى إعجاباً شديداً بالأدب الأوربي ، وأعلن أنه مجدد ، وأنه لا يقلد إلا كارهاً ليرضى أذواق الناس .

وكان كلا الشاعرين يعنى غاية العناية بحسن الصياغة وتقليب البيان على وجوهه ، وإن كان شوقي - فيما أرى - أحذق في ذلك من صاحبه وأوسع حيلة وأكثر توفيقاً . ومظهر ذلك أن كلا منهما كان يعيد النظر في شعره ويبدّل لفظة بأخرى ويقدم ويؤخر كما يرى بغية توفير الجمال لفنه . وكان حافظ - كما يحكى عنه أصدقاؤه - يسمى هذه العملية (بالتذوق) ، ويمدح بعض الشعراء بأنه (ذواق) . . . يريد بذلك أن له ذوقاً مرهفاً في اختيار اللفظ والأسلوب . وقد غلا في العناية بالألفاظ وإيثارها على المعاني غلوّاً شديداً ، لأنه كان يرى أن الإجادة في الشعر تكون في طلاوته وروعة سبكه . أما المعاني فهي - في نظره - مستراد مشاع لكل شاعر . ويقول حافظ في حديث له مع محرر مجلة

(١) مجلة أبولو ص ٥٠٠ (ديسمبر سنة ١٩٣٢) .

(٢) في أصول الأدب ١/١٠٩ .

الهلal : « أنا أميت المعنى إذا لم يتفق لى لفظ رائع »^(١) . ويقول عنه صديقه خليل مطران : « إنه فى أقصى ضميره يؤثر البيت المجاد لفظاً على المجاد معنى »^(٢) . وليس من شك فى أن إثار حافظ اللفظ على المعنى قد أوصد أمامه أبواب التجديد ، فوقف من شوقى فى السفح يصعد إليه النظر وقد تربع على القمة . ولعل مبعث عناية حافظ باللفظ أنه كان يخاطب الجماهير ، فكان ينتقى القوى الجذاب منها . ولهذا السبب نفسه قل الإغراب فى شعره قلة ظاهرة ، لكى تقع أفهام السامعين على معانيه فى سهولة ويسر .

فالشعر كان عند حافظ وسيلة لا غاية ، فى حين كان شوقى يراه غاية وفناً يُطلبان لذاتهما .

ومن أسباب عناية حافظ باللفظ أنه كان يحس فى قرارة نفسه بسطحية معانيه وقرب غورها ، فكان يحاول أن يسد هذا النقص بالصياغة الجيدة واللفظ المنتقى .

أما شوقى فكان يحتفل بالمعنى احتفالاً شديداً ، إلى جانب احتفاله باللفظ ، وربما كان يؤثر المعنى على اللفظ ويوليه العناية الكبرى . وفى ذلك يقول الشيخ البشرى : « إذا كان لهذا الشاعر صنعة ، أو كان له فى شعره ما يعدّ من عمله ، فهو احتفاله للمعنى أولاً ، فإن واتى اللفظ ولان ونصع وأشرق ، وإلا فلأمّ هذا اللفظ الهبل »^(٣) .

ومع ذلك فشعره تتوفر فيه نصاعة الديباجة وجمال الإشراق وروعة الصياغة . وتدل مسودات بعض قصائده التى نشرها الدكتور شوقى ضيف على أنه كان يعنى باللفظ والموسيقى عناية بالغة^(٤) .

بل إننى أعتقد أن شوقى كان يولى الناحية الموسيقية اهتماماً شديداً ، وكان محصوله الضخم فى اللغة يسعفه فى ذلك . وإلى هذا ترجع صلاحية شعره للغناء

(١) مجلة الهلال (يونيه سنة ١٩٢٨) .

(٢) انظر « مختارات الزهور » التى أصدرها المرحوم أنطون الجميل سنة ١٩١٤ ص ٢٠ .

(٣) انظر كتاب (المختار) للبشرى ج ١ ص ٨٩ .

(٤) شوقى شاعر العصر الحديث للدكتور شوقى ضيف ص ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٠ .

أكثر من شعر حافظ ، إذ يتيسر للمغنين والملحنين أن يضعوا له الألحان المتنوعة ، فتنسب إلى آذان الناس نغمات رقيقة سرعان ما تجرى على ألسنتهم يتغنون بها في كل مكان . وأراني في غير حاجة إلى أن أسوق الأمثلة على ذلك ، فأغاني شوقي مشهورة طالما صدح بها عبد الوهاب وأم كلثوم .

أما حافظ فلم يغنَّ له — فيما أعلم — إلا قصيدة واحدة ، غنت أبياتاً منها أم كلثوم أخيراً وهي : « وقف الخلق ينظرون جميعاً » . على أن هذه الأغنية لم تلق في عالم الغناء من النِّفاق ما وجدته أغاني شوقي .

ولا ريب في أن محبوبه النعمة التي كان يرتع فيها شوقي قد أعانته على أن يصوغ من شعره هذا الغناء الذي كان يهز الأسماع ويهيج النفوس ويحوم بالشعب في سبحات الفن الرفيع .

وصدق حافظ حين قال في شوقي يوم أن بايعه بإمارة الشعر :

نمتك ظلال وارفات وأنعم وليّن عيش في مصيف ومربع
ومن كان في بيت الملوك ثواؤه ينشأ على النعمى ويمرح ويرتع^(١)

ولم يتح البؤس لحافظ مثل هذه الفرصة ، فلم يمكنه الحرمان من أن يعزف على مزهر هذا الفن الساحر ، بل شغلته الدنيا بنكباتها قبل أن يلتحق بدار الكتب . ولما أصبح مكفى الرزق بالوظيفة دفعه الحرص عليها إلى أن يحيا حياة القلق المستريب ، فاضطربت نفسه وضعفت أعصابه وأصبح يتوهم نفسه مرتعاً للأدواء والعلل .

وكان من أثر الحرمان الذي عاناه حافظ أن قصر خياله عن التحليق عالياً في سماء الفن ، فجاءت صوره البيانية باهتة قليلة الرواء . أما شوقي فلم يقع ناظره إلا على فاخر الرياش ونفيس الآنية ، وكان لهذا أثره البين في خياله وفي اتجاهاته الفنية وفي أوصافه . ولو فتشت في شعر حافظ كله لما ظفرت بمثل قصيدة شوقي التي يصف فيها الطبيعة والتي يقول فيها :

تلك الطبيعة قف بنا يا سارى
الأرض حولك والسماء اهتزنا
ولقد تمر على الغدير تخاله
حلو التسلسل موجه وخريره
ينساب فى مخضلة مبتلة
حتى أريك بديع صنع البارى
لروائع الآيات والآثار
والنبت مرآة زهت بإطار
كأنامل مرت على أوتار
منسوجة من سندس ونضار^(١)

ولا تجد فى شعر حافظ كله مثل أبيات شوقى التى يصف فيها الجزيرة على
الجانب الغربى من النيل والتى منها :

وخيلة فوق الجزيرة مسها
كالتبر أفقاً والزبرجد ربوة
وقف الحيا من دونها مستأذناً
وجرى عليها النيل يقذف فضة
يغرى جواريه بها فيجثها
راع الظلام بها أوانس ترمى
يخطرون فى ساح القلوب عوالياً
عفن الذبول من الحرير وغيره
ذهب الأصيل حواشيا ومتونا
والمسك تراباً واللجين معيناً
ومشى النسيم بظللها مأذوناً
نثراً ويكسر مرمرأ مسنونا
ويغيرهن بها فيستعلينا
مثل الأطباء من الربى يهونا
ويملن فى مرأى العيون غصونا
وسحبن ثم الآس والنسرينا^(٢)

ولا شك أن هذه الصور الرائعة يظهر فيها أثر البيئة الناعمة المترفة التى عاش
فيها شوقى .

وأبلغ ما يوصف به شعر شوقى أنه — كما يقول الأستاذ أحمد حسن
الزيات — : « ينقله عن طبع دافق وحس صادق وذوق سليم وروح قوى ، فيأتى
به مطرد السلك محكم السبك كمنصور الدهر وأفواف الوشى ، لا يشوبه ضعف
ولا لغو ولا تجوز ولا قلق »^(٣) .

(١) الشوقيات : ٤٣/٢ .

(٢) الشوقيات : ١٧١/٢ .

(٣) فى أصول الأدب ١٠٠/١ .

وقد كانت حياة حافظ القلقة المضطربة سبباً في أن يقول شعراً فيه مبالغة "للإنجليز وتأيد" لسياستهم وتحطيم "لأسلحة الجهاد وبث لعوامل اليأس في نفوس المصريين ، وغير ذلك مما تبرأ منه الوطنية . وقد أساء حافظ بذلك إلى نفسه وإلى وطنه وقومه ، واعتدّ هذا فيه غميلة شنعاء يذكرها له التاريخ على مر الأيام . وأشعاره التي يمكن أن تدخل في عداد الشعر الوطني بشيء من التجاوز ضيقة الحدود ، ولا تعدو أن تكون تسجيلاً لما يردده الناس في المجالس والأندية ، ثم إنها ليست ذات نهج مرسوم .

أما شوقي فإنه لما رجع من منفاه بعد الحرب العالمية الأولى اختلط بالشعب واندمج فيه وشاركه عواطفه وميوله وأصبح المعبر الأكبر عن آمال مصر وآلامها وبخاصة في ظروفها الأخيرة . ولم يقف عند تناول أحداث مصر ، بل تناول أحداث الشرق كله ، وغدا المترجم عن مشاعر الشرقيين . وأخذ يعزف على قيثارة الشعر نغمات متنوعة الألوان حول العروبة والشرق والإسلامية (Islami me) بمعناها الواسع فأجاد العزف ، وأصبح شعره في هذه المعاني نماذج سامية للشباب المتحمس فضلاً عن أنه يدل على أن الشاعر كان شديد الغيرة على وطنه عميق الإحساس بشعور الأمة المصرية بخاصة والأمة العربية والعالم الإسلامي بعامّة . ولم يكن شوقي « بمعزل عن الأمة في شعوره ، لا يخامرها بعطفه ولا تخامره بعطفها ولا يناضل في ميدانها نضال من يهيمه النصر والهزيمة » كما يقول الأستاذ عباس العقاد^(١) ، بل إنه كان لسانها الصادق والمترجم عن شعورها والحافز لهممها والمستل "لعوامل اليأس والاستكانة من نفوسها والمفاخر بآثارها والمنافر بأبجاده ، وبخاصة بعد أن عباد من منفاه واندس في غمار الشعب .

وكان شوقي يؤمن بمذهب (الإسلامية) ، ويرى أن المسلمين يجب أن يستوا [أمة واحدة متحدة الكلمة ليستعيدوا مجدهم الدائر وعزهم الغابر . ولهذا نراه ينتفض بنشوة الأمل الفوار حينما أحرز الترك النصر في حربهم مع اليونان سنة ١٩٢٢ على يد « كمال أتاتورك » ، فقال قصيدته المشهورة :

(١) شعراء مصر ص ١٨٥ .

الله أكبر كم في الفتح من عجب يا خالد الترك جدّد خالد العرب (١)

ولكن أستاذنا طه حسين يقول إنه امتلاًضحكاً وأسّى حين قرأ هذه القصيدة لأنه يعجب « من ذكر خالد ومقارنة مصطفى كمال به حين كان العالم الحديث يضطرب بذكر القواد النابهين في الحرب الأخيرة ، وحين كانت صور هؤلاء القواد النابهين في الانتصار والانهزام تملأ النفوس إعجاباً (٢) » . ويرى أستاذنا أن هذا دليل على إغراق شوقي في التمسك بالقديم ويقول : والحق أنا لا نعرف أمدح شوقي مصطفى كمال حين قرنه إلى الفاتح العربي القديم أم ذمه ؟ » .

وإني لأخالف أستاذنا فيما ذهب إليه كل المخالفة ، لأنني أعتقد أن شوقي يعبر عن شعور عميق كان يختلج في نفوس المسلمين جميعاً حين شعروا بمرارة الضعف والذلة تحت سنابل الاستعمار ، فأخذوا يستعرضون أمام أبصارهم ما كان للإسلام من مؤدد ومجد في غابر الأزمان ، ويذكرون الإمبراطورية الإسلامية القديمة التي دانت لها الدنيا وجثا أمام خلفائها الأباطرة والملوك ، ويذكرون إلى جانب ذلك أبطال المسلمين الذين ملثوا سمع الدنيا من قواد وحكام . فإذا ما ظهر من بين المسلمين في العصر الحديث من يصل ماضيهم بحاضرهم ويذكّرهم ببطولة أجدادهم انبثق في نفوسهم فجر الأمل وتبددت منها دياجير اليأس . فشوقي في الواقع مسلم بأوسع ما يفهم من هذه الكلمة من معنى .

أما حافظ فقد أخلد إلى السكوت بعد أن ظفر بالوظيفة ، وخيل إليه أنه إذا قال شعراً قذف به إلى قاع السجن ، أو أصيب في منصبه على أهون تقدير . وقد قال في هذه الفترة شعراً قليلاً عدّه في نطاق الشعر الوطني وخشى أن يذيعه في حينه ، حتى إذا أمن الأذى — كما كان يتوهم — أذاعه ، فإذا به شعر لا يؤاخذ به عليه أي إنسان .

ولشوقي نفحات فنية رائعة في مناسبات وطنية ، لم يستطع حافظ أن يدانيه

(١) الشوقيات : ٤٨/١ .

(٢) حافظ وشوقي ص ٢٥ .

فيها ؛ فقد اعتدى أثيم على الزعيم سعد زغلول في محطة القاهرة ، ولكن عناية الله
نجته ولم تصب الرصاصة إلا ذراعه ، فنظم حافظ في هذه المناسبة سبعة أبيات
هزيلة متهافئة ، وقد أخذ يكرر الشطر الأول من البيت الأول ثلاث مرات ،
وإني لذاكرها لك لتدرك بذوقك مبلغ تهافتها :

أحمد الله إذ سلمت مصر	قد رماها في قلبها من رماكا
أحمد الله إذ سلمت مصر	ليس فيها ليوم جدٍ سواكا
أحمد الله إذ سلمت مصر	وقاها بلطفه من وقاكا
قد شغلنا يا (سعد) عن كل شيء	وشغلنا بأن يتم شفاكا
في سبيل الجهاد والوطن المحـ	بوب ما سال أحمرأ من دماكا
قل لذاك الأثيم والفسانك المفـ	تون : لا كنت ، كيف ترى السماكا
إنما قد رميت في شخص (سعد)	أمة حرة فشلت يداكا

وأنت ترى أن هذه الأبيات كانت — كما يقول الأستاذ حسن الصيرفي —
« كهبة النائم إثر سهر مضن ، فهو يفتح عينيه في ثقيل وتراخ ويتحدث في ثناوب
وتكاسل . وكذلك كانت أبياته ، عليها أثر الجهد والإعياء ما عليها ، فهي هزيلة
شاحبة متهاكة » (١) .

أما قصيدة شوقي في هذه المناسبة فقد جاءت آية من آيات الفن الرائع .
فهو يعرض علينا الصورة في ألوان زاهية أخاذة ، إذ يشبه مصر بسفينة ربانها
سعد ، وقد سارت السفينة في بحر تصطبخب أواذيه وتلاطم أمواجه ، وقد أخذت
ركابها نشوةً بنجاة ربانها من خطر كاد يحرق به وبهم ، فطفقوا يهللون جذلين ،
يدقون طبول الفرح متصايحين بأنغام البشرى والسرور .

وتبدو براعة شوقي في أنه أخذ يوفر لفنه عنصر الموسيقى التي تتلاءم مع الصورة
البيانية كل التلاؤم . فأنت تحس إذ تستمع إلى القصيدة كأن هناك أمواجاً
تمور من حول السفينة وتلاطمها ، والسفينة تسير في طريقها قدما في أناة ودعة ،
لا تلوى على شيء . واسمعه يقول في مطلعها :

(١) حافظ وشوقي للأستاذ الصيرفي ص ٥٥ .

نجا وتمائل ربانها ودق البشائر ركبانها
 وهلل في الجو قيدومها وكبر في الماء سكانها
 تحول عنها الأذى وانثنى عباب الخطوب وطوفانها
 نجا « نوحها » من يد المعتدى وضلّ المقاتل عدوانها^(١)
 ويقول منها :

فيا سعد جرحك ساء الرجال فلا جرحت فيك أوطانها
 فيا سعد أنت أمين البلاد قد امتلأت منك إيمانها
 ويقول مبتهجا بنجاة الزعيم :

وقى الأرض شر مقاديره لطيف السماء ورحمانها
 ونجى الكنانة من فتنة تهددت النيل نيرانها
 ويقول في (النيل) حياة مصر :

وما هو ماء* ولكنه وريد الحياة وشرانها
 تتم مصر ينابيعه كما تتم العين إنسانها

والقصيدة كلها عذبة الموسيقى ، غنائية الألفاظ ، حلوة الجرس . وقد ساعد ذلك بعض المغنين على أن يضعوا لها الأنغام الجميلة ، وغنت السيدة (أم كلثوم) أبياتاً منها .

وقد انضمت عذوبة الصوت إلى روعة الموسيقى ، فنجم عنهما أغنية أخاذة ، تلعب بعواطف السامعين وعقولهم .

وليس المجال هنا مجال تحليل للقصيدة وبيان ما فيها من التصوير الفني البديع والعرض الجذاب الرائع والحجج القوية التي يسوقها ليدحض بها دعاوى الإنجليز ، مما لم يستطع حافظ أن يأتي بمثله في لاميته « الشعب يدعو الله يا زغلول » .

ولا شك في أن حافظاً قد تخلف عن شوقي في هذه المناسبة تخلفاً كبيراً .
 وربما كان سر ذلك ما ذهب إليه المرحوم الدكتور « أحمد أمين » من أن « خير
 شعر حافظ ما اتصل بعاطفته الحزينة . فأما فرح بالطبيعة وفرح بنفسه ونحو
 ذلك مما ينبعث عن عاطفة السرور فلم يكن له كبير مجال في شعره » .
 ولعلك توافقني على أن الإجازة الفنية التي توفرت لشوقي كانت أثراً من
 آثار الشعور الحاد ، ومظهراً من مظاهر الحس القوى والعاطفة الرقيقة والخيال
 الحصب .

ولما هم الملك (فؤاد) بإصدار الدستور أنشد حافظ بين يديه قصيدة أثناء
 زيارته لمدرسة فؤاد الأول بقصر الزعفران ، وقد عرض فيها للدستور والبرلمان
 ونظم شوقي قصيدته العصماء (قفى يا أخت يوشع) وعرض فيها للدستور والحياة
 النيابية كذلك . ولكن الفرق كبير جداً بين القصيدتين ؛ فقصيدة حافظ لا تجد
 فيها معنى قيمياً أو فكرة عميقة أو صورة رائعة ، وإنما هي كلها طرق من التعبير
 قد ستمها الناس ومجتها الآذان ، ولا تجد فيها إلا كلمات منظومة يتلو بعضها
 بعضاً ولا تدل إلا على معانيها اللغوية ليس غير . فهو يستهل قصيدته مخاطباً
 قصر الزعفران :

أقصر الزعفران لأنت قصر	خليق أن يتيه على النجوم
كلا عهديك للأجيال فخر	وزهوٌ للحديث وللقديم
ثوى بالأمس فيك علا ومجد	وأنت اليوم مثوى للعلوم
فمن نبل إلى مجد أثيل	إلى علم إلى نفع عميم
أضفت إلى صروح العلم صرحاً	بزورة ذلك الملك الحكيم ^(١)

فأنت ترى أن هذا نظم ليس فيه جمال وليست فيه روعة . والقصيدة كلها
 من هذا الشعر السوقي الذي لا يستثير من نفسك ذرة من إعجاب . وقد استوقفني
 بيت فيه مبالغة أفسدها الشاعر بسوء أدائه ؛ فإنه أراد أن يصف نهوض مصر

بعد طول رقاد فقال :

أفقتنا بعد نوم فوق نوم على نوم كأصحاب الرقيم
فما هذا النوم المتتابع الذى منسخ البيت مسخا ؟ إن هذا البيت يذكرنا
— كما يقول أستاذنا طه حسين^(١) — بالبيت القديم :
فما للنوى جذ النوى قطع النوى . . . كذلك النوى قطاعة . لو صالى
وقد سمع الأصمعى هذا البيت فقال ساخرا : « لو سبط الله على كل هذه
النوى شاة فأكلته » .

ويشيد الشاعر بما للملك من فضل فى إصدار الدستور فيقول :
أياذن لى الملك السبر أنى أهنى مصر بالأمر الكريم
فيا مصر اسجدى لله شكرا وتبى واقعدى طربا وقوى
فقد تم البناء وعن قريب تُرَف لك البشائر من نسيم
فدار (البرلمان) أعز دار تشاد لطالب المجند العميم
بها يتجمل العرش المقدى وتحيا مصر فى عيش رخيم
فشرّفها بربك واختتمها وأسعدها بدستور تميم
بآى (محمد) وبآى (عيسى) فعوّذه وأيات (الكلیم)

هكذا عرض حافظ للدستور وللبرلمان بما لا يخرج عن أداء العامة وقعدة
(المصاطب) من أنصاف المتعلمين . وقد زاد القصيدة ضعفاً وابتدأ أن قوافيها
غير مستقرة فى مواضعها ، فأغلبها قلق مضطرب لم يأت الشاعر به إلا ليختم
البيت ليس إلا ، من مثل (ظهر الأديم) و (المجند العميم) و (عيش رخيم)
و (دستور تميم) ، وأشباه ذلك من القوافى التى أكرهت على أن تستقر فى غير
مكانها المناسب .

أما قصيدة شوقى (قفى يا أخت يوشع^(٢)) فهى آية من آيات الروعة

(١) حافظ وشوقى ص ١١٠ .

(٢) الشوقيات : ٣٣٤/١ .

والجمال ، فقد أحسن شوقي تناول المعانى وأحسن الأداء . وقد أراد الشاعر أن يبين أمرين اثنين :

أولهما أن لتاريخ مصر القديم مجداً وعظمة لا تتطال إليهما أمة أخرى من أم الأرض .

وثانيهما أن تاريخ مصر الحديث فقير إلى هذا المجد وإلى هذه العظمة ، قمين بأن يسعى لاستردادهما .

وبهذا يشعر كل مصرى ، وبهذا كان يشعر شوقي ويحس .
والقصيدة معروفة مشهورة ، ولست أرانى فى حاجة إلى أن أسوق لك نماذج منها . وقد عرض فيها شوقي لتاريخ مصر الفرعونية عرضاً أخاذاً . وشوقي يمتاز بفرعونيته التى يبت فيها اعتزازه بمجد الفراعنة العظام . وفى ذلك رد بليغ على من يرميه بتزوجه عن مصريته . ويكاد شعر حافظ يخلو من مثل هذه الفرعونيّات تقريباً ، اللهم إلا قصيدة « مصر تتحدث عن نفسها » ، وقد تحدثنا عنها فى فصل سابق .

ولعل من أروع ما فى قصيدة شوقي أنه يبسط أمام الشباب تاريخ بلادهم العتيّد ، ثم يرسم لهم طريق الخلود ويحفزهم على الاقتداء بأجدادهم الفراعنة :

وليس الخلد مرتبة - تُلقَى وتؤخذ من شفاء الجاهليّنا
ولكن منتهى همم كبار إذا ذهبت مصادرها بقينا
وأثار الرجال إذا تناهت إلى التاريخ خير الحاكمينا
وأخذك من فم الدنيا ثناء وتركك فى مسامعها طيننا

ولم ينس الشاعر أن يعرّض بسياسة الإنجليز ، ويكشف ألاعيبهم ، ويبين مبلغ ظلمهم ، ويستحث المصريين على استنقاذ وطنهم من براثن المحتلين . وتذوب نفسه حسرات على ما بلغنا من ضعف حدا بالمؤتمرين فى (لوزان) عقب الحرب العالمية الأولى إلى أن يوصدوا فى وجوهنا أبواب المؤتمر وألا يصيخوا لمطالبنا . ولو كنا موفورى الأهبة والعتاد لما وجدنا منهم صلفاً ولا كبراً ، لأن

القوة عندهم هي كل شيء . ويذكر الشاعر في ألمه وكده أن (كرزون) وزير خارجية انجلترا حينذاك يقضى في أمورنا وليس لنا أمامه حول ولا قوة :

أتعلم أنهم صلفوا وتاهوا وصدوا الباب عنا موصدنا
ولو كنا نجر هناك سيفاً وجدنا عندهم عطفاً ولينا
سيقضى (كرزون) بالأمر فينا وحاجات الكنانة ما قضينا

ويتحدث إلى فرعون فيستنطقه ويسأله ويلتمس منه الجواب عن هذه الأسرار التي عجز العقل عن حلها ، وهي أسرار الحياة والموت والبعث والنشور . ويخلص الشاعر من ذلك كله إلى الأمر الذي كان يشغل المصريين جميعاً في ذلك الحين ، وهو (الدستور) والحياة النيابية . وأنت تراه في ذلك مصرياً بكل معنى الكلمة ؛ فهو يحس بما كان يحس به المصريون ويشفق مما كانوا يشفقون منه . وهو يحب الحكم الديمقراطي ويكلف به ، ويتمنى على الملك (فؤاد) أن يصدر الدستور وأن يقيم حكماً نيابياً سليماً . ولم تمنعه صلاته بالقصر أن يغمز الملك غمراً رقيقاً وأن يعرض بحكم الفرد الذي مضى إلى غير رجعة :

زمان الفرد يا فرعون ولي ودالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاية بكل أرض على حكم الرعيمة نازلينا
فعجّل يا ابن إسماعيل عجل وهات النور واهد الحائرنا
هو المصباح فأت به وأخرج من الكهف السواد الغافلينا

وهكذا نرى شوقي مصرياً صمياً ، يعبر عن إحساس المصريين وآمالهم ويعتز بمجد الفراعنة أشد اعتزاز .

ولا نجد شاعراً مصرياً يشمخ بآثار الأقدمين كما صنع شوقي في فرعونياته الغراء . وصدق الأديب الكبير المرحوم (مصطفى صادق الرافعي) حين قال : « إن قصائد شوقي في الآثار أعظم من الآثار نفسها وأبقى على الزمان »^(١) .

(١) انظر كتاب (وحى القلم) ج ٢ ص ١٤٤ .

وكان شوقى يقتنص المناسبات ليخوض في مجد مصر وحضارتها الثليدة ،
يمده قلب نابض بحب مصر وعاطفة زاخرة بالهيام بها . . . يقول في مطولته التي
أنشدها في مؤتمر المستشرقين بجنيف :

قل لبنان بنى فشاد فغالى	لم يجز مصر في الزمان بناء
فاعذر الحاسدين فيها إذا لا	موا فصعب على الحسود الثناء
زعموا أنها دعائم شيدت	بيد البغى ملؤها ظلماء
إن يكن غير ما أتوه فخار	فأنا منك يا فخار براء

وهو يضرب في هذه القصيدة على قيثارة الفخر بمصر والإشادة بعظمتها .
وأنت تجده في مواطن كثيرة يذكر المصريين بسالف مجدهم وبيت في نفوسهم
الأمل والثقة في استعادة ما فقدوه حتى يسودوا الدنيا كما كانوا سادتها .
وكان شوقى يغلو في حب مصر غلوًا يدفعه إلى أن يدعو الشباب إلى تقديسها
كما يقدسون الله تعالى :

وجّه الكنانة ليس يغضب ربكم	أن تجعلوه كوجهه معبودا
ولتوا إليه في الدروس وجوهكم	وإذا فرغتم فاعبدوه هجودا
إن الذى قسم البلاد حباكم	بلدا كأوطان النجوم مجيدا
قد كان - والدنيا لحود كلها -	للعبقريّة والفنون مهودا ^(١)

وكان قلمه يخفق باسم مصر إذا طوّحت به الأقدار بعيداً عنها . وكل مصرى
يحفظ أبياته التي قالها والغبطة تملأ قلبه حين آب إلى وطنه من منفاه ، وكنا نردها
ونحن صبية نختلف إلى دور العلم :

ويا وطني لقيتك بعد بأس	كأنى قد لقيت بك الشبابا
ولو أنى دُعيت لكنت ديني	عليه أقابل الحتم المجابا
أدير إليك قبل البيت وجهي	إذا فهت الشهادة والمتابا

ووطنه عنده أئمن من الخلد ، وله في ذلك بيت أغر مشهور :

وطنى لو شغلتُ بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

والمقام لا يتسع للحديث عن وطنيات شوقى . وحسبنا أن نشير فى هذه اللمحة العابرة إلى ما كان بين الرجلين من بون شاسع فى شعر الوطنية . فحافظ كان رسول الاستيئاس ، وشوقى كان باعث الأمل ومحى ميت الرجاء .

وبعد ، فلا مرء فى أن شوقى كان أعمق وطنية وأحسن أداءاً لمعانيتها من حافظ . ولم يكن شوقى شاعر مصر فحسب ، بل كان شاعر العرب جميعاً ؛ يتهج إذا أصابتهم حسنة ، ويبكى إذا مسهم الضر ، فكلنا فى الهم شرق كما يقول . وما من حادث يحدث فى أى قطر عربى إلا ألفت لذلك صدى عميقاً فى نفس شوقى ؛ يتأثر به كأنه وقع على شخصه ، وينطلق مدافعاً عن المظلوم ، راثياً للمحزون ، مشاركاً فى النكبة ، مواسياً المنكوبين .

وكان شوقى الشاعر الذى يملأ نفسه مجد العرب ، يردده دائماً فى تيه ومخيلة . وكان يؤوده ما يراهم فيه من انحلال وتفكك وضعف . . . كان يذكر ذلك حتى فى قصائده التى نظمها فى مناسبات لا تمت إلى العروبة بسبب^(١) .

وكان لا يفتأ يهيب بالعرب أن يطرحوا الخلاف جانباً ، وأن يستعيدوا عصر الرشيد والمأمون وصلاح الدين . وهو لا ينسى فى مقدمات كثير من قصائده أن يشيد بأجساد العرب وصناديدهم وأبطالهم وملتهم السمحاء . وبلغ به الحرص على تخليد مجد الإسلام والعرب أن وضع له جزءاً خاصاً ، هو « دول العرب وعظماء الإسلام » ، وقد أشرنا إليه فى فصل سابق .

وهناك أمر له أثره فى المقارنة بين الشاعرين ؛ ذلك أنك لا تجد لحافظ شأنًا يذكر فى ميدان المسرح والتثيل ، اللهم إلا هذه المنظومة التمثيلية التى أنشأها بمناسبة ضرب الأسطول الإيطالى لمدينة بيروت سنة ١٩١٢ . وقد أجرى حوارها بين جريح وزوجته وطبيبه وأحد مواطنيه العرب^(٢) . وهى رواية ليست

(١) مثل قصائد : أنس الوجود ، والنبل ، والرحلة إلى الأندلس ، ومسجد أيا صوفيا ، وغيرها .

(٢) الديوان ٦٩/٢ .

شيئا يُعتدّ به في عالم المسرح ، إذ لم تتوفر فيها العناصر الأصيلة للتمثيلية . فهو يُجرى الكلام على لسان الجريح في عشرات الآيات التي ليس فيها هذا الحديث السريع المتبادل بين أشخاص الرواية والذي يستشيق السامعين ويسترعى انتباههم . وأنت تحس في التمثيلية بتراخ في الحوار وفتور في الحركة ، ولا ترى فيها هذا التحليل الدقيق للعواطف المشبوبة التي تختلج في نفوس الناس ، وليس فيها هذا الاستعراض الخفيف السهل الذي هو من خصائص المسرحية . فحافظ إذن قد تخلف عن شوقي في هذا الميدان تخلفاً بيناً ، ولم يخط فيه إلا هذه الخطوة الضيقة .

وما من شك في أن هناك أموراً صرفت حافظاً عن أن ينظم للمسرح ، وهي أمور تتعلق بثقافته ونشأته وأفقه وبيئته . يضاف إلى ذلك عدم شهوده المسرحيات العالمية التي شهدتها شوقي في (باريس) إبان الطلب . فقد ذكر شوقي أكثر من مرة أنه كان كثيراً ما يسافر من (مونييه) إلى (باريس) ليشاهد تمثيل ساره برنار أمام (كوكلان) الأكبر ، وتمثيل (جان هنج) و (جبريل ريجان) وغيرهم .

ولهذا نجد شوقي متأثراً إلى حد كبير بهذه المسرحيات الفرنسية ، ويلاحظ هذا بنوع خاص في روايته (على بك الكبير) و (قمباز) ؛ فقد تأثر في نظمه بروايتي (جان دارك) التي ألفها (جول باربيه Jules Barbier) و (كليوباترة) التي وضعها (إميل مورو Emile Moreau) .

ويطول بنا الحديث لو عقدنا مقارنة بين هاتيك الروايات لنتبين مبلغ تأثر شوقي بالمسرحيات الغربية التي شاهدها . والأمر الذي أرجحه ويرجحه غيري من الباحثين في تاريخ المسرح العربي أن شوقي قد تأثر في مسرحياته بالمسرحيات الفرنسية أكثر من تأثره بمسرحيات شكسبير كما يدعى البعض .

كل هذه العوامل التي ذكرنا جعلت حافظاً يشعر في نفسه بالعجز عن إنشاء التمثيلية المسرحية .

ولا يحق لي أن أختم هذا الفصل قبل أن أعرض لمسألة جدية بالعناية وهي :

كيف كانت العلاقة بين حافظ وشوقي ؟

كان حافظ يؤمن في قرارة نفسه بأنه شاعر عربي كامل العدة تام الأداة . وكان يرى أن من حقه أن يأخذ مكانه في ظلال العرش المصري كصاحبه . فأخذ يضرب على قيثارته عسى أن يُسمع صاحبَ العرش فيصغى إليه ويطلب شخصه ويصطنعه في حاشيته . ولكن قيثارة أخرى يحملها شاعر القصر كانت تشغل سمع الأمير وقلبه . فأخذ رجاء حافظ يتضاءل وأيقن ألا مكان له ولا لغيره في تلك الظلال ما دام شاعر القصر يكتسب طريقه ويحول بينه وبين الخطوة عند الحديو ، فأخذ يغمز شوقي غمراً في بعض قصائده ، ذاكراً من طرف خفي أنه أشعر منه ، مثل قوله من قصيدة نظمها في تهنئة الحديو بعيد الأضحى سنة ١٩٠٤ :

صُغْتُ القريضُ فما غادرتُ لؤلؤة	في تاج كسرى ولا في عقد بوران
كم رام شأوى فلم يدرك سوى صدَف	سأحتُ فيه لنظام ووزان
عابوا سـكوتي ولولاه لما نطقوا	ولا جرتْ خيلهم شوطاً بميدان
اليوم أنشدتهم شعراً يعيد لهم	عهد النواصي أو أيام حسان
أزف فيه إلى العباس غانية	عفيفة الحدر من آيات عدنان
من الأوانس جلاها يراعُ فتي	صافي القريحة صاح غير نشوان ^(١)

وله قصائد أخرى مثل هذه فيها تعريضٌ بشاعرية شوقي لا تخفى على فطنة اللبيب .

وقد طمع حافظ في ظلال أرحب من إمارة مصر ، هي ظلال الخلافة في الآستانة ، فأخذ يتغنى بمدح السلطان عبد الحميد ، ويذكر فضله وفضل خلفاء آل عثمان في إقامة ذلك البناء الإسلامي الضخم الذي رفعوه على سفار سيوفهم .

(١) الديوان ٢٨/١ .

ولكن حافظاً لم ينل شبراً من ظلال الخلافة يتفيؤه ، وضاع شعره فيها كما ضاع من قبل في إمارة مصر . ويقال إن اليد التي أبعدته عن بلاط الخديو لم تدعه يظفر بأمله في بلاط الخلافة ، فسدت عليه السبيل بعد أن عمل بعض الأصدقاء على تمهيده ، وبعد أن أوشك الشاعر العاثر الجلد أن يقع على أمنيته . فغمره اليأس ، ورضى بالبقاء بين سائر الشعب ، يشهد جهاده ، ويندب صرعاة ، ويرثي زعماءه ، فذلك أقرب فنون الشعر إلى قلبه . وكان يرسل النكتة أحيانا يرفه بها عن نفسه وعن الناس فيعجبون بها ويضحكون ملء أشداقهم . وقد أحس الشعب بقرب هذا الشاعر إلى نفسه فأحبه وأدناه ، ورضى الشاعر عن ذلك ووجد فيه عوضاً عن تنكر الزمان له .

وزاد من إقبال الناس على شعره ما كان يضيفه عليه صاحبه في إلقائه من نعمة صادقة حزينة . يضاف إلى ذلك ما كان من اتصاله بزعماء الأمة ومثوانستهم بعدوبة محضره وأنس جوه .

ولست أشك في أن حافظاً كان ينفس على شوقي مكانته في القصر وحظه من النعمة والجاه . ولهذا كان يتناوله في مجالسه الخاصة بالنقد اللاذع والتجريح العنيف . ويقول صديقه المرحوم الأستاذ « دسوقي أباطة » — وكان هو وأسرته على صلة قوية بحافظ — : وكنت في العادة إذا ما أطلقت المديح في شعر شوقي يثور محاولاً أن يشينني عن الثناء عليه بنقده المر وقدرته على تخريب اللفظ وتشويه المعنى ^(١) . ويقول الأستاذ أباطة في موضع آخر : وكان إذا خلونا به يحمل على شوقي وشعره ، ولكنه لا يتنازل لنقد غيره ^(٢) .

على أن حافظاً لم يستطع أن يخفى حقه على شوقي فجهرأ به جهراً في كتابه « ليالي سطيح » ، ووجه إلى أمير الشعراء سهاماً مصممة من النقد المر . فشوقي في نظر حافظ لا يأتي إلا « بتلك المعاني الغريبة التي ما سكنت في معنى عربي

(١) مجلة أبولو (يوليو سنة ١٩٣٣) ص ١٣٤٣ .

(٢) مجلة أبولو ص ١٣٤٥

إلا وذهبت بروائيه^(١) . وهو — على ما فيه من سعة الرزق — « فارغ للشعر ، غير مشغول بغيره ، فالعجب أنه لا يجيد ، وأعجب منه أن يقال إنه مكثار ، وقصائده في العام معدودة وقوافيها مقدرة محدودة . . . ولو مُنح من دقة المباني ما مُنح من رقة المعاني فسلم أسلوبه من ذلك التعقيد الذي أخلق ديباجته لكان شاعركم غير مدافع » ، ولكنه « لم يغادر معنى من معاني العرب والفرنجة إلا سلخه ومسخه . . . فما عسى يكون فخره علينا ؟ »^(٢) .

وأخيرا يقول حافظ في شوقي : وصاحبنا لا يزال مهزول اللفظ ، غامض المعنى ، يحتاج الناظر في كلامه إلى تخوت الرمل وطوالع التنجيم . وقد قصر همه على اصطحاب طائفة من الألفاظ لا يعدوها إلى غيرها حتى أصبح بعضها علامة تدل على شعره . . . ولقد نظرتُ في طريقة شعره فألفيتها في الغارة على صحائف الأولين . فهو لم يغادر معنى في خدّره إلا سباه ولا لفظا في وكره إلا أزعجه^(٣) . هذه بعض نفايات الحقد الذي كان يحمله حافظ في زوايا نفسه لزميله أمير الشعراء شوقي .

وكان شوقي بالتالي ينفس على حافظ أمراً له شأنه ، هو حسن إلقائه لقصائده . وكل من سمعه يُنشد قصائده في المحافل يذكر مبلغ تأثيره العميق في الجماهير بحسن إلقائه الحلاب . ويقول الشيخ عبد العزيز البشري : ولا أحسب شاعراً يجيد الإنشاد : كما يجيده حافظ . وإن له لصوتاً جهيراً فخماً رائع المقاطع ، فإذا هو وقف ينشد الجماهير هزها هزاً ورفع بالترتيل حظ الكلام درجات على درجات^(٤) .

ويقول صديقه المرحوم خليل مطران : كان حافظ يلقي شعره بأفصح بيان ممكن ، ويضاعف قيمته بحسن إنشاده^(٥) .

(١) ليالي سطيج ص ٤٥ .

(٢) ليالي سطيج ص ٤٧ .

(٣) ليالي سطيج ص ٤٨ .

(٤) ذكرى الشاعرين ص ١٥ .

(٥) مجلة الكتاب (أكتوبر سنة ١٩٤٧) ص ١٤٩٥ .

وكان الأديب الكبير الأستاذ عباس العقاد يعجب بحسن إلقاء حافظ ولباقة صوته وسحر إيمائه ، وقد قصّ علينا الكثير عن مقدرة حافظ في هذا الباب ، وذكر أنه قال له ذات مرة : إنك بأن تملأ قوالب الحاكى أخرى منك بطبع صفحات الدواوين « ، فكان — رحمه الله — يضحك ويقول : وتكون أنت « عقادى » على تخت الغناء^(١) .

ويقول المرحوم الأستاذ دسوقي أباطة في سحر إلقاء حافظ : أى أديب لم يُهرع إلى سماعه يتدفق في الحفل بصوته الجمهورى الممتع وإلقائه الخلاب الذى كان يدوى بين الجماهير فيضم سحراً وفخامة جديدين إلى ديباجته الساحرة الفخمة^(٢) .

ويذكر الشاعر الأستاذ أحمد رامى أن شوقى كان ينظر إلى حافظ بعين مغيظة بسبب « حسن إلقائه الذى كان ينتزع من الجماهير التصفيق والإعجاب . فى حين أن شوقى كان يعجز عن إلقاء قصائده . يضاف إلى ذلك أن حافظاً كان يملأ المجالس بهجة وأنسا . أما شوقى فكان خاملاً فى مجالسه ، يغلب عليه العي^(٣) » .

وما من شك فى أن شخصية حافظ ، وما طبع عليه من سرعة الخاطر وحضور البديهة والقدرة على اقتناص النكتة البارة ، ثم ما مُنح من جهارة الصوت وحسن الإلقاء ولباقة الإيماء ، مع بسطة فى الجسم ومتانة فى البنيان — كل ذلك كان له شأن ليس باليسير فى جذب الأسماع إليه وإعجاب الناس به وإقبالهم عليه .

ومن الغريب أن حافظاً — مع قدرته على حسن الإلقاء — لم يجرؤ مرة واحدة على أن يقف بين الناس خطيباً . وإذا أقيمت له حفلات التكريم كان صديقه مطران يمهّد له بإلقاء كلمة ، ثم يقف هو ليلقى ما أعدّه من القريض ، فيطرب

(١) شعراء مصر ص ١٥ .

(٢) مجلة أبولو ص ١٣٤٣ .

(٣) مجلة المصور عدد ١٧١٢ بتاريخ ٢ أغسطس سنة ١٩٥٧ .

الجمهور الذى يصفق له إعجاباً ، وكأنه سمعه خطيباً .

* * *

أما بعد ، فهذه كلمة موجزة فى المقارنة بين الشاعرين الكبيرين تضاف إلى ما ذكرناه عنهما فى الفصول السابقة . وأظنك قد التقطت صورة واضحة المعالم لكل من الشاعرين ، وأدركت الفنون التى برز فيها كل منهما وبرز صاحبه ، وأرجعت ذلك إلى علله الصحيحة التى ترجع إلى النشأة والثقافة والاستعداد الفكرى .

وما من شك فى أن ثقافة حافظ العربية الخالصة قد حالت بينه وبين الابتكار والتجديد . وقد حاول أن يجدد ، ولكن لم تسعفه ثقافته ولا مواهبه كما أسعفت زميله شوقى ، هذا الشاعر الذى سار قدما فى طريق التجديد ، ولم يحل النقد المر الذى وجه إليه من شائيه بينه وبين المضى فى سبيله . وبذلك حقق للشعر العربى ما لم يكن يخطر على بال أحد . ولهذا اعتبره بعض مؤرخى الأدب العربى من رجال الطبقة الأولى بين شعراء العربية ، واعتدّه البعض أعظم شاعر ظهر بين العرب فى جميع العصور .

وكان شوقى يشعر بعبقريته ويحس بجلال قلبه ؛ فكان يشبه نفسه تارة بالبحترى :

إن الذى قد ردّها وأعادها فى بردتك أعاد فى البحترى

وتارة بأبى نواس وتارة بأبى تمام وتارة بالمتنبى :

ولى درر الأخلاق فى المدح والهوى وللمتنبى درّة وحصة

وكان كلفاً بمعارضة الفحول كما صنع مع البحترى والبوصيرى وابن زيدون . وقد عارض أيضاً عينية ابن سينا .

وكان شوقى يحب أن يعرف الناس قدره وأن يولوه ما هو خليق به من التقدير والإعظام . ولهذا كان يحب الثناء ، ويفرق من النقد ويضيق به ، حتى لقد قيل إنه كان يختصم من يتعرض لنقده .

ومن عجب أن الأستاذ العقاد لا يعترف لهذا الشاعر الفذ بسبق أو نبوغ . فهو يرى أنك لو قرأت شعره كله « وحاولت أن تستخرج من ثناياه إنساناً اسمه (شوقي) يخالف الأناسي الآخرين من أبناء طبقته وجيله لأعيانك العثور عليه . ولكنك قد تجد هنالك خلقاً تسميهم ما شئت من الأسماء ، وشوقي اسم واحد من سائر هذه الأسماء ^(١) » .

ولكني أخالف الأستاذ الكبير في ذلك كل المخالفة ، وأرى أن شوقي ذو شخصية متميزة واضحة الجوانب . وأنت حين تقرأ مطولة من مطولاته تشعر بهاتف يصيح من أعماق نفسك : هذا هو شوقي .

فشوقي في الواقع قد جمع بين طبيعة الشاعر الفنان وطبيعة الشاعر المثقف الذي يستعين بالعقل إلى جانب الإحساس الدقيق في رسم الصورة .

والحق أن هذا الشاعر العظيم قد أقام وحده للعربية سوقاً عرض فيها ألواناً من غذاء العقل والروح معا . فقد أنقذ الأغاني من ابتذالها وفسولتها ، وجعلها شعراً حياً يمس شغاف القلوب ويحرك المشاعر ويبعث الهمم . ووضع للأطفال أقاصيص شعرية كانت خير ملهاة وأعظم مثقف لهم . وأخرج روايات تمثيلية لا عهد للعربية بها من قبل . . . وغير ذلك من ألوان الشعر وضروبه .

وبذلك فند مزاعم القائلين بعقم اللغة العربية وقصورها وعجزها عن مسايرة اللغات الحديثة .

ونحن لا ننكر أنه كان لحافظ بعض المزايا التي تحدثنا عنها بالتفصيل في فصول سابقة . ولكن المزية — كما يقول أصحاب المنطق — لا تقتضي الأفضلية . وإنى لأختم هذا الفصل بكلمة قيمة للدكتور طه حسين في الشاعرين الكبيرين يقول فيها : وشوقي لم يبلغ ما بلغ حافظ من الرثاء ، ولم يحسن ما أحسن حافظ من تصوير نفس الشعب وآلامه وآماله ، ولم يتقن ما أتقن حافظ من إحساس الألم وتصوير هذا الإحساس وشكوى الزمان .

لم يبلغ شوقي من هذا ما بلغ حافظ ، وهو بعد هذا أخصب من حافظ

طبيعة وأغنى منه مادة وأنفذ منه بصيرة وأسبق منه إلى المعانى وأبرع منه فى تقليد الشعراء المتقدمين ، لأن حافظاً كان يقلد فى الألفاظ والصور ، وكان شوقى يقلد فيها وفى المعانى أيضاً . ولشوقى فنون لم يحسنها حافظ ، وما كان يستطيع أن يحسنها . شوقى شاعر الغناء غير مدافع ، وشوقى شاعر الوصف غير مدافع ، وشوقى منشئ الشعر التمثيلى فى اللغة العربية .

يلتقى الرجلان فى كثير ، ويفترق الرجلان فى كثير ، ولكنهما على كل حال أعظم المحدثين حظاً فى إقامة مجدنا الحديث (١) .

كتب حافظ

يجدر بنا قبل أن ننتهى من الحديث عن حافظ أن نسوق لمحة خاطفة عن الكتب التى تركها ، وعن نثره وما يمتاز به .

(١) ديوان شعره ، وقد طبع ثلاث مرات . وخيرها الطبعة الأخيرة (سنة ١٩٣٧) التى أشرف عليها المرحوم الدكتور أحمد أمين وزميلاه .

(٢) البؤساء (Les misérables) وهى رواية ألفها شاعر فرنسا الأكبر (فكتور هيجو (Victor Hugo) ، وترجمها إلى العربية شاعرنا حافظ إبراهيم سنة ١٩٠٣ . وقد تحدثنا فى فصل سابق عن السبب الأكبر الذى حدا بحافظ إلى ترجمة هذا الكتاب ، وهو أنه يصور جانباً حياً من جوانب نفسه ، جانب البؤس والشقاء . فقد ألمّ بحياة البائسين الأشقياء . . . وضعه بائس وعربه بائس كما يقول حافظ .

وهناك أمر خلىق بالنظر وهو أن حافظاً يذكر أن كتاب (البؤساء) خير ما أخرج (هيجو) للناس وهذا مما دعاه إلى ترجمته . ولكن هذا الكتاب فى الواقع ليس خير كتبه ، ولا تستطيع أن تلمس فيه شخصيته القوية وعبقريته الفذة . ولو اقتصر قارئ على هذا الكتاب ليستكنه شخصية هذا الأديب العظيم لزعم أن (هيجو) ليس له هذا النبوغ الذى اختلب العقول .

فالبؤساء كتاب كغيره من الكتب ، ليس فذاً فى بابه ولا فى فكرته ، كتاب فيه الحسن وفيه القبيح ، فيه كلام قيم وفيه إطالة لا غناء فيها .

ولا ريب فى أن حافظاً قد وجد فى هذا الكتاب شيئاً من الراحة والعزاء ، لأنه يرى فيه أناساً غيره فى المجتمع البشرى يعانون من ضروب البؤس أشد مما يعانى وأقسى .

ولعل أهم ما يستوقفنا في كتاب (البؤساء) الأسلوب العويص الذي قد يستغلق فهمه على العقول . فهو أسلوب بدوي خالص مليء بالألفاظ الغريبة . . . قد تعجبك جزالته وقد تأسرك رصانة تراكييه ، ولكنك تشعر بأنك تقرأ لكتاب يعيش مع الفرزدق وذى الرمة ورؤبة أيام كانت اللغة لغة الصحراء يصنعها الحداة والماتحون ولا تنطق بها إلا الأشداق الواسعة العريضة والشفافة الضخمة الغليظة التي تحسن وصف الجواد بأنه « عظيم السليل ، سحير ، أدك ، أهنع ، وهو إن لم يكن أصيلا كان عصليا^(١) » كما ذكر حافظ في بؤسائه .

ولعل حافظا قد أحس بوعورة هذا الأسلوب فقام بشرح ألفاظه الصعبة للقراء في آخر طبعة شهدها سنة ١٩٢٣ .

ولا شك في أن حافظاً قد عنى نفسه في تخير هذه الألفاظ الشاردة . وما كان أن خلق حافظاً بأن يتوخى أسلوباً سلساً يجمع بين الجزالة والركة كما كان يصنع غيره من كتاب العصر الحديث لتقوى الآصرة بينه وبين قرائه . وما أظن إلا أن كل مؤلف يهمله أن يشيع علمه بين الناس وأن يذوقوا أدبه في سهولة ويسر ، لا أن يسلك بهم دروبا مظلمة يضلون في حنادسها فلا يعرفون أيمانهم من شمائلهم .

وهناك غميلة أخرى بقاء اغتمزتها في حافظ . . . تلك أنه لم يكن دقيقاً في ترجمته للكتاب ؛ فهو يلخص ولا يترجم . وأنا لا أدري سر ذلك ، وأكاد أعزوه إلى أنه لم يكن يحسن الإلمام بالفرنسية ، ويقول أستاذنا طه حسين : كان حافظ يلم بالفرنسية ولكنه لم يكن يتقنها لا نطقاً ولا فهماً^(٢) .

وقد تصفحت النسخة الفرنسية ذاتها ، وقارنت بعض صفحاتها بما يقابلها في الترجمة فألفيت البون شاسعا بين النصين . وأنا لا أريد أن أتهم شاعرنا الكبير بعدم الأمانة في النقل ، ولكني أحب أن أقول إنه لم يعطنا صورة صادقة لما كتبه (هيجو) في بؤسائه . وهذا — فيما أرى — من أشد الأمور خطراً على الأدب

(١) البؤساء ٥٢/٢ طبعة مطبعة (أبو الهول) .

(٢) حافظ وشوقي ص ١٩٦ .

والعلم، فليس للترجمة قيمتها حقاً إلا إذا كانت صورة صحيحة للأصل في أسلوب ممتع جذاب .

وقد لاحظت أن حافظاً قد ترك الصحيفة الأولى برمتها من الكتاب ولم يُشر إليها بحرف واحد . وليس من المعقول أن يكون ذلك ناجماً عن السهو أو الخطأ المطبعي .

(٣) « لبالي سطيح » وقد ألفه حافظ فيما بين سنتي ١٩٠٧ و ١٩٠٨ وحذا فيه حذو المرحوم الأديب « محمد المويلحي » في كتابه « حديث عيسى ابن هشام » . فهو عبارة عن مقامة نقدية اجتماعية بث فيها حافظ خواطره وآراءه في الأدب والسياسة والمجتمع المصري ، ووصف فيها حال مصر وهي ترزح تحت نير المستعمرين ، وندّد بأعمال الإنجليز ولكن في شيء من الحذر والترقب .

(٤) « كتيب في التربية الأولية » ترجمه حافظ عن اللغة الفرنسية بتكليف من وزارة المعارف ، وقامت بطبعه مطبعة المعارف سنة ١٩١٢ . ولم يجد حافظ في ترجمته لهذا الكتاب العسر والمشقة اللذين وجدتهما في ترجمته للبؤساء ، لأن لغته الأصلية سهلة لا تكلف المترجم كثيراً من العناء .

(٥) « الموجز في علم الاقتصاد » ، وقد ندب المغفور له « أحمد حشمت باشا » وزير المعارف إذ ذاك الشاعرين الكبيرين حافظ إبراهيم و خليل مطران لتعريب هذا الكتاب وتولت طبعه مطبعة المعارف سنة ١٩١٣ . ومن غريب الأمر أن يترجم الشاعر حافظ إبراهيم كتاباً في الاقتصاد وهو رجل مبسوط اليد ، لا يعرف إمساك النقود ولا ضبط المعداد . فقد كان سخياً سخاء لا حد له ، يصادفه المعتز فيعطيه كل ما في يده ولو كان به خصاصة « ولو ملك الدنيا كلها لفرقها في يوم واحد » كما يقول المرحوم الدكتور أحمد أمين^(١) ، وكان زميله مطران آية في الكرم والإيثار .

(١) مقدمة الديوان ص ١٧ .

وقد أحسن حشمت باشا الاختيار حين ندب هذين الأديبين لهذا العمل .
فطران. كان متمكناً من الفرنسية خير تمكن ، وحافظ كان بحراً طامياً في العربية .
ويقولون إن مطران هو الذى حمل العبء الأكبر من الترجمة . أما حافظ فكان
له بعض المشاركة في صوغ الأسلوب العربى . ويذكر بعضهم أنه لم يسهم في ذلك
إلا بمقدمة الكتاب فقط .

والمعربان يذكran أنهما لاقيا في سبيل ذلك كثيراً من المشاق حتى لقد
حدثتهما نفسيهما بالنكوص والتوقف ، ولكنهما مضيا في الشوط إلى غايته وفي
الطريق إلى نهايته ، حتى حال العناء إلى لذة وانقلب الإحجام إلى إقدام كما
يقولان^(١) .

وربما كان أهم ما أزجاه هذان الشاعران للعربية من ترجمة كتاب في
(الاقتصاد) أنهما وضعاً ألفاظاً عربية للمصطلحات الفرنسية في هذا العلم الذى
كان جديداً على لغتنا في ذلك الحين ، وبذلك زوداها بكلمات جديدة . وقد
أسيغت بعض مصطلحاتهما وأخذت طريقها إلى الاستعمال ، وجمد بعضها
مكانه وحل محله ما كان أخف دوراناً على الألسن . ولكنهما على كل حال
قد نهضا بالمهمة بقدر ما استطاعا واستحقا جزيل الشكر .

* * *

هذه هي الكتب التى تركها حافظ ، وقد لاحظت في كتاب « البؤساء » أنه
التزم الأسلوب المرسل الذى لا يتقيد بالسجع والمحسنات البديعية إلا قليلاً ،
ولكنه أسرف في اختيار حوشى الألفاظ وغريبها .

أما أسلوبه في « ليالى سطيح » ففيه عناية بالزخارف البديعية إلى جانب
الاهتمام بالغريب . وهذه الخصيصة ظاهرة في أساليب كتاب ذلك العصر من
أمثال الشيخ محمد عبده والسيد توفيق البكرى وإبراهيم اليازجى وغيرهم . وكان
شوقى أمير الشعراء ينحو هذا النحو العتيق في كتابته . وأنت تجده في كتابه

(١) انظر مقدمة كتاب الموجز .

(أسواق الذهب) يبذل أقصى الجهد في تزيين أسلوبه بالمحسنات البديعية وبخاصه السجع والازدواج ، حتى ليخيل إليك أنك تقرأ للقاضي الفاضل في القرن السادس الهجري . وتراه يلتزم هذه الطريقة في المقدمات التي يقدم بها قصائده الكبرى ، كقوله في مقدمة قصيدته السينية « الرحلة إلى الأندلس » :

لما وضعت الحرب الشؤمي أوزارها ، وفضحتها الله بين خلقه وهتك إزارها ،
ورم لها ربوع السلم وجدّد مزارها ، أصبحت وإذا العوادي مقصرة والدواعي
غير مقصرة ، وإذا الشوق إلى الأندلس أغلب والنفس بحق زيارته أطلب ،
فقصدته من برشلونة وبينهما مسيرة يومين بالقطار المحمد والبخار المشتد ، أو
بالسفن الكبرى الخارجة إلى المحيط الطاوية القديم نحو الحديد من هذا البسيط ،
فبلغت النفس بمراء الأرب واكتحلت العين في ثراه بآثار العرب^(١)
ورواية لادياس التي ألفها في أخريات القرن الماضي من هذا اللون الذي
يُحفل فيه بالسجع والبديع .

وليس من شك في أن شوقي كان يسير في هذا الدرب مطاوعةً لزمانه وجريا
على ذوق عصره . فلما انصرم زمان السجع وهب شباب الأدباء يحاربون هذا
الضرب من النثر رأينا أمير الشعراء يتخلى شيئا فشيئا عن هذه الطريقة الفاضلية .
وهذا واضح في آخر إنتاجه ، وهي مسرحية (أميرة الأندلس) التي وضعها
عام ١٩٣٢ قبل وفاته ، فليس فيها من السجع إلا القليل الذي يجيء عفواً لحاظ^(٢) .
والحق أن النابيين من شباب الأدب قد أخذوا في الثلث الأول من هذا القرن
يحاربون الحفاظ على هذا الأسلوب العتيق ويدعون إلى تحرير النثر من تلك
الأصفاد التي ظل مقرّنا فيها قرونا طويلة . وكان على رأس هؤلاء الداعين المنفلوطي
والمازني رحمهما الله ، وطه حسين والعقاد مدّ الله في حياتهما . وكانت حملاتهم
في هذا الميدان قوية مثمرة . انظر إلى ما يقوله أستاذنا الدكتور طه في هذا

(١) الشوقيات ٥٢/٢ .

(٢) انظر رواية (أميرة الأندلس) طبعة دار الكتب سنة ١٩٣٢ .

الباب : لا يخذعك ما ترى من هذه الزينة اللفظية والبهرج البديعى والبيانى من سجع وتكلف فى الاستعارة والتشبيه والكناية والتورية وما إليها . فليس هذا كله إلا تكلف المعدم البائس يريد أن يظهر مظهر المثرى . إنما مثل هؤلاء الكتاب الذين يتكلفون ألوان البديع والبيان فى غير فائدة ولا جدوى مثل هذه المرأة أعوزها الجمال الفطرى فهى تتكلف الزينة ، وأعوزها حر الحلى فهى تخذع الناس بهرجه وزائفه^(١) .

وقد كان لهذه الحملات العنيفة أثرها البالغ فى أن تحرر النثر من تلك القيود البغيضة وأصبح طليقا مرسلا يقرى العقل والقلب لذة وإمتاعا . وقد تأثر حافظ بهذه الدعوة وأخذ يتخلص إلى حد ما من الجرى وراء شوارد الغريب والزخارف اللفظية التى رأيناها فى كتابى البؤساء وليالى سطيح . وهذا ظاهر بيّن فى كتابى « كتيب فى التربية الأولية والموجز فى علم الاقتصاد » . فأنت تقرأ فيهما أسلوباً مرسلأحرّاً ، فيه وضوح وفيه سهولة وبخاصة الكتاب الأول ليكون ملائماً لطلاب العلم والثقافة . وحافظ يشير إلى ذلك فى مقدمة الكتاب فيقول : ولم أنزل به إلى منزلة الساقط المرذول ، ولم أرتق إلى ذروة البلاغة ، ولكن جعلتُ لى سبيلا قصدا بين الغائتين^(٢) .

والواقع أنه تأثر بالدعوة إلى التحرر تأثراً كبيراً .

وبعد ، فهذا هو حافظ إبراهيم شاعر النيل كما رأيته ، وأشهد أننى أخلصت فى دراسته كل الإخلاص ، لم أنحيف فى رأى ولم أتحرّف فى القول . وقد يأخذ عني البعض أننى قسوت عليه بعض الشيء فى كثير من المواطن ، ولكنى أشهد الله أن ذلك لم يكن عن قلىّ أو حاجة فى النفس ، وإنما أردت أن أرضى الحق والتاريخ والفن جميعاً .

وعسى أن يجد القراء فى هذا الكتاب صورة واضحة المعالم للرجل فى إطار من النزاهة والنصفه ، والله ولى التوفيق . . .

(١) حافظ وشوقى ص ٦٩ .

(٢) انظر مقدمة « كتيب فى التربية الأولية » .

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٩

حافظ إبراهيم شاعر النيل

● دراسة تحليلية منصفة لحافظ وشعره . تضعه في مكانه المناسب بين شعراء العصر الحديث . في لمسات صادقة لطبيعة الرجل ومزاجه تجلى لنا العوامل التي أثرت في اتجاهاته الفنية — والمقارنات القيمة الجريئة بينه وبين أمير الشعراء شوقي تبين الفنون التي برز فيها كل منهما . مع رد ذلك إلى أسبابه الحقة ...

مكتبة الدراسات الأدبية

* صدر منها :

- | | |
|---|------------------------------|
| ١ - مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية | للدكتور ناصر الدين الأسد |
| ٢ - شعراء الرابطة القلمية | للأنسة نادرة جميل سراج |
| ٣ - شوقي شاعر العصر الحديث | للدكتور شوقي ضيف |
| ٤ - الأدب العربي المعاصر في مصر | للدكتور شوقي ضيف |
| ٥ - فارس بنى عبس | للأستاذ حسن عبد الله القرشي |
| ٦ - ألف ليلة وليلة | للدكتورة سهير القلماوي |
| ٧ - خليل مطران شاعر الأقطار العربية | للدكتور جمال الدين الرمادي |
| ٨ - الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي | للدكتور يوسف خليف |
| ٩ - منهج الزمخشري في تفسير القرآن | للأستاذ مصطفى الصاوي الجويني |
| ١٠ - التطور والتجديد في الشعر الأموي | للدكتور شوقي ضيف |
| ١١ - دراسات في الشعر العربي المعاصر | للدكتور شوقي ضيف |
| ١٢ - شوقي وشعره الإسلامي | للدكتور ماهر حسن فهمي |
| ١٣ - حافظ إبراهيم شاعر النيل | للدكتور عبد الحميد الجندی |

* يصدر قريباً :

للدكتور محمد زكي العشماوي
للأستاذ عيسى الناعوري

النابعة الذبياني
أدب المهجر

دارالمعارف للطباعة والنشر

ملزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة - ٣ شارع ماسيرو - القاهرة